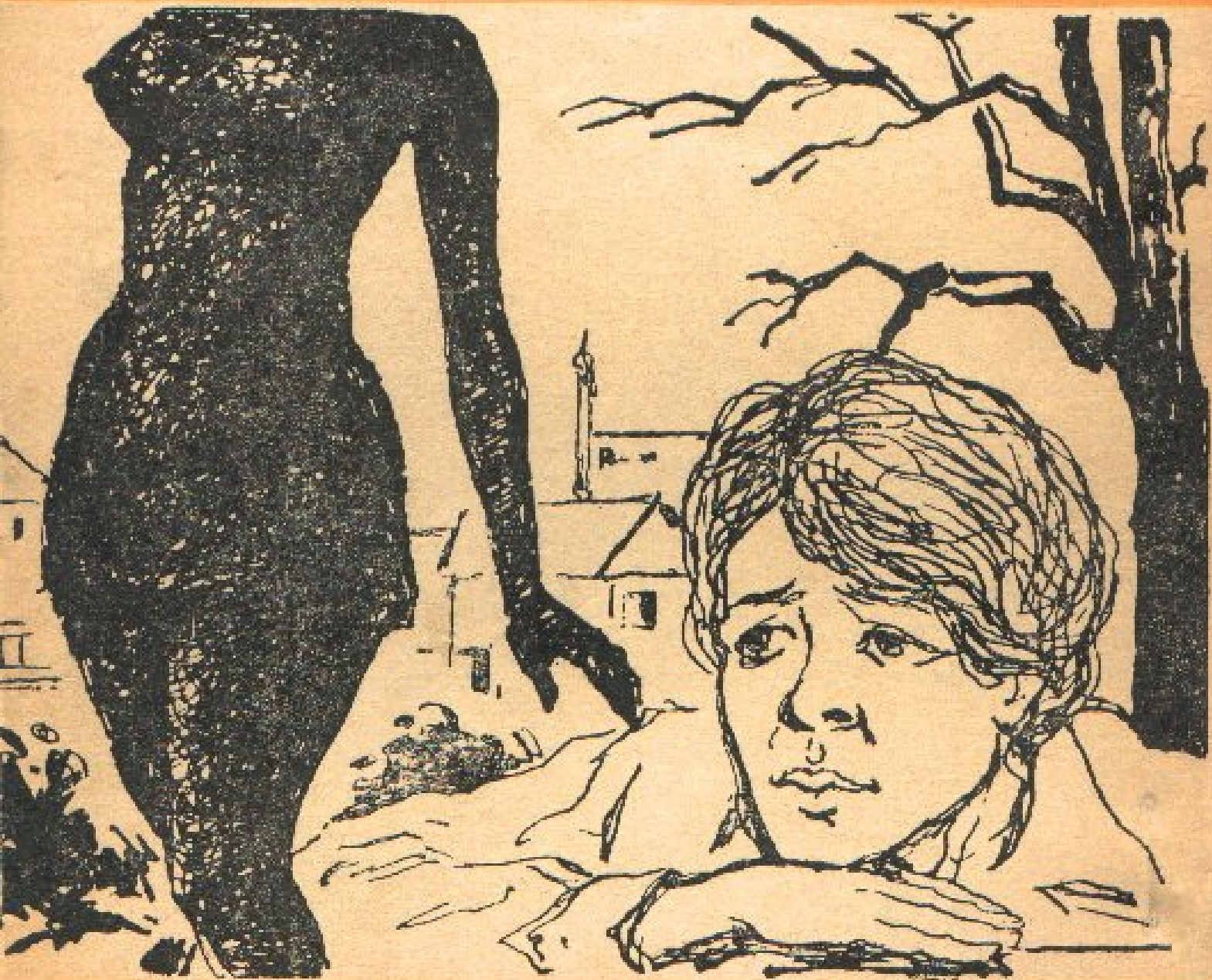


الكتاب الذهبي

البرتومورافيا



المرآة

المراشقان

البرتومورافنيا

ترجمة: زغلول فهمي

آجو ستينو

- ١ -

تعود آجو ستينو وامه في بواكير ذلك الصيف أن يستقلا الطوف كل صباح ويخرجا للنزهة في البحر . . وكانت الام في المرات القليلة الاولى تصطحب بحارا ولكن آجو ستينو كشف عن ضيقه بالرجل على صورة واضحة ومنذ ذلك الحين صار يعهد اليه هو بمهمة التجديف ، ولشد ما كان يمتعه أن يدفع الطوف على صفحة البحر الهادىء الشفاف في تلك الساعة المبكرة من الصباح بينما تجلس أمه في مواجهته مرحة هادئة كالبحر والسماء وتخاطبه في صوت رقيق كما لو كان رجلا لا صبيا في الثالثة عشرة من عمره . وكانت أم آجو ستينو امرأة طويلة جميلة لا تزال في شرح الشباب ، أما آجو ستينو فقد كان يراوده احساس بالفخر كلما صاحبها في تلك الرحلات الصباحية . وكان يبدو له أنهما محط أنظار جميع المستحمين الذين يعجبون بأمه ويغبطونه على سعادته . وكان يخيل له ان صوته يزداد قوة لاقتناعه بأن جميع الانظار متجهة نحوهما كما بدا له ان جميع حركاته كانت تتسم بشيء من

الرمزية كما لو كانت جزءا من مسرحية وكأنه هو وامه لا يقفان على الشاطئ بل على المسرح حيث تركزت عليهما عيون مئات المشاهدين . وكانت امه أحيانا تظهر في ثوب جديد فلا يسهه الا ان يعلق عليه بصوت مرتفع راجيا بينه وبين نفسه ان يسمعه غيره من الناس . وأحيانا كانت أمه ترسله الى كابينة الاستحمام للبحث عن شيء أو آخر بينما تقف هي في انتظاره بالقرب من القارب فيطيع أمرها يراوده سرور خفي لامكانه تأخير رحلتها ولو بضع دقائق . وأخيرا يستقلان الطوف فيمسك آجو ستينو بالمجدافين ويقوم بالتجديف الى عرض البحر . ولكنه يظل خاضعا لخيلاء البنوة وتأثيرها المقلق فترة طويلة . وما ان يبتعد عن الشاطئ بعض الشيء حتى تأمره أمه بالتوقف عن التجديف لتضع غطاء الرأس المطاط الخاص بالاستحمام وتخلع نعلها ثم تنزلق الى الماء . ويتبعها آجو ستينو ثم يسبحان حول الطوف الخالي وقد طفا مجدافاه فوق صفحة الماء وهما يتحدثان في مرح فيدوى صوتاهما في وضوح وسط سكون البحر الهادئ الذي تفرشه الشمس . وكانت أمه أحيانا تشير الى قطعة من الفلين لا تفتأ تظهر ثم تختفي على مقربة منهما وتتحداه ان يسابقها اليها . وتسمح له بأن يتقدمها قبل بدء السباق ببضع ياردات ثم يأخذان في السباحة بكل قوتها نحو قطعة الفلين او يتنافسان في الغوص من فوق حافة الطوف فيتطاير رذاذ الماء الهادئ وهما يغوصان فيه . ويرقب آجو ستينو جسد امه وهو يغوص في الاعماق خلال زبد من الفقاعات الخضراء . وفجأة يغوص في أثرها متحمسا لتعقبها حيثما تذهب ولو الى قاع البحر . وكان يبدو له عندما يلقي بنفسه في اللج الذي مخرته أمه عند غوصها فيه انه على الرغم من برودته وكثافته . . فلا ريب ان جسدها الحبيب قد ترك فيه أثرا ما عند مروقه خلاله . وما ان يفرغا من حمامهما حتى يتسلقا ظهر الطوف ثم تقول امه وهي تحمق حولها في البحر الهادئ المضيء في جميع الاتجاهات - ما أجمله ! أليس كذلك ؟ . ولكن آجو ستينو لا يجد جوابا لاحتاسه بأن متعته الخاصة بجمال البحر والسماء انما ترجع في الحقيقة الى شعوره

العميق بارتباطه بأمه قبل كل شيء . . . وكان يتساءل أحيانا :
«ماذا يتبقى من كل ذلك الجمال لو لم تكن هناك تلك الرابطة
الوثيقة» . وكانا يمكثان وقتا طويلا ليخففا جسديهما في
الشمس التي تشتد حرارتها قرب الظهيرة ثم ترقد أمه متمددة
بين لوحى الحشب حيث تأخذها سنة من النوم وقد تدلى شعرها
الطويل فى الماء وأغمضت عينيها . ويظل آجو ستيانو يراقبها
من فوق مقعده وقد تركزت عليها عيناه وهو لا يكاد يتنفس
خشية أن يزعج نومها . وفجأة تفتح عينيها قائلة ، مأمته
من تجديد ان يرقد الانسان على ظهره مغمضا عينيها فيحس
بالماء وهو يهتز من تحته . او تطلب الى آجو ستيانو ان يعطيها
علبة السجائر او ان يشعل لها سيجارة ثم يناولها اياها .
وكان يقوم بكل ذلك فى حرص شديد وقد تولته الرجفة .
وبينما تأخذ الام فى التدخين يتكىء آجو ستيانو الى الامام موليا
ظهره ولكنه ينحرف برأسه جانبا حتى يتمكن من رؤية سحب
الدخان الأزرق التي تشير الى حيث اضطجع رأسها وقد انتشر
حوله شعرها فوق صفحة الماء . ولما كانت لا تمل الشمس قط
فانها كانت تطلب الى آجو ستيانو أن يواصل التجديف بينما
تخلع هى حمالتها لتعرض جسدها كله لضوء الشمس ،
ويواصل آجو ستيانو تجديفه فخورا بتحذيرها اياه من النظر
الى الخلف وكأنه قد أتيح له الاشتراك فى أحد الطقوس .
وفضلا عن أنه لم يخطر بباله قط ان ينظر الى الوراء فانه كان
يشعر بأن جسدها الممدد خلفه عن قرب عاريا فى ضوء
الشمس كانت تحيط به هالة من الغموض أشد ما كان يدين
لها بالخشوع والاحترام .

وذات صباح كانت الام جالسة كعادتها تحت المظلة الكبيرة
وبجانبها آجو ستيانو مفترشا الرمل فى انتظار اللحظة التي
يبدآن فيها نزھتهما اليومية . وفجأة سقط على الأرض ظل
طويل فحجب عنه ضوء الشمس . وما ان رفع اليه بصره حتى
رأى شابا اسمر لفتحته الشمس يصافح امه . ولم يهتم به
كثيرا ظنا منه انه أحد معارف أمه العابرين . فانسحب الى
الخلف قليلا الى ان ينتهى الحديث . ولكن الشاب لم يقبل

دعوتها اياه للجلوس بل أشار الى طوف أبيض جاء به ودعا الام الى نزهة فيه . وكان آجو ستينو واثقا ان أمه لن تقبل تلك الدعوة كما سبق لها ان رفضت كثيرا من الدعوات . ولكنه لشد ما دهش عندما رآها تقبل في الحال وتقوم بجمع حاجياتها على الفور — نعلها وغطاء رأسها وكيس نقودها — ثم تنهض من مقعدها . قبلت أمه دعوة الشاب بنفس التلقائية والود الصافي اللذين كان يمكن أن تكشف عنهما لابنها . ثم استدارت نحو آجو ستينو وكان جالسا مطأطأء الرأس والرمال تنساب من بين اصابعه واوصته بنفس البساطة ان يأخذ حماما شمسيا لقيامها بجولة قصيرة في القارب لا تلبث أن تعود منها . وكان الشاب في اثناء ذلك قد ذهب في اتجاه الطوف وكأنه واثق من نفسه بينما سارت المرأة في أعقابه باستسلام وهي تختال في هدوئها المعهود . ولم يسع ابنها وهو يراقبها الا أن يحدث نفسه قائلا «لاريب أن هذا الشاب يراوده الان ذلك الشعور بالفخر والزهو والاضطراب الذي كان لا يفتأ يخالجه كلما انطلق مع أمه في القارب » راقبها وهي تستقل الطوف بينما اتكأ الشاب الى الخلف حيث أخذ يدفع الطوف مستندا بقدميه الى القاع الرملي . وأمكنه ببضع ضربات قوية بالمجدافين أن ينقل الطوف بعيدا عن المياه الضحلة القريبة من الشاطئ . عندئذ أخذ الشاب يجدف بينما جلست الام في مواجهته قابضة على المقعد بكلتا يديها وهي تتجاذب معه أطراف الحديث . واخذ الطوف يتضاءل ثم يتضاءل الى ان دخل دائرة ضوء الشمس الباهر على صفحة الماء ثم اختفى في طياته رويدا رويدا .

وعندما خلا آجو ستينو الى نفسه تمدد على مقعد أمه القماش حيث وضع احدى ذراعيه خلف رأسه ثم شخص ببصره الى السماء وقد بدا عليه الاستغراق في التفكير وعدم الاكتران بكل ما يحيط به . كان جميع المستحمين على الشاطئ يلاحظونه وهو يصطحب أمه كل يوم . ولهذا فلا يمكن أن يكون قد فاتهم ان يلاحظوه يومئذ وقد تركته امه وحيدا وذهبت مع ذلك الشاب صاحب الطوف . لذا فقد صمم على اخفاء كل اثر لخبية الامل التي شد ما كانت تملؤه بالمرارة . ولكنه أحس في نفس الوقت رغم كل ما بذل من جهد جهيد للاحتفاظ

بمظهره الهادىء بأن أحدا لا يمكن أن تفوته ملاحظة مظهره ومدى ما كان عليه من تكلف . ولم يؤلمه إشار أمه صحبة ذلك الشاب على صحبته بقدر ما ألمه ذلك السرور والاستعداد اللذين قبلت بهما أمه الدعوة كما لو كانت تكاد تتوقعها . فقد بدت وكأنها قد استقر رأيها من قبل على الا تضيع الفرصة وأن تقبلها بلا تردد حالما تسنح لها . كما خيل له انها كانت فى الحقيقة لا تجد ما يثيرها طوال أوقات صحبتها اياه وحدهما فى نزهاتهما بالطوف وكأنها لم تكن ترافقه الا لافتقارها الى من هو خير منه . ثم عاوده خاطر زاد من ضيقه . لقد حدث ذلك فى حفل راقص ذهب اليه فى صحبة أمه وكانت معها ايضا ابنة عمه التى قبلت أن تراقصه مرة أو مرتين بعد ما ئيست من أن يطلبها احد للرقص رغم انه كان صبيا يرتدى السراويل القصيرة . ولكنها راقصته على مضض وقد بدا عليها الغضب والضيق . وكان آجو ستينو رغم اهتمامه الشديد بخطواته لا يفتأ يحس بمشاعر الاحتقار والجفاء التى كانت تراودها نحوه . ومع ذلك فقد طلب اليها أن تراقصه مرة أخرى ولشد مادهاش عندما رآها تبتسم فجأة وتقفز من مقعدها وهى تهز ثنايا ثوبها بكلتا يديها . ولكنها بدلا من أن تندفع الى ذراعيه اذا بها توليه ظهرها وتتجه نحو شاب كان قد أشار اليها من فوق كتف آجوستينو . ولم يستغرق ذلك اكثر من خمس ثوان ولم يلحظ احد ما حدث سوى آجوستينو نفسه . ومع ذلك فلشد ما أحس بالمهانة وتأكد لديه أن الجميع قد رأوا كيف صدته فى جفاء شديد .

وإذا به عندئذ بعدما ذهبت امه فى صحبة ذلك الشاب يقارن بين الواقعتين ويرى وجه الشبه بينهما . فقد كانت أمه كابنة عمه لا تنتظر سوى سنوح الفرصة لتذهب وتتركه اذ انها بادرت بقبول أول دعوة أتاحت لها بنفس السرعة المغالى فيها ، وكان مقدر له فى كلتا الحالين أن يسقط من علياء أوهامه ويهوى الى القاع مٹخنا بالكدمات والجراح .

وطالت غيبة أمه عنه يومئذ حوالى ساعتين . ثم رآها من تحت المظلة الكبيرة وهى تخطو الى الشاطيء مصافحة الشاب

ومتجهة في بطء نحو كايينة الاستحمام وقد انحنى ظهرها قليلا أثناء سيرها تحت شمس الظهر الساخنة ، عندئذ كان الشاطيء قد أقفر من الناس مما خفف عن آجو ستينو لاعتقاده دائما أن أنظار الناس جميعا مسلطة عليهما . وسألته أمه قائلة بطريقتة عارضة « ماذا فعلت » ؟ فقال آجو ستينو : « لشد مالهوت » ثم نسج قصة روى فيها كيف انه هو أيضا كان يسبح مع الصبية المقيمين في الكايينة المجاورة ولكن أمه لم تصغ اليه بل اسرعت الى الداخل لترتدى ملابسها . وقرر آجو ستينو انه ما أن يرى الطوف الأبيض في اليوم التالي حتى يبادر باختلاق المعاذير للرحيل ليتجنب ما يعاينه من مهانة عندما تتركه وحيدا . ولكنه ما كاد يهم بالانصراف في اليوم التالي حتى سمع امه تناديه . قالت وهي تنهض من جلستها وتجمع حاجاتها « هيا فاننا ذاهبان مع الاستحمام » فتبعها آجو ستينو معتقدا أنها تنوى ان تطرد الشاب وترافقه هو وحده . وكان الشاب ينتظرها واقفا في طوفه الأبيض . فحيتته قائلة في بساطة : « سأصحب ابني معي ايضا » فوجد آجوستينو نفسه رغم كرهه الشديد لذلك جالسا بجانب أمه في مواجهه الشاب الذي كان يقوم بالتجديف .

كان آجوستينو لا يفتأ يرى أمه في ضوء معين - هادئة وقورا متحفظة ، فاذا به يصدم أثناء تلك النزهة عندما رأى ما طرأ عليها من تغير لا في اسلوب حديثها فحسب بل فيها هي ذاتها حتى ان العين لا تكاد تصدق انها هي نفسها . وما كادوا يخرجون الى البحر حتى علقت أمه تعليقا شخصيا جارحا لم ينتبه اليه آجوستينو ثم دار بينهما حوار غريب خاص . وكان الحديث بقدر ما تبين آجوستينو يخص سيدة من صديقات الشاب كانت قد صدت محاولاته للتقرب اليها مؤثرة عليه منافسا له . ولكن ذلك لم يكن سوى تمهيد لموضوع حديثهما الحقيقي الذي بدا فيه على التوالي التلميح ثم الاصرار ثم الاحتقار ثم المشاكسة . وقد بدت أمه اكثر الطرفين هجوما وانفعالا . اما الشاب فكان يقنع بالرد عليها في صوت هادئ ساخر وكأنه واثق من نفسه

كل الثقة • وأحيانا كانت أمه تبدو ساخطة بل غاضبة فعلا من ذلك الشاب ، وعندئذ يحس آجو ستينو بالسرور ولكنها لا تلبث بعد ذلك أن تخيب أمله بعبارة رقيقة مجاملة تقضى على كل أوهامه ، أو تخاطب الشاب بلهجة مستاءة وتمطره بوابل من التقرير الغامض • ولكنه بدلا من ان يغضب يرى آجوستينو وجهه وقد أشرق بالزهو الاحمق فيكتشف أن ذلك التقرير لم يكن الا ستارا لمعنى عاطفى لم يستطع هو ان يدرك كنهه • اما هو فقد بدا له انهما لا يحسان بوجوده • فلم يكن ثمة فارق بين وجوده وعدمه • بل لقد نسيت أمه تماما حتى انها قالت للشاب ان مصاحبته اياه وحدها فى اليوم السابق كان خطأ لاتنوى ان تعود اليه وانه ينبغي عليها دائما بعد ذلك أن تصحب ابنها • واحس آجوستينو أن فى ذلك اهانة له لاشك فيها فقد كانت تتحدث عنه وكأنه مسلوب الارادة أو كأنه لا يعدو أن يكون أداة تتصرف فيها هى حسبما يتفق مع هواها وراحتها •

ولم يبد أن أمه قد لاحظت وجوده سوى مرة واحدة وذلك عندما ترك الشاب المدافين لحظة واتكأ الى الامام يعلو وجهه تعبير خبيث للغاية ثم تتم بشيء ما فى صوت خفيض لم يستطع آجو ستينو أن يتبينه • وجفلت الام متظاهرة بأنها صدمت صدمة شديدة ثم صاحت مشيرة الى آجو ستينو الجالس الى جوارها وهى تقول «لنرحم هذا البريء على الاقل!» فارتجف آجو ستينو من الغضب عندما سمع أمه تدعوه «بريئا» أحس وكأنها قذفته بخرقة بالية لم يمكن ان يتحاشاها • وعندما توغلوا قليلا فى عرض البحر اقترح الشاب على رفيقته أن يأخذا حماما • وطالما أعجب آجو ستينو بأمه وهى تنزلق الى الماء فى يسر وسهولة فآله أن يرى كل تلك الحركات الشاذة التى أضافتها عندئذ الى ذلك العمل العادى • فقد ظلت واقفة تتردد وهى تغمس أصابع قدميها فى الماء الواحدة تلو الاخرى متظاهرة فى وضوح بالخوف أو الخجل بينما غاص الشاب فى الماء ثم عاد الى الظهور فوق السطح • فشد ما أثارت ضجة حول هبوطها فى الماء فأخذت تضحك وتحتج ثم تمسك بالمقعد بكلتا يديها حتى سقطت فى النهاية على جنبها بطريقة تكاد تكون غير لائقة

وتركت نفسها تهوى بين ذراعى رفيقها فى غير ما رشاقة .
وغاصا معا فى الماء ثم عادا الى الظهور فوق السطح ، ورأى
آجو ستينو من فوق مقعده الذى جلس عليه منكمشا أنوجه
أمه الباسم كان قريبا كل القرب من وجه الشاب الأسمر
الحاد . وبدا له أن وجنتيهما تتلامسان . كما أمكنه أن يرى
جسديهما وهما يلهوان فى الماء الشفاف بينما تتلامس اردافهما
وسيقانهما وكان تلك الأطراف تتمنى لو تشابكت . نظر
اليهما آجو ستينو فى بادىء الأمر ثم حول بصره بعيدا الى
الشاطيء النائى يراوده احساس مخجل بأنه يعترض طريقهما .
وما ان لمحت الأم وجهه العابس وهى تعاود الغوص حتى صاحت
قائلة له : فيم كل هذا العبوس ؟ ألا ترى جمال هذا المكان ؟
يا الهى : ياله من صبي جاد ! . وجاشت نفس آجو ستينو
لهذه العبارة باحساسات الحجل والمهانة . فلم يجر جوابا
واكتفى بأن أشاح بوجهه بعيدا . وطال استحمامهما فى
البحر . فقد ظلا يلهوان كدرفيلين فى الماء حتى خيل له أنهما
نسياه تماما . وأخيرا عادا الى الطوف الذى اعتلاه الشاب
بقفزه واحدة ثم اتكأ فوق الحافة ليساعد رفيقته التى أخذت
تستغيث به ليعاونها على الخروج من الماء . ورأى آجو ستينو
وهو يراقبهما كيف أن الشاب قبض بأصابعه على بدنهما الأسمر
ليرفعها من الماء - قبض على عضدها ما بين الكتف والابط حيث
تلين الذراع وتمتلىء للغاية . ثم جلست بجانب آجو ستينو
وهى تلهث وتضحك مبعدة بأظافرها المدببة ثوب الاستحمام
المبتل عن جسدها حتى لا يتلصق بثدييها ، وتذكر آجو ستينو
أن أمه فى خلواتها السابقة كانت تقوى على الصعود الى القارب
دون مساعدة من أحد وعزا استغاثتها - وأوضاع جسدها التى
بدت وكأنها تجذب الانتباه الى نواحي ضعفها الأنثوى - عزا
ذلك الى روحها الجديدة التى أدت فعلا الى ما طرأ عليها من
تغيرات بغيضة . فلم يسعه الا ان يعتقد ان امه التى كانت
بطبيعتها امرأة وقورا طويلة القامة صارت تبغض حجمها وتعدده
عيبا لا شك فيه تود لو تخلصت منه . كما صارت تعد وقارها
عادة متعبة حاولت أن تستبدلها بارتباك صبيانى غريب
الأطوار .

تغنى وهو مسلك لم يعهده فيها قط ، وكان صوتها جميلا
وعندما عاد كلاهما الى الطوف بدأت رحلة العودة ، وعندئذ
عهد الى آجو ستينو بالتجديف بينما جلس رفيقاه على لوح
الخشب الذى يضم العائمتين ، وبدأ يجدف فى هدوء تحت
الشمس المحرقة وهو لا يفتأ يتساءل عن معنى تلك الاصوات
والضحكات التى كان يحس بها خلف ظهره . وبدأ أن أمه
كانت من وقت لآخر تحس فجأة بوجوده . فتمد ذراعيها
محاولة أن تربت على قفاه أو تدغدغه أسفل ذراعه وتسأله عما
اذا كان قد نال منه الاغياء . فيحييها قائلا - « كلا لست
منعبا » وكان يسمع الشاب وهو يقول لها ضاحكا :
« التجديف مفيد له » مما كان يجعله يضرب بالمجداف فى الماء
بوحشية . وكانت أمه تجلس مستندة الى مقعد وقد تمددت
ساقها الطويلتان . كان يدرك ذلك . ولكنه بدا له أنها لم
تحتفظ بهذا الوضع . فقد خيل له فى وقت من الاوقات أن
مناوشة قصيرة قد نشبت بينهما ثم أطلقت أمه صيحة مكتومة
وكان شخصا ما يخنقها فمال الطوف على أحد جنبيه . ولا مست
وجنته جسد امه الذى بدا له ضخما - كالسما طولا وعرضا -
نابضا بحياة لا يمكنها التحكم فيها - ثم نهضت واقفة وقد
انفرجت ساقها وأمسكت بكتفى ابنها قائلة : لن أعاود
الجلوس الا اذا وعدتني بأن تكون مهذبا . . فرد عليها الشاب
فى رزاة ساخرة قائلا : أعدك بذلك . وعادت جلستها فى
غير ما رشاقة على لوح الخشب وعندئذ لامس جسدها وجنة
ابنها . وظل يحس على وجنته بأثر البلل الذى تركه جسدها
المتشع بثوب الاستحمام المبتل . ولكن حرارة بدننها بدت
وكانها قد تغلبت على ذلك البلل . وعلى الرغم من احساسه
المضنى بالضيق بل بالنفور فقد أبى فى اصرار ان يجفف ذلك
الأثر .

وعندما اقتربوا من الشاطئ وثب الشاب فى خفة الى مقعد
التجديف وأمسك بالمجدافين وهو يدفع آجو ستينو بعيدا
مرغما اياه على أخذ مكانه الخالى بجانب أمه التى ما لبثت أن
أحاطت خصره بذراعيها وسألته عن مشاعره وعما اذا كان
سعيدا ، أما هى فقد بدت فى أسعد حالاتها حتى انها بدأت فجأة

يثبت فيه بعض الاختلاجات العاطفية التي ارتجف لها بدن آجو ستينو . وظلت ممسكة به وهي تضمه اليها أثناء غنائها مبللة اياه بثوب استحمامها الذي بدا له انه يشع سخونة حيوانية عنيفة - وهكذا بلغوا الشاطئ والشاب يجدف والمرأة تغنى وتدغدغ ابنها الذي استسلم لها يراوده شعور بالملل الشديد فكون ثلاثهم صورة أحس آجو ستينو انها زائفة مفتعلة للمحافظة على المظهر اللائق .

وفى اليوم التالى عاد الشاب الى الظهور . وأصرت الام على اصطحاب ابنها أيضا . وتكررت مناظر اليوم السابق . وبعد انقطاع ظل بضعة أيام عاودا الخروج للنزهة فى البحر . واخيرا مع توثق الصلة بينهما وهو أمر لم يخف على أحد صار يأتى لاصطحابها يوميا وكان آجو ستينو أيضا يضطر الى مرافقتها والانتصت الى حديثهما والى مراقبتها وهما يستحمان ، وكان يمقت تلك الرحلات حتى بدأ فى النهاية يختلق ألوف المعاذير لاعفائه منها . فكان يختفى عن الانظار ولا يظهر حتى تنجح أمه أخيرا فى اكتشافه وذلك بعد ان تناديه مرارا وتبحث عنه فى كل مكان . ولكنه كان لا يأتى اليها استجابة لنداءاتها بل اشفاقا عليها من وقع الخيبة والغضب لاختفائه - وكان يلتزم الصمت التام أثناء وجوده معها فى الطوف راجيا أن يدركا مايدور بخلده وينركاه وحيدا . ولكنه كان لا يفتأ يثبت فى النهاية انه أضعف منهما وأكثر تأثرا بالشفقة . لم يكن يعنيهما سوى وجوده هناك . أما عن مشاعره فلم يلبث أن اكتشف أنها لا تعنى شيئا فى نظرهما . وهكذا فقد استمرت تلك الرحلات على الرغم من جميع محاولاته للهرب منها .

- ٢ -

وذات يوم كان آجو ستينو جالس على الرمال خلف مقعد والدته فى انتظار ظهور الطوف الأبيض فى البحر وتلويح أمه بيدها تحية للشاب ومناداته باسمه ، ولكنه تأخر عن مواعده المعهود وكان تعبير أمه عن الخيبة والغضب يدل بوضوح على انها فقدت كل امل فى مجيئه . وطالما فكر آجوستينو فيما يكون عليه شعوره فى مثل هذه الحال ، وكان لا يفتأ يخيل له أن سروره

بذلك لن يقل بحال عما تشعر به أمه من خيبة الأمل . غير أنه دهش عندئذ لأنه احس بخيبة امل غامضة وادرك في الحال ان كل ما كان يحس به من مهانة واستياء أثناء تلك الرحلات أو شك أخيرا أن يكون ضرورة من ضرورات الحياة بالنسبة له . ولهذا فانه سأل أمه أكثر من مرة مدفوعا الى ذلك برغبة مضطربة لا واعية في ايلامها عما اذا كانا سيخرجان في نزهتهما المعتادة، وكانت تجيبه في كل مرة بأنها لاتعلم أو بأنه من المحتمل ألا يخرجوا يومئذ للنزهة . كانت تضطجع في مقعدها وفي حجرها كتاب مفتوح ولكنها لم تكن تقرأ بل لا تفتأ عيناها تتطلعان الى البحر وكأنهما تبحثان عن شيء معين بالذات بين القوارب العديدة وجموع المستحمين الذين يعج بهم البحر . وبعد ما طالت جلسة أجوستينو خلف مقعد والدته وهو يرسم الزخارف على الرمال جاء اليها قائلا في لهجة أحس هو بما فيها من مشاكسة بل سخريّة . « اماه . اتقصدين ان تقولى اننا لن نذهب اليوم للنزهة فى الطوف ؟ » ولعل امه أحست بما فى صوته من سخريّة ورغبة فى ايلامها . ولعل كلماته القليلة الطائشة كانت كافية لان تطلق عنان غضبها الذى طالما كظته . فرفعت امه يدها بحركة لا ارادية وصفعته على وجنته صفة حادة ولكنها لم تؤلمه حقا ربما لانها ندمت على فعلتها قبل توجيه الصفة اليه، ولم ينبس أجوستينو بكلمة بل قفز بعيدا عن الرمال فى وثبة واحدة ثم انطلق مطأطئا رأسه تجاه كابينة الاستحمام . وقد سمع اسمه يتردد مرارا « أجوستينو ! . . أجوستينو . . » ثم انقطع النداء وما أن نظر خلفه حتى خيل له انه رأى بين زحام القوارب الطوف الابيض الذى يملكه الشاب ، ولكنه لم يعد يعبا بذلك فقد راوده احساس من عشر على كنز واسرع ليخفيه حتى يفحصه وحده . ركض بعيدا يخالجه ذلك الاحساس بالاكتشاف ليتأمل الاساءة التى لحقته فقد كانت شيئا جديدا لم يعهده قط من قبل حتى كادت تبدو غير مصدقة .

آلمته وجنته وأغرورقت عيناها بالدموع التى لم يستطع أن يحبسها . جرى وهو محنى الظهر تماما خشية أن ينفجر فى البكاء قبل ان يلوذ بمكان ناء عن الأنظار . وعندئذ جاشت

نفسه بكل ما تراكم فيها من مرارة تلك الايام التي أرغم فيها على اصطحاب الشاب وأمه . وكاد يحس انه لو استطاع ان يجهد بالبكاء لأفرج عن شيء مما في نفسه ولاستعان بذلك على أدراك ماتعنيه كل تلك الاحداث الغريبة ، وبدا له انه ليس أبسط من ان يحتبس في كابينة الاستحمام . ولعل أمه قد أستقلت القارب فعلا فلن يزعجه أحد ، صعد آجو ستينو الدرج مهرولا ثم فتح الباب وتركه مواربا واتجه الى احدى زوايا الكابينة حيث جلس على مقعد بلا ظهر .

ألقى على الارض وقد أسند رأسه الى الحائط وأخذ يبكي في صدق ممسكا بوجهه بين يديه بينما ظلت الصفعة التي تلقاها ترتفع أمام عينيه ، ثم تساءل لماذا كانت يد أمه رقيقة مترددة للغاية في حين بدت الصفعة قوية عنيفة . لقد اختلط احساسه المرير بالمهانة من أثر الصفعة بالآلاف الاحاسيس الاخرى التي كانت تفوقه بغضا الى نفسه والتي ظلت تجرح مشاعره خلال تلك الأيام الاخيرة كلها . وكان من بينها جميعا احساس واحد لا يفتأ يعاود ذاكرته - احساسه بجسد أمه متشحا ببذلة الاستحمام المبتلة وهو يضغط على وجنته مختلجا بحيوية عاتية مستبدة . وقد ثار في نفسه مرة أخرى على أثر الصفعة التي نزلت بوعيه الأليم المرتبك ذلك الاحساس بجسد أمه وهو يضغط على وجنته تماما كما تتصاعد سحب الغبار الكثيفة من الملابس القديمة عندما تنفض . حقا كان يبدو له ان ذلك الاحساس يقوم تارة مقام الصفعة . وتارة أخرى يختلط الاحساسان على نحو يشعر معه باختلاج بدن امه وبالصفعة تتوهج كالنار التي تخمد تدريجيا فقد استغلق على فهمه السر في ذلك الالحاح الشديد الذي لم يفتأ يعاوده به احساسه الاول ، لماذا كان هو وحده دون غيره من الاحاسيس الكثيرة مسيطرا على ذهنه لا يفارقه ؟ هذا هو ما عجز عن تفسيره ولكنه خيل له انه لكي يستعيد الاحساس بنبض بدنها على وجنته وبلمس النسيج الخشن لبذلة استحمامها المبتلة على وجهه مابقي على قيد الحياة فما عليه الا أن يعود بذاكرته الى تلك اللحظة .

ظل يبكي فى هدوء بينه وبين نفسه حتى لا يقطع حبلى
ذكرياته المؤلمة وهو فى نفس الوقت لا يفتأ بأطراف أصابعه
يمسح الدموع التى راحت تتساقط على وجهه بطيئة متتابعة .
وكان الجو مظلماً خانقاً فى داخل الكابينة . وفجأة أحس بالباب
يفتح وكاد يأمل أن تكون أمه وقد عضها الندم على فعلتها قد
جاءت لتضع يدها فى حنان على كتفه ثم تدير رأسه نحوها .
وأخذت شفتاه ترسمان فعلا كلمة « أماه » عندما سمع وقع
خطوة فى داخل الكابينة كما سمع الباب وهو يجذب فى عنف
دون أن تمتد يد لتلمس كتفه أو تربت على رأسه .

ثم رفع رأسه وشخص الى أعلى . فرأى على مقربة من الباب
الموارب صبياً فى مثل سنه تقريباً يقف فى ترقب مرتدياً
سراويل قصيرة طوى طرفيها قليلاً الى أعلى وقميصاً
بحرياً فى ظهره ثقب كبير . وقد سقط شعاع رفيع من ضوء
الشمس خلال كوة فى سقف الكابينة فكشف عن خصلات
شعره الأصغر الكثيف حول عنقه . وكان عارى القدمين
يقف موارباً الباب بكلتا يديه . أخذ يحملق بامعان فى شئ
ما على الشاطئ ولم يبد متنبها لوجود أجوستينو الذى مسح
دموعه بظهر يده ثم قال «مرحى . ماذا تريد؟» فاستدار
الصبي نحوه ولكنه أشار اليه محذراً من الكلام . كان وجهه
أنمش قبيحاً ولم يكن يميزه سوى سرعة حركة عينيه الزرقاوين
القاسيتين . وخيل لأجوستينو أنه تعرف عليه . فلعله ابن
أحد الصيادين أو الغواصين ولعله رآه من قبل وهو يدفع
القوارب الى الماء أو وهو يقوم بعمل ما فى دائرة السباحة .
صمت الصبي برهة ثم قال وهو يستدير نحو أجوستينو «نحن
تلعب عسكر وحرامية » فيجب الأيرونى . فسأله أجوستينو
وهو يسرع بتجفيف عينيه قائلاً « وأيهما تلعب أنت ؟ » فأجابه
الآخر دون أن يدير بصره نحوه « لصاً بالطبع » .

وظل أجوستينو يراقب الصبي . ولم يستطع ان يقرر ما اذا
كان يشعر بميل نحوه ولكن صوته كان به أثر خشن للهجة
معينة استثارت اهتمامه وفضوله . وفضلاً عن ذلك فقد أحس
بفطرته أن لجوء ذلك الصبي الى الكابينة فى تلك اللحظة بالذات

كان فرصة له - رغم أنه لم يمكنه أن يفسر كنه تلك الفرصة،
ولكنها فرصة بلا شك ينبغي أن ينتهزها .

سأله قائلاً - « هل تسمح لي بالانضمام اليكم في اللعب؟ »
فاستدار نحوه الصبي وحدث فيه بوقاحة . ثم أسرع قائلاً
«كيف تنضم إلينا في اللعبة . فنحن جميعاً رفاق نلعب .

فقال آجو ستينو في الحاح صفيق - «حسناً . فللاعب
معكم أنا أيضاً . »

فهز الصبي كتفيه قائلاً - « لقد فات الوقت الآن . فاننا
نوشك أن ننتهي من اللعبة . »
- « حسناً . سأنضم اليكم في الشوط التالي . »
فقال الصبي وهو يتفحصه في شك ولكنه بدا كالمدهوش
لإلحاحه :

- لن تكون هناك أشواط أخرى . ولكننا ذاهبون بعد
ذلك إلى غابات الصنوبر .

- سأرافقكم إلى هناك لو سمحتم لي بذلك .
فبدأ عليه السرور وأخذ يضحك في احتقار إلى حد ما قائلاً:

- لاشك أنك فتى مهذب . ولكننا نريدك .
لم يقف آجوستينو مثل ذلك الموقف من قبل . ولكنه أوحى
إليه عندئذ بفطرته التي حفزته لأن يطلب إلى الصبي مشاركتهم
لهوهم أن يلجأ إلى وسيلة قد تمكنه من أن يحوز القبول .

فقال متردداً : « انصت إلى . إذا . . إذا سمحت لي
بالانضمام إلى جماعتكم فاني . . فاني سأعطيك شيئاً ما » .
فاستدار الآخر نحوه ونظر إليه بعينين جشعتين قائلاً :

- ماذا تعطيني ؟
- ما تشاء .
وأشار آجوستينو إلى نموذج كبير لقارب شراعي ركبت فيه
جميع أشرعته وكان ملقى على أرض الكابينة بين عدد من اللعب
الأخرى .
- سأعطيك هذا القارب .

فأجاب الصبي هازا كتفيه - « وماذا يجديني هذا ؟ »
فاقترح عليه آجوستينو قائلا - « يمكنك أن تبيعه . »
فقال الصبي وعلى وجهه سيماء العالم بالأمور - « لن يأخذه
منى . بل سيتهموننى بسرقة » .
فنظر آجو ستينو حوله فى يأس . كانت ملابس أمه معلقة
على المشاجب وأحذيتها ملقاة على الارض وقد وضع على المنضدة
أحد مناديلها ووشاح أو وشاحان . ولم يكن فى الكابينة
مطلقا شئ يصلح لأن يكون هدية مناسبة .

فقال الصبي وهو يشاهد حيرته - « هل لديك سجائر
مثلا ؟ »

فتذكر آجوستينو أن أمه فى ذلك الصباح بالذات قد وضعت
علبتين من نوع فاخر فى حقيبتها الكبيرة التى كانت تتدلى من
مشجب آخر . فأسرع باجابته بلهجة الفائز : نعم لدى
هل تريد عددا منها ؟ .

فقال الآخر فى سخرية واحتقار - « لأظن ذلك ! ما أغباك !
أعطينها بسرعة . »

فأنزل آجوستينو الحقيبة من فوق المشجب وتحسس ما بداخلها
ثم اخرج العلبتين . وقدمهما الى الصبي وكأنه لا يدرى تماما كم
سيجارة يريد .

فقال باستخفاف ممسكا بالعلبتين - « سأخذ العلبتين معا »
ونظر الى البطاقة وأحدث صوتا بلسانه استحسانا ثم قال :
« يا الهى . لا ريب انكم أثرياء . هه ؟ »
ولم يدر آجوستينو بماذا يجيبه . فأردف الصبي قائلا -
« انى أدعى برتو . وما اسمك ؟ »

فذكر له اسمه . ولكن الآخر لم يعد ينتبه اليه . بل فتح
احدى العلبتين عنوة بأصابعه الملهوفة مفتضا أختام الغلاف
الخارجى للعبة . ثم أخرج منها سيجارة وضعها بين شفتيه .
وأخرج من جيبه عود ثقاب حكه بجدار الكابينة . وبعدها
استنشق ملء فمه من الدخان ثم نفثه من خلال أنفه عاود وقفته
المترقبة عند فرجة الباب .

ثم ما لبث ان قال لآجوستينو وهو يشير اليه ليتبعه - « هيا فلنذهب » فغادرا الكابينة أحدهما في اثر الآخر . وعندما بلغا الشاطيء اتجه برتو مباشرة الى الطريق الممتد خلف صف من كبائن الاستحمام .

وفيما هما يسيران على الرمل الملتهب بين شجيرات القش والحسك الصغيرة قال له - - « نحن الآن ذاهبان الى الكهف، فقد مروا بنا . . وهم الآن يبحثون عنى بعيدا . » فسأله آجوستينو قائلا - وأين الكهف ؟

فأجابه الصبي قائلا : فى بانيو فسيوتشى Bagno Vespucci كان ممسكا بالسيجارة بين أصبعيه مباحيا بها وكأنه يستعرضها وهو يستنشق فى نهم نفثات كبيرة من الدخان . ثم سأله قائلا : « ألا تدخن ؟ »

فقال آجوستينو وقد انتابه الحجل من الاعتراف بأنه لم يحلم قط بالتدخين - « لست مغرما به . » ولكن برتو ضحك قائلا - « لم لا تقول فى صراحة أن أمك لاتسمح لك بذلك ؟ كن صادقا . » وكانت لهجته أقرب الى الاحتقار منها الى الصداقة . ثم قدم سيجارة الى آجوستينو قائلا - « هيا فلتدخن أنت أيضا . »

كانا قد استقبلا البحر وهما يمشيان على الصخور المسننة بين أحواض الزهور الجافة . ووضع آجوستينو السيجارة بين شفتيه وسحب منها بضعة أنفاس مستنشقا قليلا من الدخان الذى عاد فطرده فى الحال بدلا من أن يبتلعه . فضحك برتو فى سخرية قائلا :

- « أتسمى هذا تدخيننا ؟ ماهكذا يدخنون . انظر . » ثم أخذ السيجارة واستنشق دخانها فى عمق وهو لايفتأ يدير عينيه المتجهمتين وفغر فاه على سعته بالقرب من عينى آجوستينو الذى لم ير فيه شيئا سوى لسانه الملتوى الى أعلى فى آخره .

قال برتو وهو يطبق فاه مرة أخرى - « والآن أنظر . » ثم نفث سحابة من الدخان فى وجه آجوستينو مباشرة . فسعل

Bagno Vespucci

١ - بانيو فيسيوتشى
احدى منشآت الاستحمام

وضحك فى عصبية فى الوقت نفسه • وقال برتو - « والآن
جاء دورك » •

ومر بهما ترام وهو يصفر بينما تتطاير ستائره خافقة فى
مهب الريح • وعاد آجوستينو فاستنشق نفسا اخر وابتلع
الدخان باذلا فى ذلك جهدا كبيرا • ولكنه اخطأ الطريق فاصيب
بنوبة رهيبه من السعال • فتناول منه برتو السيجارة ثم
لطمه على ظهره لطمه هائلة قائلا - « عوفيت ! لاشك أنك
مدخن • »

وبعد تلك التجربة واصلا سيرهما فى صمت أمام سلسلة
كبيرة من منشآت الاستحمام وقد طليت صفوف كبائنها بألوان
زاهية وأقيمت المظلات الكبيرة المخططة فى جميع الاتجاهات
وأقواس النصر السخيفة • وقد ازدحم الشاطئ فيما بين
الكبائن بالمصطافين الصاخبين وعج البحر اللامع المتلألئ
بالمستحمين •

قال آجوستينو الذى أرغم على السير بسرعة ليلحق
بصديقه الجديد متسائلا - « وأين بانيو فسيوتشى ؟ »

فرد برتو قائلا - « انه آخر السلسلة جميعا • »
وبدأ آجوستينو يتساءل عما اذا كان يجدر به أن يعود •
ولو أن أمه لم تخرج للنزهة فى الطوف قبل كل شئ فلا ريب
أنها الآن تبحث عنه • ولكنه ما ان تذكر الصفعة حتى هدأت
وساوسه • وكاد يشعر أنه بمصاحبه برتو كان يثار لنفسه
بطريقة غامضة لها ما يبررها •

وفجأة توقف برتو قائلا - « ما قولك فى أن تخرج الدخان
من أنفك ؟ هل يمكنك ان تفعل هذا ؟ » فهز آجوستينو رأسه
ولكن رفيقه الذى يمسك بعقب السيجارة بين شفثيه استنشق
الدخان ثم نفثه من خلال منخريه وأردف قائلا - « والآن سأنفث
الدخان من خلال عيني • ولكنك يجب ان تضع يدك على صدرى
وتنظر مباشرة الى وجهى • » فاتجه اليه آجوستينو فى سداجة
تامة ووضع يده على صدره ثم ركز عينيه على عيني برتو
منتظرا أن يرى الدخان خارجا منهما •

ولكن برتو فى حركة غادرة ضغط بالسيجارة المشتعلة فى قسوة على ظهر يده وألقى بالعقب بعيدا وهو يقفز فرحا ويصيح قائلا - « آه ! ايها الأبله الغبى • انك لا تعرف شيئا • » وخطر لآجوستينو فى أول الأمر وقد أوشك الألم ان يعمى بصره ان يرتدى على برتو ويضربه • ولكن برتو وكأنه كان يتوقع ذلك وقف ساكنا قابضا يديه • وبلكمتين هائلتين فى معدة آجوستينو أوشك ان يذهب انفاسه • ثم قال فى وحشية - « لست من أنصار الكلام • فان شئت الضرب كان لك ماتريد • فاستشاط آجوستينو غضبا واندفع نحوه مرة أخرى • ولكنه أحس بضعف شديد وتحقق من هزيمته • فقد أمسكه برتو عندئذ من رأسه وطواه تحت ذراعه حيث أوشك أن يخنقه • ولم يحاول آجوستينو مقاومته بل توسل اليه بصوت مخنوق أن يطلق سراحه • فتركه برتو ووثب الى الخلف مثبتا قدميه على الأرض ومتحفزا للنزال • ولكن آجوستينو سمع طقطقة فقار عنقه وقد اذهلته وحشية الصبى الخارقة للعادة • وبدأ له من غير المعقول او المقبول أن يعامل فجأة بمثل هذه القسوة الوحشية المتعمدة رغم رفته مع الجميع • وكان احساسه بالدهشة لتلك القسوة يفوق مشاعره الأخرى جميعا • فقد غمره ذلك الشعور ولكنه كاد فى نفس الوقت ان يفتتن به لجدته وبشاعته •

فقال له وهو يلهث : « ولكننى لم اودك فى شىء بل اعطيتك هذه السجائر • • وانت • • » ولم يسعه أن يتم حديثه • فقد اغرورقت عيناه بالدموع • فرد برتو قائلا - « آه • أيها الطفل البكاء • • أتريد ان تسترد سجائرك ؟ أنا احتاج اليها • • فلتعدها الى أمك » •

فقال آجوستينو وهو يهز رأسه فى حزن - « لا يهيم هذا • قلت ذلك فقط لكى اقول شيئا • فأرجو أن تحتفظ بها • » فقال برتو : « حسنا • اذن فلنواصل طريقنا • • لقد أوشكنا على الوصول • »

ولشد ما تألم آجوستينو من حرق يده • فرفعها الى شفثيه وهو ينظر حوله • وقد اقفر هذا الجزء من الشاطئ الامن عدد

قليل جدا من كبائن الاستحمام لا تتجاوز في مجموعها خمسا أو ستا وقد تفرقت هنا وهناك تفصل كلا منها عن الأخرى مسافة صغيرة . كما كانت هناك اكواخ حقيرة من الخشب الخشن وفيما بينها اقمرت الرمال من الناس وكذلك خلا البحر من المستحمين ولم ير على الشاطئ سوى بضع نساء في ظل قارب بعيد عن متناول المد وقد وقف بعضهن وتمدد البعض الآخر على الرمال وكن جميعهن يرتدين ملابس عتيقة للاستحمام طالت سراويلها التي تحدها من اسفل حاشية بيضاء . وكن جميعا مشغولات بتجفيف أجسامهن وتعريض أطرافهن البيضاء للشمس . وقد علقت لافتة مطلية باللون الأزرق كتب عليها ما يلي : « بانيو أميريجو فشيوتشي » وثمة كوخ خفيض أخضر كان من الواضح انه يخص الغواص دفن حتى نصفه في الرمال . . . وقد امتد الشاطئ على مدى البصر فيما وراء بانيو فشيوتشي خاليا من كبائن الاستحمام أو البيوت بل مقفرا موحشا ليس به سوى الرمال التي تعصفها الرياح فيما بين البحر الأزرق اللامع وأشجار الصنوبر ذات الخضرة المغبرة .

وقد اخفت الكثبان الرملية التي ارتفعت قليلا في تلك المنطقة جانبا كاملا من جوانب كوخ الغواص ومن فوق قمة تلك الكثبان ظهرت للعيان خيمة مربعة حمراء صدئة باهتة بدت مصنوعة من قماش شراع قديم . وقد شدت تلك الخيمة من أحد طرفيها بعمودين ثبتا في الرمل ومن الطرف الآخر بالكوخ .

قال برتو - « ها هو كهفنا »

وتحت الخيمة جلس رجل الى منضدة متداعية يشعل سيجارة . وتمدد من حوله على الرمال صبيان أو ثلاثة . ووثب برتو وثبة محلقة ثم هبط عند قدمي الرجل صائحا : « الكهف ! » واقترب أجوستينو في شيء من الخجل وقال برتو مشيرا اليه « هذا بيزا » وقد أدهشه أن يدعى سريعا بذلك اللقب . فانه لم يخبر برتو بأنه ولد في بيزا الا قبل ذلك بخمس دقائق . ووقد أجوستينو على الارض بجانب الآخرين ولكن الرمل لم يكن نظيفا كما كان على الشاطئ . فقد اختلطت

به قطع من قشر جوز الهند ومن نشارة الخشب وشظايا الخرف وجميع انواع النفايات . كما تجمد الرمل هنا وهناك في اقراص من اثر دلاء الماء القدر الذى كان يلقي به من الكوخ . ولاحظ آجوستينو أن الصبية وكانوا أربعة فى مجموعهم قد رثت ثيابهم . . فمن الواضح أنهم كانوا مثل برتو من أبناء البحارة أو الغواصين . . وانفجر برتو قائلاً دون أن يلتقط أنفاسه . « انه كان فى اسبرانزا . . ويود لو انضم الينا فى لعبة عسكر وحراميه ولكننا فرغنا منها . . أليس كذلك ؟ . . قلت لك ان اللعبة ستنتهى . »

وانبعثت عندئذ صيحة تقول : هذا ليس من العدل ! هذا ليس من العدل ! . . فتطلع اجو ستينو ببصره ورأى جماعة أخرى من الصبية يجرون نحوهم قادمين من ناحية البحر وربما كانوا يمثلون الشرطة . . وجاء فى مقدمتهم شاب مكتمل ممتلىء البنية فى حوالى السابعة عشرة من عمره يرتدى ثوب الاستحمام ومن خلفه رأى اجو ستينو زنجيا فدهش لذلك ايما دهشة ثم جاء ثالث وكان أشقر وقد لاح لآجوستينو من هيئته وجمال تكوينه أنه حظى بتربية أفضل من الاخرين . . ولكنه عندما اقترب منهم دل ثوب استحمامه المهلهل الذى تملؤه الثقوب وما ارتسم على وجهه الوسيم ذى العينين الزرقاوين من غلظة وخشونة على أنه هو أيضا كان ينتمى الى نفس الطبقة . . وفى أعقاب هؤلاء الصبية الثلاثة جاء أربعة آخرون وجميعهم فى نفس السن تقريبا بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة . . أما الفتى الضخم المكتمل فكان يكبرهم بكثير حتى بدا غريبا فى أول الامر أن يختلط بمثل هؤلاء الاطفال . . ولكن وجهه الشاحب الذى كان فى لون الخبز اللين وملامحه الغليظة الخالية من التعبير وغبائه الذى يكاد يكون فظا قاسيا - كل ذلك فسّر اختلاطه بتلك الجماعة . . وغاص عنقه بين كتفيه حتى كاد يختفى وكان بدنه الناعم الاملس يتساوى عرضه عند الخصر والردين بعرضه عند المنكبين . . صاح فى برتو قائلاً :

- لقد اختبأت فى كبينة ، أتجسر على أن تنكر هذا ؟ . . والكبائن محظورة طبقا لقواعد اللعبة . .

فأجابه برتو قائلاً بنفس اللهجة العنيفة : « هذا كذب » ثم أردف قائلاً وهو يستدير فجأة نحو أجوستينو : أليس كذلك يا بيزا ؟ .. أنا لم اختبئ في كابينة .. أليس كذلك ؟ .. بل وقف كلانا بجانب كوخ اسبرانزا حيث رأيناكم تمررون أمامنا .. أليس كذلك يا بيزا ؟ ..

فقال أجوستينو الذى عجز عن الكذب : ولكنك اختبأت فعلا في كابينتى .. وأنت تعلم ذلك .. فصاح الآخر قائلاً وهو يلوح بقبضته أسفل أنفه : سأهشم رأسك .. أيها الكذاب ..

فصرخ برتو فى وجه أجوستينو قائلاً : أيها الواشى .. قلت لك أن تبقى حيث كنت .. عد الى أمك .. فهذا هو مكانك ..

واستبد به غضب جامح .. غضب وحشى حار له أجوستينو وتولته الدهشة .. ولكن الحركة التى أتاها لعقابه أسقطت احدى علبتى السجائر من جيبه .. فانحنى ليلتقطها ولكن الفتى الضخم كان أسرع منه اذ انقض على العلبة حانيا ظهره ثم رفعها ملوفا بها فى الهواء وهو يصيح فى انتصار قائلاً :

— سجائر ! .. سجائر ! ..

فصاح برتو مرتميا عليه وهو يقول :

— ردها لى .. فهى ملكى .. لقد أعطانيها بيزا ..

فلتردها لى ..

فخطا الآخر خطوة الى الخلف وانتظر حتى يصبح برتو فى مرمى ضرباته .. ثم أطبق بفمه على علبة السجائر وانها ل عليه لكما بقبضته فى معدته بطريقة منتظمة .. وفى النهاية ركل قدميه من تحته فطرحه أرضا فى دوى واستمر برتو فى صياحه وهو يتدحرج على الرمل : فلتردها لى ! ..

ولكن الفتى الضخم هتف قائلاً وهو يضحك ضحكة حمقاء :

— لديه المزيد منها .. فلتنقضوا عليه أيها الصبية ..

وارتمى عليه الصبية فى اجماع دهش له أجوستينو .. ولبث لحظة لا يرى فيها سوى كتلة من الاجساد المتعانقة التى لم تفتأ تتلوى وسط سحابة من الرمال عند قدمى الرجل وهو جالس

الى المنضدة يدخن فى هدوء .. وأخيرا تخلص من تلك الكومة ذلك الصبى الاشقر الذى بدا انه اسرعهم حركة ونهض واقفا وهو يلوح فى انتصار بعلبة السجائر الثانية .. ثم نهض الباقون جميعا أحدهم فى أثر الآخر وكان اخرهم برتو الذى تشنج وجهه القبيح من شدة الغضب .. ثم جأر يقول وهو يهز قبضته باكيا : أيها الخنازير .. أيها اللصوص ..

وكان انطبعا غريبا جديدا على ذهن اجو ستينو ان يرى معذبه يسام العذاب بدوره ويعامل بلا رحمة كما عومل هو منذ حين .. وصرخ برتو مرة اخرى قائلا : أيها الخنازير .. أيها الخنازير . فانبرى له الفتى الضخم وهوى على أذنه بصفحة مدوية رقص لها رفاقه طربا .. وقال له : أتطلب المزيد ؟ .. فاندفع برتو كالمجنون الى ركن الكوخ حيث انحنى ممسكا بحجر ضخيم بكلتا يديه وقذف به عدوه الذى وثب جانبا ليتحاشاه وهو يصفر فى سخيرية .. ثم صرخ برتو قائلا مرة أخرى وهو مازال يبكي غضبا : أيها الخنازير . ولكنه انسحب فى حكمة منزويا خلف أحد اركان الكوخ .. وكان نشيجه غاضبا مدويا وكأنه ينفس عن مرارة مخيفة .. ولكن رفاقه انصرفوا عنه .. فقد تمددوا جميعهم على الرمال مرة اخرى .. وفض الفتى الضخم احدى علبتى السجائر كما فتح الصبى الاشقر العلبة الاخرى .. وفجأة قال الرجل الذى ظل جالسا الى منضدته الصغيرة دون أن يتحرك : الى بهذه السجائر .

فنظر اليه اجو ستينو .. كان رجلا بدينا طويل القامة يناهز الخمسين من عمره ذا وجه بارد تبدو عليه طيبة خداعة . كان أصلع الرأس ذا جبهة غريبة على شكل السرج وعينين لامعتين وأنف أحمر أقنى ذى منخرين واسعين تملؤهما شعيرات قرمزية صغيرة بغيضة المنظر وله شارب مهدل يختفى تحته فم معوج يضع بين شفثيه سيجارا .. وكان يرتدى قميصا باهت اللون وسروالا قطنيا أزرق تدلت احدى ساقيه حتى مفصل قدمه وارتفعت الاخرى مطوية الى اسفل ركبته .. والتف حول بطنه حزام عريض اسود .. وثمة شئ بالذات زاد من احساس اجو ستينو الاول بالنفور هو أن « سارو » - فهكذا كان

يدعى - بلغت اصابع يده الواحدة ستا بدلا من خمس فتضخم
حجمهما وبدت أصابعه كالمجسات القصيرة . . ولم يستطع
اجو ستينو ان يحول عينيه عن هاتين اليدين فلم يمكنه ان
يقرر ما اذا كانت الاصبع السادسة سبابة أو وسطي أو بنصرا
. . فقد بدت جميعها متساوية في الطول ماعدا الخنصر التي
نتأت من يده كما ينبت الغصن الصغير في اسفل جذع شجرة
معقدة . . أخرج سارو السيجار من فمه وردد قائلا في بساطة:
- ماذا عن هذه السجائر ؟ .

فنهض الصبي الاشقر ووضع العلبة على المنضدة . . فقال
سارو : أحسنت ياسندرو .

وصاح الفتى الكبير في تحد قائلا :

- ولنفرض اننى لم أعطك اياها ؟

فانبعثت في الحال عدة اصوات تقول : اعطه اياها ياتورتيمما

. . يحسن بك أن تفعل . .

فنظر تورتيمما حوله ثم التفت الى سارو الذى ركز عليه
عينيه الصغيرتين مغضيا اياهما وواضعا يده اليمنى بأصابعها
الست على علبة السجائر . . ثم جاء الفتى ووضع علبته أيضا
على المنضدة وهو يقول :

- حسنا . . ولكن هذا ليس عدلا .

فقال سارو في صوت رقيق لطيف :

- والان سأوزعها .

فتح سارو احدى العلبتين وهو يزر عينيه الى اعلى دون ان
يبعد سيجاره عن فمه . . وأخرج منها سيجارة بأصابعه القصيرة
الغليظة العديدة التي بدت عاجزة عن أن تمسك بها ثم ألقى
بها الى الزنجى قائلا : خذ يا حمص . . ثم اخرج اخرى ألقى
بها الى صبي اخر وثالثة ألقى بها بين كفى ساندرو المضمومتين
ورابعة ألقى بها في وجه تورتيمما الهادىء العنيد - وهكذا فعل
مع الباقيين جميعا . . وسأل برتو الذى انقطعت شهقاته الباكية
وعاد في صمت لينضم الى الباقيين قائلا : أتريد واحدة ؟ . .
فأوما برأسه في عبوس فألقى اليه بواحدة . وبعد ما أخذ كل
سيجارته أو شك سارو أن يغلق العلبة التي كانت لا تزال

مملوءة حتى نصفها عندما توقف قائلا لآجوستينو - « وماذا عنك يا بيزا ؟ » و اراد آجو ستينو أن يرفض لولا ان برتو لكزه فى ضلوعه هامسا - « أطلب سيجارة أيها الأبله فسندخنها معا فيما بعد » فطلب آجو ستينو واحدة وهكذا أعطى هو أيضا سيجارة • ثم أغلق سارو العلبة •
وصاح الصبية جميعا قائلين فى صوت واحد : وماذا عن الباقي ؟ وماذا عن الباقي ؟ •

فأجاب سارو فى هدوء قائلا - « الباقي ستأخذونه فى يوم آخر • خذ هذه السجائر يا بيزا وضعها فى الكوخ • • وساد صمت مطبق • فتناول آجو ستينو العلبتين فى عصبية شديدة ثم اتجه الى الكوخ متخطيا أجساد الصبية الممددة على الارض وبدأ له أن الكوخ يتألف من غرفة واحدة فقط وراقه صغر حجمه الذى أضفى عليه جو القصص الخرافى • وكانت الغرفة ذات سقف خفيض يتألف من عروق خشبية طليت باللون الأبيض • أما الجدران فكانت تتألف من ألواح خشبية غير مستوية او ممهدة • وقد انتشر فى الغرفة ضوء هادىء من خلال نافذتين دقيقتين تامتى الشكل بقاعدتيهما وألواحيهما الزجاجية الصغيرة المربعة ومزلاجهما وستائرهما بل ازدانتا أيضا باناء به زهرتان • وكان يشغل احدى زوايا الغرفة فراش مرتب منسق ارتدت وسادته حلة نظيفة ووضع فوقه غطاء أحمر • وفى زاوية أخرى وضعت منضدة مستديرة وثلاثة مقاعد خفيضة بلا مساند • كما وضعت فوق السطح الرخامى لخزانة كبيرة زجاجتان من ذلك النوع الذى يوضع فى داخله قوارب شراعية او بخارية • وعلقت فى خطاطيف على جدران الغرفة جميعها أشرعة كبيرة وعدد من المجاديف وبعض الادوات البحرية الاخرى • وخطر لآجو ستينو كيف أنه يود لو امتلك كوفا مريحا هادئا كهذا • واتجه الى المنضدة حيث وجد وعاء خزفيا مشروخا مليئا بأعقاب كبيرة من السجائر فوضع العلبتين وخرج مرة أخرى الى ضوء الشمس •

كان جميع الصبية منبطحين على الرمال حول سارو وهم يدخنون فى استعراض هائل لمتعتهم بينما تناول نقاشهم أمرا

يدا أنهم لم يتفقوا عليه . وكان ساندرود عندئذ يقول لهم :
أقول لكم انه هو .

وقال صوت معجب : ان أمه قطعة من الجمال الحق . فهي
أجمل نساء الشاطيء قاطبة . وقد تسللنا أنا وحمص ذات
يوم الى أسفل الكابينة لكي نشاهدها وهي تخلع ملابسها ولكن
قميصها سقط تماما فوق الشق الذي كنا نختلس النظر من
خلاله فلم نستطع أن نرى شيئا على الاطلاق . ان ساقها
- يا الهى - وئديها . . .

وقال صوت ثالث : ولكن زوجها لا يرى مطلقا فى أى مكان .
- فليطمئن بالك . فهي ترفه عن نفسها . . أتدرى مع
من ؟ ذلك الشاب الذى يأتى من فيلا سوريزو . . الشاب
الأسمر . فهو يصحبها يوميا فى الطوف .
فقال أحدهم فى خبث : ولكنها لا تقتصر عليه وحده . فهي
على استعداد لمصاحبة أى شاب .

وقال آخر فى اصرار : ولكنى أعلم انه ليس هو .
فقال ساندرود فجأة : قل لى يا بيزا . . أليست أمك هي
تلك السيدة التى ترى فى اسبرانزا ؟ امرأة سمراء طويلة
القامة والساقين ترتدى ثوب استحمام مخططا يتألف من
قطعتين . . ولها شامة على الجانب الأيسر من فمها .
فقال أجوستينو فى عصبية : نعم . . ولماذا ؟

فصاح برتو بلهجة المنتصر قائلا : انها هي . انها هي .
ثم انفجر قائلا فى حقد غيور « وانت ستارهما فحسب . اليس
كذلك ؟ فأنتم جميعا تخرجون معا للنزهة انت وامك وعشيقتها
فأنت ستارهما أليس كذلك ؟ » .

عندئذ ضج الجميع بالضحك . حتى سارو فانه ابتسم من
تحت شاربه . وقال أجوستينو وقد احمر وجهه دون أن
يستوعب المعنى المقصود تماما : لست أدري ماذا تعنى . وأراد
أن يحتج لولا أن نكاتهم الفظة أثارت فى نفسه احساسا غريبا
مفاجئا بالرضا السادى . وكان هؤلاء الصبية بما يقولونه
على غير وعى منهم البتة يثأرون لما ألحقته به أمه من مهانة
ومذلة طوال تلك الايام الاخيرة . وفى نفس الوقت عقد

الرعب لسانه لسعة اطلاعهم على شئونه الخاصة .
وعاد الصوت الخبيث نفسه يقول : أيها الحمل الصغير
السادج .

ثم قال تورتيما في جدية ساخرة : يشوقني أن أعلم
ماذا يفعلان . فهما دائما يذهبان الى عرض البحر . هيا اخبرنا
ماذا يفعلان . أيقبلها . هه ؟ .

ثم رفع ظهر يده الى شفثيه وطبع قبلة مدوية .

فقال آجو ستينو وقد احمر وجهه من الحجل : حقا فنحن
نتوغل فعلا الى عرض البحر لنستحم .
فانبعثت عدة أصوات تقول متهكمة في وقت واحد : آه
نعم لتستحموا .

– نعم . . فان أمي تستحم فعلا وكذلك رنزو .
فأمن الصبي على قوله وكأنه يستعيد خيطا مفقودا في
ذاكرته قائلا :

– اه نعم – رنزو – هذا هو اسمه . . رنزو ذلك الشاب
الطويل الاسمر .

فسأله برتو فجأة وقد استرد هدوءه تماما قائلا :
– وماذا يفعلان معا ؟ . . رنزو وأمك . . أهذا هو مايفعلانه ؟
ثم أتى بيده حركة معبرة وأردف قائلا :
– وأنت تشاهدهما فحسب . . هه ؟ .
فردد آجو ستينو قائلا وهو يتلفت حوله وفي عينيه نظرة
رعب : أنا ؟ .

فأنفجر الجميع ضاحكين وكنتموا ضحكاتهم في الرمال . .
ولكن سارو ظل يراقبه في انتباه دون أن يتحرك . . تلفت
آجو ستينو حوله في يأس وكأنه يستجدي العون .
وبدا أن سارو قد استوقفته نظرتة . . فأخرج سيجاره من
فمه قائلا :

– ألا ترون انه لايدري شيئا ألبتة .
فلم يلبث أن هدا الضجيج في الحال . . وقال تورتيما الذي
لم يفهم مقصده : ماذا تعنى بقولك انه لايدري شيئا ؟ .

فردد سارو قوله في بساطة قائلا :

- أعنى انه لايدرى شيئا ..

ثم التفت الى آجوستينو وقال له في صوت أرق : تكلم يا بيزا .. الرجل والمرأة ماذا يفعلان معا ؟ ألا تدرى ؟

فانصت الجميع وقد انبهرت أنفاسهم .. وصدق اجو ستينو في سارو الذي ظل يدخن وهو يراقبه من خلال جفنيه المتقاربين ثم تصفح وجوه الصبية وكانت ضحكاتهم المكتومة لا تخفى عليه ثم ردد قائلا في آلية من خلال سحابة بدا أنها تحجب بصره :

- الرجل والمرأة ؟

فقال برتو في قسوة موضحا : نعم أمك ورنزو .. وأراد اجو ستينو ان يحذره قائلا : لا تتحدث عن أمي .. ولكن السؤال أثار في نفسه حشدا كبيرا من الاحاسيس والذكريات فانتابه اضطراب شديد لم يستطع معه ان يقول شيئا على الاطلاق .. وفجأة قال سارو وهو ينقل سيجاره من احدى زاويتي فمه الى الاخرى .. انه لايدرى .. من منكم أيها الصبية يشرح له ؟ .. فنظر اجو ستينو حوله وهو حائر مذهول .. أحس وكأنه في مدرسة ولكن ما أغربه من مدرس .. وما أغربهم من زملاء .. صاح الصبية جميعا في صوت واحد قائلين .. أنا - أنا - أنا .. ونظر سارو في شك الى جميع هذه الوجوه التي كانت تلتهب حماسا لتأخذ الكلمة .. ثم قال : انكم جميعا في الحقيقة لا تدرن شيئا كذلك .. لاشيء سوى الاقاويل والروايات .. فليشرح له منكم من اطعم حقا على ما يدور بينهما .. وراهم اجو ستينو جميعا يتبادلون النظرات في صمت .. ثم قال أحدهم : «تورتيفا» فأشرق وجه الفتى بالزهو والخيلاء .. وما كاد يهم بالنهوض حتى قال برتو بصوت تحمل نبراته الكراهية والبغض : كل ما يعرفه من نسج خياله .. فلن يقول سوى اكاذيب ..

فصاح تورتيفا قائلا وهو يهاجم برتو : اكاذيب ؟ .. ماذا تعنى ؟ .. انك أنت الكذاب يا بن الحنا ..

ولكن برتو عندئذ كان أسرع منه وأخذ يعوج له وجهه من
خلف ركن الكوخ ويخرج له لسانه وقد شاه وجهه الاحمر
الانمش بالكرهية والبغض .. واكتفى تورتيما بأن هدهد
بقبضته صائحا : أتحداك أن تعود .. ولكن تدخل برتو
أضاع عليه الفرصة بطريقة ما وأجمع الصبية على اختيار
ساندرو .. فتقدم ساندرو وسيما رشيقا الى داخل الدائرة
التي صنعها الصبية بأجسادهم الممددة على الرمل وقد عقد
ذراعيه على صدره العريض الاسمر حيث كانت تلمع شعرات
ذهبية قليلة .. ولاحظ أجوستينو ان ساقيه القويتين
البرونزيتين بدتا وكأنهما مكسوتان بطبقة من ذرات الذهب كما
ظهرت أيضا بضع شعرات من خلال فتحتى لباس الاستحمام الذى
كان يرتديه .. وقال فى صوت قوى واضح ان الامر بسيط للغاية .
ثم أوضح لاجوستينو فى تودة مستعينا ببعض الحركات المعبرة
فى غير ابتذال تلك الاشياء التى كان يحس هو وقتئذ انه كان
دائما على علم بها ولكنه نسيها على صورة ما كما يحدث أثناء
النوم العميق ، وأعقبت شرح ساندرو ايضا حركات أخرى أقل
اتزاناً .. فقد أتى بعض الصبية حركات مبتذلة بأيديهم وردد
البعض الآخر فى أذنى أجوستينو كلمات نابية لم يسمعها قط فى
حياته .. وقال اثنان منهما .. سنريه ما يفعلان .. ثم قدما
عرضا على الرمل الساخن وهما يتدافعان ويتلويان متعانقين
وانسحب ساندرو بعيدا لينتهى من تدخين سيجارة وهو راض
عن نفسه لنجاحه فى اداء مهمته .. وحالما هدأت الضجة
قال سارو لاجوستينو : والآن هل فهمت ؟ .. فأوماً أجوستينو
برأسه .. ولكنه فى الحقيقة لم يفهم الفكرة بقدر ما تشربها
كما يتشرب الانسان الدواء أو السم الذى لا يظهر مفعوله فى
عقله الحاوى الحائر المعذب ، بل فى مكان آخر من كيانه ، فى
قلبه المحزون أو فى اعماق صدره حيث تلقاها فى دهشة ..
كانت اشبه بشيء باهر متألق يخسأ دونه البصر لشدة اشعاعه
فلا يسع المرء الا ان يتكهن بحجمه الحقيقى .. أحس بها كشيء
كان يمتلكه دائما ولكنه لم يحس به فى دمه الا فى تلك
اللحظة .

ثم سمع شخصاً يقول بالقرب منه : رنزو وأم بيزا .. سأكون أنا رنزو وأنت أم بيزا .. هيا فلنجرب .. فاستدار فجأة ليري برتو وهو ينحنى لصبي آخر بحركة مرتبكة متكلفة قائلاً : سيدتي هل تمنحينني شرف اصطحابك معي في الطوف ؟ فأنا ذاهب للاستحمام وسنصحب معنا بيزا .. وفجأة استبد به غضب أعمى فارتدى على برتو صائحا : اياك ان تنال من أمي .. ولكنه قبل ان يعي ماحدث وجد نفسه راقدًا على ظهره فوق الرمل وقد ضغط عليه برتو بركبته وانهاه على وجهه لكما يقبضته .. فأراد ان يبكي ولكنه جاهد ليحبس دموعه لادراكه أنها لن تزيد على أن تثير مزيدا من السخرية والتهكم .. فغطى وجهه بذراعه ووقد ساكنا سكون الموت .. فلم يلبث أن تركه برتو .. وذهب اجو ستينو ليجلس عند قدمي سارو يراوده شعور بأنه لشد ما سيئته معاملته وقد شغل الصبية فعلا بحديث آخر .. وقال احدهم فجأة لاجوستينو :

– هل أنتم من الاثرياء ؟

وذعر اجو ستينو فلم يكده يدرى ماذا يقول .. ولكنه اجاب قائلاً :

– أظن ذلك ..

– كم تبلغ ثروتكم ؟ .. مليوناً ؟ مليونين ؟ ثلاثة ملايين ؟

فقال اجو ستينو وهو يشعر بضيق شديد : لست أدري ..

– وهل تملكون منزلاً كبيراً ؟ ..

فقال اجوستينو : نعم ..

وما ان اطمأن الى حد ما الى ان الحديث قد اتخذ اتجاهها اكثر

مجاملة حتى حفزته كبرياء الامتلاك الى أن يردف قائلاً : ولدينا

عشرون غرفة ..

فصاح احدهم غير مصدق قائلاً : يا

– فلدينا غرفتان للاستقبال ثم غرفة مكتب والدي ..

فقال صوت في احتقار : اها ! ..

فأسرع اجو ستينو قائلاً يراوده بعض الامل في اثاره شيء

من العطف في نفوسهم : أو بالاحرى الحجره التي كانت غرفة

مكتبه .. فقد وافاه الاجل ..

وساد الصمت لحظة ثم قال تورتيما - اذن فأملك أرملة . .
فانبعثت عدة أصوات تقول في سخريه - حسنا . . طبعاً .
فاحتج تورتيما قائلاً : ولكن هذا لايعنى شيئاً . . فربما
تزوجت مرة اخرى .

فقال اجو ستينو - كلا انها لم تتزوج مرة اخرى .
- وهل لديكم سيارة ؟

- نعم .

- وسائق .

- نعم .

فصاح احدهم قائلاً : قل لامك اننى على أتم استعداد لاكون
سائقها .

فسأله تورتيما الذى بدا مأخوذاً بقصة اجو ستينو
اكثر من أى شخص اخر قائلاً :

- وماذا تفعلون بغرف الاستقبال . . هل تقيمون حفلات
راقصة .

فأجابه آجوستينو قائلاً - « نعم » فأمى تقيم حفلات استقبال .
فقال تورتيما وكأنه يحدث نفسه - « حيث يذهب كثير من
الحسنات بالطبع . كم يبلغ عدد المدعوين ؟ »
- « لست ادري حقيقة . »

- « كم ؟ »

فقال آجوستينو الذى كان يحس عندئذ بالراحة التامة وقد
سر لنجاحه الى حد ما - « عشرين او ثلاثين مدعوا ؟ »
- « عشرين او ثلاثين . . وماذا يفعلون ؟ »

فقال برتو متهمكماً - « وماذا تتوقع ان يفعلوا ؟ أعتقد انهم
يرقصون ويلهون . . فهم أغنياء . . وليسوا مثلنا . كما اعتقد
انهم يمارسون الحب . »

فقال آجوستينو فى صدق لكى يظهر لهم انه على علم تام
بمقصدهم :

- « كلا انهم لا يمارسون الحب . »

وبدا ان تورتيما كانت تنازعه فكرة لم يوفق فى التعبير
عنها . وأخيراً قال : « ولكن لنفرض اننى ظهرت فى احد هذه

الاستقبالات قائلا : هأنذا قد جئت أيضا • فماذا انت فاعل ؟
وفيما هو يتكلم نهض واقفا وتقدم في وقاحة واضعا يديه على
حقويه وقد برز صدره • فانفجر الصبية ضاحكين • وقال
آجوستينو في بساطة وقد شجعه ضحك الصبية - « اطلب
اليك ان تنصرف • »

- « ولنفرض اننى رفضت • »

- « اكلف رجالنا بطردك • »

- « هل لديكم خدم من الرجال • »

- « كلا • ولكن امى تستأجر السقاة عندما تقيم حفل

استقبال • »

فقال احدهم لصبى آخر وكان واضحا انه ابن احد السقاة :
« كأبيك تماما • »

فقال تورتيما مهددا في اصرارا وهو يتقدم نحو آجو ستينو
مدير اقبضته في الهواء مرارا وتكرارا وكأنه يريد أن يشم رائحتها:
« ولنفرض اننى قاومت وجدعت أنف هذا الساقى ثم تقدمت
الى وسط الغرفة وصحت قائلا - « انتم حفنة من الأوغاد
والعواهر جميعكم دون استثناء • فماذا تقول ؟ » ولكن الصبية
جميعا انقلبوا عندئذ على تورتيما لا رغبة منهم فى حماية
آجوستينو بل فى استزادته ليروى لهم مزيدا من التفاصيل عن
ذلك الثراء الأسطورى •

فانبعثت الصيحات من كل جانب قائلة - « دعه وشأنه • •
عندئذ يقذفون بك الى الخارج • وحسنا يفعلون • » وقال برتو
ساخرا - « وما شأنك بهذا ؟ فأبوك ملاح وسوف تحذو حذوه
ولوفرض انك ظهرت فعلا فى منزل بيزا لما سمع لك صوت
بالطبع » ثم أردف قائلا « بل يمكننى أن أتمثلك • » ثم نهض
مقلدا تورتيما كما يتصوره فى منزل آجو ستينو وقد ضربت
عليه الذلة قائلا : « • • معذرة • هل السيد بيزا هنا ؟ معذرة
• • لقد جئت لتوى • • آه لا يمكنه مقابلتى • • لا يهم • • ارجو
المعذرة • • آسف للغاية • • سأحضر مرة اخرى • • آه !
يمكننى ان أتمثلك • • فستبلغ هامتك الارض وانت تنحنى
مودعا • »

فانفجر الصبية جميعا ضاحكين . ولما كان تورتيما غبيا بقدر ما كان قاسيا فانه لم يجسر على الصمود لسخرياتهم اللاذعة . ولكنه كى يثار لنفسه قال لآجو ستينو : « اتباريني فى لعبة الذراع الحديدى ؟ »

فردد آجوستينو قائلا - « الذراع الحديدى ؟ »
فقلت عدة اصوات فى استهزاء - « انه لايعرف ماهو الذراع الحديدى »

فجاء ساندرى وامسك بذراع آجوستينو وثناه الى اعلى ثم أمره ان يبقى فى مكانه واضعا مرفقه على الرمال ورافعا يده الاخرى فى الهواء بينما انبطح تورتيما على الرمل واضعا ذراعه بنفس الطريقة ثم قال ساندرى « انت تدفع من جانب وتورتيما من الجانب الآخر . »

فأمسك آجوستينو بيد تورتيما الذى اسقط ذراعه بدفعة واحدة ثم نهض منتصرا .

فقال برتو - « فلأجرب قوتى معه . » واسقط ذراع آجوستينو بنفس السهولة ثم نهض بدوره وصاح الآخرون جميعا قائلين - « وانا ايضا ! وانا ايضا ! » وتغلبوا عليه واحدا فى اثر الآخر . واخيرا جاء دور الزنجى وقال احدهم « اذا تغلب عليك حمص فلا ريب ان ذراعك من عجيب . » وصح عزم آجوستينو على مقاومة الزنجى .

وكانت ذراعا الزنجى نحيفتين فى لون البن المحمص . وخيل لآجوستينو ان ذراعيه تفوقانها قوة . قال حمص فى شجاعة مفتعلة وهو راقد على الرمل فى مواجهته - « هيا يابيزا » كان صوته ضعيفا كصوت المرأة . وعندما دنا بوجهه من وجه آجوستينو حتى صار على بعد بوصة واحدة منه لاحظ الأخير ان انفه لم يكن افطس كما هو متوقع بل كاد ان يكون معقوفا ومنطويا على نفسه كحنية من اللحم الاسود اللامع ، وقد علت احد منخريه شامة شاحبة يميل لونها الى الصفرة . كما لم تكن شفثاه عريضتين سميكتين كشفثى الزنجى بل رقيقتين فى لون البنفسج . وقد بدت هامته البارزة المكسوة بالصوف الأسود وكأنها تضغط على عينيه المستديرتين الواسعتى البياض . قال

وهو يضع يده الرقيقة بأصابعها النحيلة ذات الاظافر الوردية في يد أجوستينو - « هيا يابيزا - فلن اوديك » ورأى أجوستينو انه لورفع نفسه قليلا متحاملا على كتفه امكنه بسهولة ان يضغط بثقله كله على يده . وبذلك استطاع ان يسيطر على حمص في بادىء الامر . فقد ظلا يصطراغان فترة طويلة دون ان يتغلب احدهما على الآخر وقد اصطف الصبية المعجبون حولهما في دائرة . . وارتسم على وجه أجوستينو تعبير ينبىء عن شدة التركيز فقد اودع ما يبذله من جهد قوته كلها بينما راح الزنجى يأتي بوجهه حركات مخيفة وهو يطحن اسنانه البيضاء ويزر عينيه الى أعلى . وفجأة انبعث صوت مدهوش يعلن قائلا : « الفوز لبيزا . » ولكن أجوستينو احس عندئذ بألم مبرح ينتقل من كتفه الى ذراعه . فلم يسعه ان يحتمل اكثر من ذلك واستسلم قائلا - « كلا . انه اقوى منى . » فقال الزنجى فى صوت معسول بغيض وهو ينهض عن الأرض « ولكنك ستهزمنى فى المرة القادمة . » وسخر تورتيما قائلا - « تخيل ان حمص ايضا يهزمك . انك لاتصلح لشيء . » ولكن الصبية الآخرين بدوا انهم سئموا التهكم على أجوستينو فقال احدهم « ما راىكم فى أن نأخذ حماما ؟ » فصاحوا جميعا قائلين - « نعم . البحر » وتبعهم أجوستينو عن بعد فرأهم يتقلبون فى الهواء ثم يغوصون كالسماك فى الماء الضحل وهم يطلقون صيحات الفرح وصرخات السرور . وعندما بلغ أجوستينو حافة الماء برز له تورتيما فوق سطح البحر تسبقه عجيزته ، كما لو كان حيوانا بحريا ضخما وصاح قائلا : « فلتغص يابيزا . ماذا تفعل هناك ؟ »

فقال أجوستينو : « ولكننى فى كامل هندامى . »

فرد عليه تورتيما غاضبا : « اذن فلتخلع ملابسك . » وحاول أجوستينو الهرب ولكن الفرصة فاتته فقد امسك به تورتيما وجذبه نحو الماء وهو لايفتأ يقاوم معذبه ويجذبه معه . ولكنه لم يطلق سراحه الا عندما اوشك على خنقه تحت الماء ثم سبغ بعيدا وهو يقول « وداعا يابيزا . » وعلى مسافة قريبة منه امكنه ان يرى ساندرى وقد استقل طوفا وقف فيه وقفة رشيقة وسط

حشد من الصبية كانوا يحاولون ان يتسلقوا العائمتين . وعاد
آجوستينو الى الشاطئء لاهثا مبتلا ثم وقف هو وحيدا تحت
ضوء الشمس الباهر . ثم اسرع يمشى فوق الرمل المصقول
عند حافة الماء عائدا ادراجه الى بانيو سبرانزا .

- ٣ -

لم يتأخر به الوقت كثيرا كما كانت تحدثه مخاوفه . فأمه لم
تكن قد عادت بعد عند وصوله الى مكان الاستحمام . وكان
الشاطيء قد بدأ يخلو من الناس ولم يبق به سوى فلول من
المستحمين الذين مازالوا يتلكأون متفرقين فى الماء الساطع
الذى يخطف الأبصار . اما غالبية الناس فكانوا يسرون
متحاذين فى صف واحد تحت شمس الظهيرة مجتازين الممر
المرصوف المؤدى الى الطريق . وجلس آجوستينو تحت المظلة
الكبيرة فى انتظار أمه . وخيل له عندئذ ان أمه قد طالت
غيبتها اكثر من المعتاد . ونسى ان الشاب قد جاء بطوفة متأخرا
عن ميعاده للغاية وان أمه لم تكن ترغب فى الخروج للنزهة
وحدها بل هو الذى اختفى . وحدث نفسه قائلا ان أمه
وصديقها قد انتهزا فرصة غيابه ليفعلا ما اوحى به سارو
والصبية . ولكنه لم يعد يحس بالغيرة من ذلك بل صارت
تعتريه هزة فضول غريبة جديدة كما اخذ يخالجه رضا خفى
وكأنه هو نفسه شريك فيما يدور . كان طبيعيا للغاية ان تسلك
أمه على هذا النحو مع ذلك الشاب وان ترافقه يوميا فى الطوف
ثم تلقى بنفسها بين ذراعيه عندما يصيران فى مأمن من العيون
المتلصصة . كان ذلك طبيعيا كما صار فى مقدوره الآن ان
يتقبل هذه الحقيقة . مرت بذهنه هذه الخواطر وهو جالس
ينعم النظر فى البحر منتظرا عودة العاشقين . وأخيرا ظهر
الطوف كبقعة لامعة فى البحر . وكلما دنا مسرعا امكنه ان يرى
أمه وهى تهبط الى الأرض وان يكتشف بعض مظاهر تلك
العلاقة الوثيقة التى طالما شاهد نموها دون ان يفهم شيئا والتى
لم يشك فى ان سلوك أمه سيكشف عنها فى وضوح طبقا
لايحاءات سارو والصبية . وما ان اقترب الطوف من الشاطئء
حتى لوحث له أمه ثم وثبت الى الماء فى مرح ولم تلبث ان

صارت الى جانبه قائلة : « هل انت جائع ؟ سنذهب فى الحال لتناول شىء من الطعام . » ثم اردفت تقول فى صوت حان رقيق وهى تستدير لتلوح للشباب - « . . وداعا وداعا . الى الغد . . . » ولاح لآجوستينو انها كانت تبدو اكثر بشرا وسعادة عن مألوف عاداتها . وبينما كان يسير فى اثرها عبر الشاطيء لم يسعه الا ان يرى ان وداعها للشباب كانت تتخلله نبرة من نشوة المرح وكأنه قد تم فعلا يومئذ ما كان يحول دون وقوعه حتى ذلك الحين وجود ابنتها فى صحبتها . ولكن ملاحظاته ووساوسه وقفت عند هذا الحد لأنه بغض النظر عن مرحها الساذج الذى لشد ما كان يتناقض مع وقارها المألوف لم يمكنه ان يتمثل حقا ما كان يرجح وقوعه اثناء نزهتهما او يتخيل حقيقة العلاقة بينهما . ومع انه تفحص وجهها وعنقها ويديها وجسدها بادراك قاس جديد فقد بدت لعينيه خالية من كل أثر للقبل او المداعبات . وكان آجوستينو يزيد ضيقا وتبرما كلما راقب أمه . فقال لها وهما يقتربان من الكابينة - « كنتما اليوم فى خلوه . . بدونى » قال ذلك والامل يكاد يراوده فى أن تقول له أمه « نعم . وهكذا امكننا اخيرا ان نمارس الحب » ولكن امه بدت انها لم ترفى هذه العبارة سوى انها تلميح للصفعة التى وجهتها اليه ثم ركضه بعيدا . فتوقفت عن السير واضعة ذراعها حول كتفيه وهى تنظر اليه بعينيهما الضاحكتين الثائرتين قائلة - « فلنكف الان عن هذا الحديث . فأنا أعلم انك تحبني . اعطنى قبلة ولنكف عن الحديث فى هذا الموضوع هه ؟ » وفجأة احس آجوستينو بشفتيه تلثمان عنقها - الذى لشد ما استهواه دفؤه وعطره العف . خيل له عندئذ انه احس تحت شفتيه بأثر واهن ضعيف لاختلاج شىء جديد وكأنه روضة رد فعل حادة لقبل الشاب . ثم ركضت صاعدة درج الكابينة ووقد هو على الرمل يحرق وجهه خجل لم يمكنه ادراك مصدره .

واذا به بعد ذلك وهما فى طريق العودة يقلب فى ذهنه المضطرب تلك الاحاسيس الغامضة الجديدة . فبينما كانت علاقة أمه بالشباب تبدوله من قبل عندما كان يجهل الخير والشر مخضبة بالاثم على صورة غامضة صار عندئذ بعد ما فتحت

عيناه على يدي سارو وتلامذته نهبة للشك والقصور الذي لايشبع . وفي الواقع فقد كانت غيرته الصريحة على حبه الصبياني لأمه هي التي اثارت مشاعره في أول الأمر . اما الآن فان هذا الحب الذي لم تقل قوته ابدا قد حل محله في ضوء النهار الواضح القاسي فضول مرير مجرد من الوهم بدت الي جانبه تلك الشواهد القديمة الباهتة تافهة غير كافية . فبينما كان في الماضي يتأذى من كل كلمة او كل حركة يستشعر نبوها دون ان تكشف له عن شيء ويود لو انه لم يرها اذا بهذه الحركات الصغيرة السخيفة التي كانت تشينه وتصدمه وقد عاد اليها بذاكرته تبدو له الآن امورا تافهة فحسب . وكاد يتمنى لوامكنه ان يفاجيء امه في بعض المواقف الفاضحة التي اطلعه عليها اخيرا سارو والصبية .

وانه ما كان ليصل قط بهذه السرعة الى التفكير في التجسس على أمه منتويا تحطيم تلك الهالة من الوقار والاحترام التي كانت تحيط بها نفسها حتى ذلك الحين لولا ان الصدفة دفعته يومئذ بالذات الى اتخاذ خطوة في هذا الاتجاه . فعندما بلغا المنزل تناولت الام وابنها غداءهما في صمت تام تقريبا . وقد بدت الام شاردة ذاهلة بينما لزم آجوستينو الصمت على غير عادته اذ امتلأ ذهنه بأفكار جديدة كان لايمكن تصديقها في نظره . . . ولكنه بعد الغداء راودته فجأة رغبة لاسبيل الى مقاومتها في الخروج والعودة الى جماعة الصبية . وقد اخبروه انهم كانوا يجتمعون على شاطئ فيسيوتشي في ساعة مبكرة من الأصيل لوضع الخطة لمغامرات اليوم التالي . وما ان تغلب على خوفه ونفوره الاول من تلك الجماعة حتى بدأت صحبة هؤلاء الافاقين الصغار تجذبه في غموض . كان راقدًا في فراشه وقد اغلقت النافذة فشاع الدفء والظلام . وراح يعبث كعادته بمفتاح النور الخشبي بينما تبلغ سمعه من الخارج بضعة اصوات تحدثها عجلات عربة وحيدة وصلصلة صحاف واكواب كانت تأتيه من خلال النوافذ المفتوحة في المنزل المواجه وكأنها منعزلة عن بقية الاصوات لتناقضها في الصيف مع سكون الاصيل . . . فسمم امه تدخل الغرفة المجاورة وهي تدق الأرض بعقبها . اخذت تذرع الغرفة جيئة وذهابا وهي تفتح الأدراج وتغلقها

وتحرك المقاعد هنا وهناك وتمر بيدها على هذا وذاك من الأشياء .
وإذا به يحدث نفسه قائلاً وهو يطرد النعاس الذي كان يغشى
حواسه رويدا رويدا . . : « لقد ذهبت لتضطجع ولن أستطيع
ابلاغها رغبتى فى الخروج الى الشاطىء فوثب منزعاً لهذا الخاطر
وخرج الى بسطة الدرج . كانت غرفته تطل على الشرفة المواجهة للدرج
وبجوارها غرفة أمه . فذهب الى بابها وما ان وجده موارباً حتى
دفعه فى رفق بدلا من ان يطرقه كما تعود ان يفعل . وربما
ساقته الى ذلك رغبة لاواعية فى التجسس على امه وهى فى
غرفتها الخاصة وكانت اوسع من غرفته بكثير حيث كان
الفراش على مقربة من الباب وكانت تقوم فى مواجهة الباب
مباشرة خزانة للملابس تعلوها مرآة كبيرة . وعندما دخل الغرفة
وقع بصره فى اول الامر على امه اثناء وقوفها امام خزانة الملابس
ولكنها لم تكن عارية كما كان يخيل له وكما كان يرجو ان
تكون عندما دلف فى هدوء الى الداخل . بل كانت قد خلعت
بعض ملابسها ، وبدأت تنزع قلاذتها وقرطها امام
المرآة مرتدية غلالة رقيقة لاتتجاوز خصرها
الا بقليل . وقد ارتفع احد ردفها عن الآخر
وظهر بارزا اثناء وقوفها متكئة فى استرخاء على احدى فخذها
المصمتين الرشيقتين . وقد امتدت فى اسفلها ساقها
النحيلتان اللتان استدق طرفهما عند رسغيها الرقيقين . وقد
رفعت ذراعيها لتفتح بيديها مشبك قلاذتها خلف عنقها وكانت
هذه الحركة ذات اثر محسوس على ظهرها كله من خلال ثوبها
الشفاف . فقد تغيرت معالم جسدها على صورة غريبة . وبدا له
ابطاها - وهى رافعة يديها على هذا النحو - وكأن كلا منهما فكا
ثعبان برزت من خلالهما كالأسنة الرفيعة السوداء شعرات
طويل ناعمة بدت مغتبطة بافلاتها من ضغط اطرافها الثقيلة .
وبدا جسدها الرائع الضخم لعينى أجوستينو المفتونتين وكأنه
قد فقد صلابته وراح يتمايل مختلجا فى ضوء الحجرة الخافت
وكان العرى كالخميرة قد اعاره قدرة غريبة على التمدد حتى
انه كان يبدو له تارة مائجا فى حنايا لا حصر لها وتارة اخرى
مستدقا الى اعلى شامخا فى ارتفاعه يملأ الفراغ بين الارض
والسقف .

وكان اول ما خطر لأجوستينو ان يهرول عائدا الى غرفته ولكنه تذكر فجأة « انها امرأة » كما اوحى اليه اخيرا فتسمر فى مكانه مفتوح العينين ممسكا بمقبض الباب فى قوة . احس بروح البنوة تتمرد على هذا الجحود وتحاول ان تجذبه الى الخلف . ولكن عقله الجديد الذى سيطر عليه فى قوة رغم خجله بعض الشيء قد ارغم عينيه المحجمتين على التحديق دون رحمة او شفقة فيما كان حتى اليوم السابق لايجسر على التطلع اليه . وفى اثناء ذلك الصراع بين النفور والانجذاب وبين الدهشة والمتعة برزت له جميع دقائق الصورة التى كان يتأملها فى مزيد من الوضوح والقصر : حركات ساقها وانحناء ظهرها المسترخى والمنظر الجانبى لابطيتها وقد بدت جميعها مطابقة تماما لتفكيره الجديد الذى كان ينتظر تلك الشواهد لتتحقق له السيطرة التامة على خياله . وفيما هو يهوى مندفعاً من قمة احترامه لأمه وخشوعه لها الى نقيض ذلك تماماً كاد يتمنى لو رأى مبادئ عريها اللاواعى تتطور امام عينيه الى خلاعة تعيها وتدريبها وتحولت الدهشة فى عينيه الى فضول . اما الانتباه الذى شد عينيه والذى خيل اليه انه علمى فقد كانت موضوعيته الزائفة ترجع فى الحقيقة الى قسوة العاطفة التى تحكمت فيه . وبينما كان الدم يصعد الى رأسه ظل يردد قائلاً لنفسه . « انها امرأة ولا شئ غير ذلك . » واحس على نحو ما ان تلك الكلمات كانت اشبه بأسواط من المهانة والاحتقار تجلد ظهرها وساقها .

وما ان خلعت أمه قلاذتها ووضعتها على السطح الرخامى لخزانة الملابس حتى شرعت تنزع قرطها بحركة رشيقة من يديها . كما مالت قليلاً برأسها مبتعدة عن المرأة الى حد ما . وخشى أجوستينو ان تلمحه أمه فى المرأة الكبيرة القائمة عند المشربية على مسافة قريبة منها فقد أمكنه ان يرى صورته فيها وهو واقف يختلس النظر داخل الباب . فرفع يده جاهداً وطرق عمود الباب قائلاً « هل تسمحين لى بالدخول ؟ » فقالت أمه فى هدوء - « لحظة واحدة يا عزيزى . » فرآها أجوستينو وهى تختفى عن بصره ثم لم تلبث ان عادت الى

الظهور بعد قليل من البحث والتنقيب هنا وهناك وقد ارتدت
عباءة حريرية زرقاء طويلة .
قال أجوستينو دون ان يرفع عينيه عن الارض : اماءه . انى
ذاهب الى الشاطيء .
فقالت أمه فى شرود - « الآن ؟ ولكن الجو شديد الحرارة .
الا يحسن بك اولا ان تنام قليلا ؟ » ثم مدت احدى يديها وربتت
بها على وجنته بينما راحت بيدها الأخرى تعيد خصلة تائهة من
شعرها الاسود الناعم الى مكانها .
وفجأة عاد أجوستينو الى طفولته ولم ينبس ببنت شفة بل
ظل واقفا فى مكانه عنيدا فى صمته خافضا بصره وقد التحم
ذقنه بصدرة كما كان يفعل دائما عندما يرفض له طلب ما .
وكانت أمه تعرف هذه الحركة جيدا ففسرتها بطريقتها المألوفة
قائلة له - « حسنا . ان كنت حقا راغبا فى ذلك فيمكنك ان
تذهب الى المطبخ اولا وتطلب اليهم ان يعدوا لك شيئا من الطعام
لتأخذه معك . ولكن اياك ان تأكله الآن . بل ضعه فى الكابينة
وحذار ان تستحم قبل الخامسة بعد الظهر . فضلا عن ذلك
فسأضم عندئذ اليك ونستحم معا » كانت هذه دائما هى
أوامرها اليه .
فلم يجر أجوستينو جوابا بل ركض هابطا الدرج الحجرى
عارى القدمين . وسمع باب غرفة أمه يغلق من خلفه فى هدوء .
وفى البهو ارتدى نعليه ثم خرج الى الطريق حيث لفحته شمس
الظهيرة بلهيبها الابيض فى مظهرها الصامت . وفى نهاية
الطريق كان البحر الساكن يتلأأ فى الجو النائي المرتعش .
كما كانت جذوع اشجار الصنوبر الحمراء فى الناحية الأخرى
تنحني تحت ضغط اكوازها الثقيلة الخضراء .
اخذ يسائل نفسه عن الطريق الذى يسلكه الى
بانيوفسيو تشى اهو طريق الشاطيء ام طريق الغابة . . ولكنه
اختار الاول لانه رغم زيادة تعرضه للشمس فانه لن يخاطر فيه
بالبعد عن وجهته . وتابع الطريق ببصره على طول امتداده
بجانب البحر ثم حث الخطى ما امكنه محاذيا الجدران . كان
يدفعه الى بانيوفسيو تشى على غير وعى منه بغض النظر عن

صحبتة الجديدة لهؤلاء الصبية ماسمعه عن امه وعن صبواتها
المزعومه من تعليقات فظة نابية . واحس ان نزعته الأولى اخذت
تتحول الى شعور يختلف عنها كليا . . شعور اشد قسوة واكثر
موضوعية . وخيل له انه لما كانت سخرياتهم السمجة القبيحة
تعجل بهذا التغيير فانه ينبغي ان يسعى اليها ويذكيها . ولكنه
لو سئل عن الباعث على رغبته الشديدة في ان ينأى بنفسه عن
حب أمه بل عن السر في كراهيته نفسه لجه اياها لما امكنه ان
يقول شيئا . لعله ذلك الاحساس بأنه خدع لاعتقاده انها كانت
تختلف عما هي عليه في الحقيقة . أو لعله عندما لم يجد في
نفسه القدرة على مواصلة حبها في سذاجة وبراءة كما كان
يفعل من قبل آثر أن ينأى بنفسه عن حبها نهائيا وان ينظر اليها
كامرأة عادية فحسب . كان يحاول بغريزته ان ينفذ عن نفسه
نهائيا عبء حبه القديم البريء الذي خيل له انها خانته على
صورة مخجلة مخزية . فقد بدا له عندئذ ان حبه هذا لم يكن
سوى حماقة وجهل . . وعلى ذلك فان تلك الجاذبية القاسية التي
شدت عينيه الى ظهر أمه قبل ذلك بدقائق معدودات هي التي
كانت تدفعه الآن لأن ينشد هؤلاء الصبية وصحبتهم الفظة
المهينة . فلعل تعليقاتهم الساخرة المستهزئة تعينه كما أعانته
عريها النصفى على تحطيم علاقة البنوة القديمة التي لشد ما
صار يبغضها . وما ان رأى بانيوفسيو تشى حتى ونيت خطاه
وتظاهر بعدم الاكتراث رغم ان قلبه كان يخفق في عنف حتى
كادت انفاسه ان تبهر .

كان سارو جالسا كما رآه من قبل الى منضدته المتداعية وقد
علتها زجاجة نبيذ ملئت حتى نصفها وكوب وانا كبير يحتوى
على بقايا حساء السمك . ولكنه بدا له وحيدا حتى اذا ما دنا
من الكوخ فتحت الستار ورأى هناك الفتى الزنجى حمص
بجسده الأسود راقدا على الرمل الأبيض .

ولم يلتفت سارو قط الى الصبي الزنجى بل واصل التدخين
في تأمل بينما ضغطت على احدى عينيه قبة قديمة مهشمة .
قال آجوستينو في لهجة تعبر عن خيبة الرجاء - « أليسوا »

هنا ؟ » فتطلع اليه سارو وراقبه لحظة ثم قال - « لقد ذهبوا الى ريو . » وكانت ريو جزءا مقفرا من الشاطئ يقم على مسافة بضعة كيلومترات حيث كان يتدفق الى البحر مجرى صغير تحف به من ناحية ضفاف رملية ومن الناحية الأخرى غاب وأعشاب .

فقال آجوستينو في أسف - « يا لله . . ذهبوا الى ريو . . ولكن لماذا ؟ »

فأجابه الزنجي قائلا وهو يضع يده على فمه بحركة معبرة : « ذهبوا الى هناك للنزهة . » ولكن سارو هز رأسه قائلا - « لن يهدأ لكم بال أيها الصبية حتى يخرق الرصاص أبدانكم » فكان من الواضح ان نزهتهم ما هي الا ذريعة لسرقة الفاكهة من البساتين . أو على الاقل هذا هو ما بدا لآجوستينو . قال الزنجي في تذلل وكأنه يسترضى سارو - « ولكني لم أذهب معهم . »

فقال سارو في هدوء - « لم تذهب معهم لأنك لم تشأ ذلك » فتدحرج الزنجي في الرمل محتجا وهو يقول - « بل لأنى آثرت البقاء معك . (١) »

كان يتكلم في صوت منغم معسول . فقال سارو في احتقار - « وما ذلك على أيها الزنجي الصغير ؟ فلسنا أخوين فيما أعلم . »

فقال الآخر بلهجة هادئة بل ظافرة وكأنه أحس لقوله برضا عميق - « نعم لسنا أخوين . »

فقال سارو - « اذن فعليك ان تلزم حدودك . » ثم التفت الى آجو سيتنو قائلا - « لقد ذهبوا ليسرقوا بعض الذرة . . هاهي حقيقة نزهتهم . »

فسأله آجو سيتنو قائلا في قلق - « وهل هام عائدون ؟ » فلم ينبس سارو ببنت شفة بل شخص ببصره الى آجو سيتنو وقد بدا عليه انه يقلب في ذهنه شيئا ما . ثم اجابه قائلا في بظء - « انهم لن يتعجلوا العودة . فهم يمكنون هناك حتى

١ - يستعمل « حمص » صيغة الخطاب التي لا تكلف فيها .

ساعة متأخرة ، ولكنك ان شئت لحقنا بهم .
- ولكن كيف ؟

فقال سارو - فى القارب .

فقال الزنجى - « آه نعم . فلنذهب فى القارب . »

ثم وثب فى حماس شديد وهو يقترب من سارو . ولكن هذا
الآخر لم يعره التفاتا . ثم قال : « عندى قارب شراعى . . .
يحملنا الى ريو فى حوالى نصف ساعة اذا كانت الريح مواتية » .

فقال آجو ستينو فى سعادة - « نعم . فلنذهب . ولكننا
كيف نعثر عليهم اذا كانوا فى الحقول ؟ »

فقال سارو وهو ينهض من مقعده لاويا الحزام المحيط ببطنه :
« لا تخش شيئا . فلا ريب اننا سنعثر عليهم . » ثم التفت
الى الزنجى الذى كان يراقبه فى تشوق وأردف قائلا - « هلم
بنا أيها الزنجى . أعنى على حمل الشراع والسارية . »

فأجابه الزنجى قائلا فى فرح - « انى قادم ياسارو - انى
قادم . » ثم تبعه حتى بلغا القارب .

وبقى آجو ستينو وحده فوقف ينظر حوله - كانت قد هبت
من الشمال الغربى ريح معتدلة وحال لون البحر الى ما يقارب
الزرقة البنفسجية وقد اكتسى سطح الماء عندئذ بتموجات
صغيرة - أما الشاطئ فقد اكتنفته على مدى البصر غلالة مبهمه
من الشمس والرمال . وكان آجو ستينو لا يعرف أين تقع ريو
فتابع التضاريس المتقلبة للساحل المقفر بعين مشتاقة . أين
كانت ريو ؟ وخيل له انها هناك حيث تلتقى الارض والسماء
والبحر فى سواد مضطرب تحت لهيب الشمس القاسية . لشد
ماهفت نفسه الى الرحلة وما كان ليضيع هذه الفرصة ولو
أعطى الدنى جميعها .

وأوقظ آجو ستينو مفزوعا من خواطره على صوت رفيقيه
عند خروجهما من الكوخ . كان سارو يحمل باحدى ذراعيه
كومة كبيرة من الحبال والاشرعة بينما احتضن بالأخرى زجاجة
ومن خلفه سار الزنجى ملوحا بسارية طويلة كالخربة طلى
نصفها باللون الأخضر . وقال سارو وهو ماض فى طريقه

على الشاطيء دون أن ينظر الى آجو ستينو « حسنا • فلنقلع »
وبدا لآجو ستينو أنه يتعجل الأمور على صورة غريبة تختلف
تماما عن مألوف عاداته • كما لاحظ أيضا شدة احمرار منخريه
المنفرين والتهابهما اكثر من المعتاد وكان شبكة الشعيرات
الدقيقة المتفرعة كلها قد انتفخت فجأة بالدم المندفع فيها •
وترنم الزنجي قائلا من خلف سارو وهو يرتجل نوعا من
الرقص على الرمال واضعا السارية تحت ذراعه « siva .. siva »
ولكن سارو عندئذ كان قد اقترب من الاكواخ فتمهل الزنجي
انتظارا لآجو ستينو • وعندما دنا منه أشار اليه الزنجي
بالوقوف • ففعل •

ثم قال الزنجي متظاهرا بالألفة - « انصت الى • ثمة أمر
يجب ان اتحدث فيه الى سارو • • فأرجو ان تمن علي • • من
فضلك • • بالتخلف عن هذه الرحلة • • فأرجو أن تنصرف »
فسأله آجو ستينو وهو في دهشة شديدة قائلا - « لماذا؟ »
فقال الآخر في تبرم وهو يضرب الارض بقدمه - « قلت لك
هناك أمر يجب أن أتحدث فيه اليه • • نحن الاثنین فقط • • »
فرد آجو ستينو قائلا - « ولكنني يجب أن أذهب الى ريو »
- « يمكنك الذهاب في وقت آخر • • »
- « لا • • لا يمكنني ذلك » •

فنظر اليه الزنجي • وقد كشفت عينا منخريه المرتعشتان
عن حماس عاطفي حار نفر منه آجو ستينو • قال له - « أنصت
يا بيزا - ان تخلفت أعطيتك شيئا لم تره قط في حياتك • • »
ثم أسقط السارية وتحسس جيبه بيده فأخرج قذافة تتألف
من شوكة صغيرة من خشب الصنوبر وقطعتين من المطاط
أوثقتا معا • وقال الزنجي وهو يرفعها الى أعلى - « أليست
جميلة ؟ »

ولكن آجو ستينو كان يريد الذهاب الى ريو • وفضلا عن
ذلك فان اصرار الزنجي قد اثار شكوكه • فقال - « كلا • •
لا أستطيع • • »

فعاد الآخر يقول وهو يمسك بيد آجو ستينو محاولا أن
يدس فيها القذافة - « خذها • خذها وامض • • »

فرد آجو ستينو جوابه قائلا - « كلا . لا استطيع . »
فقال الزنجي وهو يتحسس جيبه مرة أخرى مخرجا منه
« رزمة صغيرة من أوراق اللعب حمراء الظهر مذهبة الحواشي
سأعطيك القذافة وهذه الاوراق ايضا . خذها جميعا
وامض . فيمكنك بالقذافة ان تصيد الطيور . . أما أوراق
اللعب فهي جديدة لم تمس . »

فقال آجو ستينو « قلت لك اننى لا أقبل . »
فاستدار نحوه الزنجي بعينين ارتسم فيهما الاستعطاف الحار
ولمعت على جبهته قطرات كبيرة من العرق . وتقلص وجهه كله
بتعبير ينبىء بالمذلة المطلقة . ثم انتحب قائلا - « ولكن لم
لا تقبل ؟ »

فقال آجو ستينو وهو يندفع فجأة تجاه الغواص الذى كان
عندئذ يقف بجانب القارب - « لا أريد ذلك . » وما ان لحق
بساو حتى سمع الزنجي يصيح من خلفه قائلا - « ستندم
على هذا . » كان القارب مستقرا بالقرب من الشاطئ على
بكرتين من الخشب غير الممهدة . وقد ألقى ساو بالاشرعة فى
القارب منتظرا فى ضجر . سأل آجو ستينو قائلا وهو يشير
الى الزنجي - « ماذا يريد ؟ »

فقال آجو ستينو - « لا شىء . انه قادم . »
وجاء الزنجي فعلا وهو يركض واثبا فوق الرمل وثبات
هائلة وقد وضع السارية تحت ذراعه . فقبض ساو على
السارية بأصابعه الست فى يميناه ثم أقامها بأصابعه الست
فى يسراه مثبتا اياها فى ثقب المقعد الأوسط - ثم خطا الى
داخل القارب حيث أوثق السارية وحل الشراع . واستدار
ساو نحو الزنجي قائلا - « والآن فلندفعه من أسفل . »

وقف ساو بجانب القارب ممسكا بحافة مقدمه بينمما
تأهب الزنجي لدفعه من الخلف . ولم يدر آجو ستينو ماذا
يفعل فوقف مستطلعا . كان القارب متوسط الحجم طلى نصفه
باللون الابيض ونصفه الآخر باللون الاخضر . وقد كتب على
مقدمه بحروف سوداء اسم « أميليا . . » وأصدر ساو أمره

قائلا - « آه . . . آسا » فانزلق القارب على بكرتيه الى الامام فوق الرمل . وما ان تحرك بعيدا عن البكرة الخلفية حتى انحنى الزنجي وحملها بين ذراعيه وهو يضمها كالطفل الى صدره ثم ركض واثبا فوق الرمل وكأنه يؤدي رقصة جديدة من رقصات الباليه ووضعها تحت مقدمه فردد سارو أمره قائلا - « آه . . . آسا »

عاد القارب الى الانزلاق الى الامام مسافة كبيرة وعاد الزنجي الى القفز والدوران من مؤخر القارب الى مقدمه حاملا البكرة بين ذراعيه . وبدفعة أخيرة انغمس مقدم القارب في الماء حيث طفا فوق صفحة الماء . وخطا سارو الى داخله حيث وضعت المجدافين في مقبضيهما . وأمسك بكل منهما في احدى يديه ثم اشار لآجو ستينو بالوثوب الى القارب مستبعدا الزنجي وكأنه أمر متفق عليه . وخاض آجو ستينو في الماء حتى بلغ ركبتيه ثم حاول أن يتسلق الى داخل القارب . وما كان لينجح في ذلك قط لولا أن سارو بأصابع يمينه الست أمسك باحدى ذراعيه في قوة وجذبه كالقط الى أعلى . ورفع آجو ستينو بصره فرأى سارو يرفعه الى أعلى بذراع واحدة دون أن ينظر في اتجاهه لأنه كان مشغولا بوضع المجداف الأيسر في احكام . ومضى آجو ستينو ليجلس في مؤخر القارب مشمئزا من قبضة سارو بأصابعه تلك على ذراعه . قال سارو - « حسنا . فلتبق انت هناك ، وسأخرج به الآن الى عرض البحر . »

فصاح الزنجي من الشاطيء قائلا - « مهلا . انى قادم أيضا . » ثم قفز الى الماء وقد أنهكه الجهد وأمسك بحافة القارب . ولكن سارو قال له - « كلا . فلن تأتى معنا . »
فصاح الصبي في ألم لحية أمله قائلا - « وماذا أنا فاعل ؟ ماذا أنا فاعل ؟ » فأجابه سارو واقفا في القارب وهو يجذبه بقوة قائلا - « يمكنك أن تستقل الترام فتسبقنا الى هناك . وسترى أننى لا أكذبك . »

فانتحب الزنجي قائلا وهو يركض في الماء بجانب القارب « ولكن لم ياسارو ؟ لم ياسارو ؟ فأنا أيضا أريد الذهاب . »

فأسقط سارو المجدافين دون ان ينبس ببنت شفة وانحنى الى الامام واضعا يده الضخمة على وجه الزنجى فغطاه بها . وقال له فى هدوء - « قلت لك انك لن تأتى معنا » وبدفعة واحدة من يده رماه بعيدا الى الخلف فى الماء . فواصل نحيبه قائلا - « لم ياسارو ؟ » وكان لاختلاط صوته الحزين بصوت المجدافين وهما يرشان الماء وقع بغيض فى نفس آجو ستينو مما أثار فى قلبه احساسا مقلقا بالشفقة . فنظر الى سارو الذى ابتسم قائلا - « ياله من صبي مزعج ! وما شأننا به ؟ »

كان القارب قد ابتعد قليلا عن الشاطئ عندما نظر آجو ستينو حوله فرأى الزنجى يخرج من الماء وعندئذ خيل له أنه يهز قبضته نحوه مهددا متوعدا .

أخرج سارو المجدافين فى صمت ووضعهما فى قاع القارب . ثم اتجه الى مقدمه حيث حل الشراع وأوثقه بالسارية . ورفرف الشراع لحظة فى اضطراب وكان الريح تهب عليه من الجانبين معا فى نفس الوقت . ثم اذا به فجأة ينتفخ فى مهب الريح بهدة عنيفة متكئا الى اليسار . وما ان استقر القارب فى اذعان على جنبه الايسر وأخذ ينزلق فوق الامواج مدفوعا بريح معتدلة حتى قال سارو - « حسنا . يمكننا الآن أن نضطجع لنستريح قليلا » ثم افترش قاع القارب ودعا آجو ستينو ليرقد الى جانبه وهو يقول له موضعا « اذا افترشنا القاع سار القارب مسرعا . » فأذعن آجو ستينو للامر ورقد بجانب سارو .

وتقدم القارب مسرعا رغم ثقله وهو لا يفتأ يرتفع ويهبط مع الامواج الصغيرة كما كان من وقت لآخر يثب كالمهر الذى يحس لاول مرة بلقمة اللجام فى فمه . ورقد سارو واضعا رأسه على المقعد ومادا احدى ذراعيه خلف عنق آجو ستينو موجها بها دفعة القارب . وظل صامتا فترة وجيزة وأخيرا سأله قائلا « هل تذهب الى المدرسة ؟ »

تطلع اليه آجو ستينو فوجده مضطجعا وقد بدا أنه يعرض منخريه الواسعين الملتهبين لهواء البحر وكأنه يرطبهما كما فغر فاه قليلا تحت شاربته وأغمض عينيه . وكشف قميصه المفتوح

عن شعره الرمادي الاشعت القدر الذي يكسو صدره . قال
آجو ستينو وهو يرتجف فجأة من الخوف :

- نعم .

- وفي أى الصفوف ؟

- الثالث .

قال سارو - « اعطني يدك . » ثم قبض على يده قبل أن
يتمكن آجوستينو من الرفض . وأحس آجو ستينو أن قبضته
كانت كالمشد . فقد احاطت اصابعه الست القصيرة السميكة
بيده كلها وتلامست في أسفلها . ثم أردف قائلا وهو يتمدد
في مزيد من الارتياح مستغرقا في نوع من النشوة - « وماذا
يعلمونك ؟ »

فتلعثم آجو ستينو قائلا - « اللاتينية . . . والايطالية . . .
والجغرافيا . . . والتاريخ . . . »

فسأله سارو قائلا في صوت خفيض - « وهل يعلمونك
الشعر . . . الشعر الجميل ؟ »
فقال آجو ستينو : نعم . والشعر أيضا .
- أنشدني شيئا منه .

وغاص القارب فحرك سارو الدفة دون أن يغير من حالة
اغتباطه . فقال آجو ستينو وقد عراه مزيد من الارتباك
والذعر - « لست أدري ماذا . . . فاني احفظ كثيرا من
الشعر . . . كاردوتشى . »

فردد سارو قائلا بطريقة آلية - « آه . . . نعم . كاردوتشى
أنشدني قصيدة لكاردوتشى . »

فاقترح آجو ستينو قائلا وهو في رعب من يده التي تأتي
أن تطلق سراحه والتي لم يفتأ يحاول التخلص منه رويدا
Le Fonti del Clitunno. رويدا -

فقال سارو في صوت حالم - « نعم . »

Le Fonti del Clitunno.

وبدأ آجو ستينو يتلو الشعر بصوت مرتعش :
Anchor dal monte che di foschi on deggia.
Frassini al vento mormoranti e lunge.

ظل القارب يسير مسرعا بينما راح سارو يهز رأسه الى أعلى والى أسفل وكأنه يزن أبيات الشعر وهو لا يزال ممددا بطوله وقد أغمض عينيه وعرض أنفه للريح . وتذرع آجو ستينو بالشعر الذى لم يجد ما يتوسل به سواه للهرب من حديث أحس ببديهته أنه خطير ومعرض للشبهة فواصل تلاوته فى بطاء ووضوح . ولم يفتأ يحاول أن يخلص يده من أسر أصابعه الست القابضة عليها ولكنه كان يشدد قبضته عليها أكثر من أى وقت مضى . ورأى آجو ستينو فى فزع أنه يدنو رويدا رويدا من نهاية القصيدة . ولما لم يدر ماذا يفعل فقد ضم

Le Fonti del Clitunno الى البيت الاول من قصيدة

Davanti a san Guido

مما يدل على ان سارو لم يكن يهتم مطلقا بالشعر ان كانت هناك حاجة الى دليل . بل كان يضع نصب عينيه هدفا يختلف تمام الاختلاف ، ولكن ماذا ؟ هذا هو ما لم يستطع آجوستينو أن يدركه ونجحت التجربة فقد بدأ فجأة يقول :

J ciprcssi che a Bolgheri alti eschietti

دون ان تبدو على سارو أقل علامة تشير الى ملاحظة ما حدث من تغير . ثم انقطع آجو ستينو عن تلاوته قائلا بصوت ساخط متبرم - « أرجو أن تترك يدي . » محاولا فى نفس الوقت أن يسحب يده بعيدا عنه تماما .

فجفل سارو ثم فتح عينيه ملتفتا اليه دون أن يترك يده . ولا ريب انه قرأ على وجه آجو ستينو نفورا عنيفا ورعبا واضحا مما جعله يدرك فجأة ان خطته التى لم يكن ثمة شك فى وجودها قد باءت بالفشل الذريع . ثم أخذ يسحب أصابعه رويدا احداها تلو الاخرى بعيدا عن يد آجو ستينو المتأللة وهو يقول فى صوت خفيض وكأنه يحدث نفسه - « مم انت خائف ؟ اننا الآن نتجه نحو الشاطئ »

وجر نفسه ليقف على قدميه ثم ادار الدفة ، فاستدار القارب بمقدمه صوب الشاطئ .

ونفض آجو ستينو من قاع القارب دون أن ينبس بكلمة ثم ذهب ليجلس فى مقدمه وهو مازال يفرك أصابعه المتقلصة . عندئذ كان القارب يسير غير بعيد من الشاطئ فأمكنه أن يراه بأكمله حيث الرمال البيضاء التى امتدت فسيحة وواسعة عند

هذه النقطة كانت قد صبغتها الشمس باشعتها الناصعة وظهرت من وراء الشاطيء أشجار الصنوبر الخضراء الكثيفة المخيمة . وكانت ريو تقوم عند فجوة نحتت في الكثبان العالية تشرف عليها كتلة من الغاب الأزرق المائل الى الخضرة . ولكن آجو ستينو رأى على الشاطيء قبل بلوغهما ريو جماعة من الناس يتصاعد من وسطها خيط طويل من الدخان الأسود . فاستدار نحو سارو الذي كان جالسا في مؤخر القارب يوجه دفته باحدى يديه قائلا : « اهذا هو المكان الذي سننزل به ؟ » .

فرد سارو في عدم اكرثاث قائلا - « نعم . فها هي ذى ريو » وبينما كان القارب يدنو رويدا من الشاطيء شاهد آجو ستينو الجماعة المحتشدة حول النار تنفض فجأة من حولها وتأخذ في الركض تجاه حافة الماء . ورأى في الحال أنها كانت جماعة الصبية . رأهم وهم يلوحون بأيديهم وربما كانوا يصيحون بأصوات تحملها الريح بعيدا . فسأل قائلا في عصبية : « هل هم هؤلاء ؟ » .

فقال سارو - « نعم . هم أولئك . »

وظل القارب يقترب رويدا رويدا من الشاطيء حتى استطاع آجو ستينو ان يميز الصبية بوضوح . وكانوا جميعا هناك : تورتيفا وبرتو وساندرو والباقون - كما كان حمص الزنجي يقفز على الشاطيء ويصيح مع الباقيين . ولسبب ما احس آجو ستينو بالضيق الشديد لهذا الاكتشاف .

واتجه القارب مباشرة الى الشاطيء حيث أدار سارو الدفة دورة سريعة بالعرض أدخلت القارب الى الشاطيء ثم ارتدى على الشراع قابضا عليه بكلتا ذراعيه وأنزله على ظهر القارب الذي دار في الماء الضحل دون أن يهتز أو يتأرجح ثم تناول سارو مرساة صغيرة كانت في القاع وألقاها في البحر . ثم قال : « فلنذهب الى الشاطيء » وتسلق حافة القارب ثم خاض الماء لملاقاة الصبية الذين كانوا ينتظرونه على الشاطيء .

ورأى آجو ستينو الصبية يتجمعون حوله . وكان من الواضح أنهم يقدمون اليه التهاني التي تقبلها سارو بهزة من

رأسه • ودوى تصفيق أعلى تحية لوصوله هو حتى خالهم لحظة
يرحبون به في صدق واخلاص • ولكنه ما لبث أن أدرك خطأ
فقد تبين أن ضحكاتهم ساخرة مستهزئة • وصاح برتو قائلاً :
« ان بيزا العزيز يجد متعة في الخروج للنزهة في البحر • »
بينما وضع تورتيما أصابعه في فمه وأطلق صفيراً وقحاً •
وحذا الباكون حذوه • حتى ساندرو الذي كان عادة شديد
التحفظ نظراً إليه قى احتقار • أما الزنجي فلم يفتأ يثب هنا
وهناك حول سارو الذي ظل يتقدم نحو النار التي اشعلها
الصبية على الشاطيء • فدهش لذلك آجو ستينو وعراه خوف
غامض • ثم ذهب ليجلس مع الباقيين حول النار •

كان الصبية قد صنعوا فرناً من الرمل المبلل المضغوط •
وقد اشتعلت بداخله النار في أكواز الصنوبر المجففة والاشواك
الصنوبرية والأغصان الصغيرة • وتكدس في مدخل الفرن
حوالي اثني عشر كوزاً من الذرة كانت تشوى وتُيدا • ونثرت
على جريدة بالقرب من النار كتل من الفاكهة واحدى ثمـار
البطيخ • وما ان اتخذ كل منهم مكانه حتى قال برتو « ان بيزا
هذا فتى رقيق • أنت وحمص الآن أخوان • ويجب أن تجلسا
متجاورين • • فأنتما الاثنين اخوان • • أسود وابيض • •
ولا فارق بينكما سوى ذلك • • وكلاكما يحب التنزه في
البحر • »

فضحك الزنجي في استحسان ضحكة مكتومة ، بينما انحنى
سارو أمام النار ليقلب أكواز الذرة مرة أخرى • وضحك
الباكون في سخرية واستهزاء • وتمادى برتو فدفع آجو
ستينو دفعة ألقت به مباشرة فوق حمص فتلامس ظهراهما
لحظة وكان أحدهما يضحك راضياً عن نفسه في فجور ضحكا
مكتوما بينما استبدت بالآخر الحيرة والنفور • فقال آجو ستينو
فجأة - « ولكنى لست أدري ماذا تعنى • لقد ركبت القارب •
وأى ضرر في هذا ؟ »

فردت أصوات كثيرة ساخرة قائلة - « آها • أى ضرر في
هذا ؟ لقد ركب القارب • فأى ضرر في هذا ؟ »
وكان البعض يمسك جنبه من الضحك •

فردد برتو ملتفتا اليه مرة أخرى - « نعم • حقا - أي ضرر هناك ؟ لا ضرر ألبتة ! بل ان حمص يرى في هذا امرا عظيما ، أليس كذلك يا حمص ؟ »

فآمن الزنجي على قوله في نشوة • عندئذ بدأت الحقيقة تتجلى في غموض لعيني اجو ستينو لانه لم يسعه الا أن يرى علاقة ما بين سخرياتهم اللاذعة وبين سلوك سارو الغريب في القارب • ثم صرخ قائلا - « لست أدري ماذا تعنى • فاني لم أرتكب خطأ في هذا القارب • لقد طلب الى سارو ان أنشده بعض قصائد الشعر • هذا هو كل ما حدث • »
فانبعثت أصوات من جميع الجوانب تقول - « آه • آه • آه • هذه القصائد »

فصاح آجو ستينو قائلا وهو محمر الوجه - « ألسنت صادقا فيما أقول ياسارو ؟ »

ولكن سارو لم يجب بالنفي أو الاثبات • بل اكتفى بالابتسام وهو يراقبه طيلة الوقت في شيء من الفضول • ففسر الصبية تظاهره بعدم الاكتراث الذي كان في الحقيقة ستارا لغدره وغروره على اعتبار انه تكذيب لاجوستينو فصاحوا جميعا في صوت واحد قائلين - « انه يسأل صاحب الدار عما ان كان النبيذ جيدا • أليس كذلك ياسارو ؟ انه فتى رائع آه ! بيزا ! بيزا » كان الزنجي يثار لنفسه من آجو ستينو ويجد في ذلك متعة خاصة • فاستدار آجو ستينو نحوه فجأة وهو يرتجف من الغضب قائلا - « ما الذي يضحكك ؟ »

فأجابه قائلا وهو ينكمش بعيدا عنه : « اني لا اضحك » • فقال برتو - « والآن لاتشاجرا معا • فلا ريب أن سارو سيضطر ان يصلح بينكما • »

ولكن ما ان بدا للصبية ان الامر قد أخذ يستقر في هدوء حتى فقدوا كل اهتمام به وانتقلوا الى الحديث عن اشياء اخرى • كانوا يروون كيف انهم رأوا صاحب المزرعة الغاضب قادمنا نحوهم يحمل بندقيته وكيف أنهم لاذوا بالفرار وكيف أن صاحب المزرعة أطلق عليهم النار دون أن يصيب منهم أحدا • وفي تلك الاثناء كانت

أكواز الذرة قد أعدت بعد شيها على جذوات النار على صورة جميلة . أخرجها سارو من الفرن ثم وزعها على الصبية بطريقته الابوية المعهودة فأعطى كلا منهم واحدا . وانتهاز آجو ستينو لحظة شغلوا فيها جميعا بالاكل فوثب نحو ساندرود الذى انتحى جانبا وهو يأكل الذرة حبة حبة .

ثم بادره بقوله - « انى لا أفهم شيئا . » فوجه اليه الآخر نظرة مدركة ورأى آجو ستينو أنه لا حاجة به لأن يزيد عليها . قال له ساندرود فى بطاء « لقد جاء الزنجى بالترام وقال انكما ركبتما القارب أنت وسارو . »

- « وأى ضرر فى هذا ؟ »

فأجابه ساندرود خافضا عينيه وهو يقول - « ليس هذا من شأنى . بل من شأنك . . . انت والزنجى . اما عن سارو . . . » ثم توقف عن الكلام ونظر الى آجو ستينو فسأله قائلا :

- ماذا ؟

- حسنا . فانى ما كنت لاخرج وحدى فى صحبته .
- ولكن لماذا ؟

فنظر ساندرود حوله فى حرص ثم أدلى فى صوت خفيض بالتفسير الذى كان يتوقعه آجو ستينو على صورة ما دون أن يتمكن من ادراك السبب . قال « آه . . . » ولكنه لم يستطع أن يزيد على ذلك ثم عاد وانضم الى الباقيين . كان سارو يتوسط الصبية وهو جالس القرفصاء . وقد مال برأسه جانبا فى هدوء وحذب فبدا تماما كرب أسرة طيب القلب يحيط به أبناءه . ولكن آجو ستينو ما كاد ينظر اليه حتى أحس نحوه بكراهية عميقة بل أعمق فى الواقع مما أحس به نحو الزنجى . وقد زاد من كراهية آجو ستينو له انه لزم الصمت عندما استشهد به اذ بدا وكأنه يريد أن يوهم الصبية بأن ما كانوا يتهمونه به قد وقع فعلا . فضلا عن ذلك فانه لم يسعه الا ان يلحظ انهم باحتقارهم اياه وسخريتهم منه ، قد اوجدوا بينه وبينهم هوة سحيقة ، تلك الهوة التى رأها الآن تفصل بينهم وبين الزنجى مع فارق واحد هو ان الزنجى ، بدلا من ان يحس بالمهانة والاساءة التى يحس هو بها ، بدا وكأن الامر

يتمتع على صورة ما . وقد حاول اكثر من مرة أن يوجه الحديث الى الموضوع الذى لشد ما كان يعذبه . ولكنه لم يفتأ يقابل بالضحك وعدم الاكتراث المهين . فضلا عن ذلك فانه على الرغم من تفسير ساندرى الذى لم يدع مجالا للشك فانه لم يستطع حتى ذلك الحين أن يدرك تماما حقيقة ما حدث . فقد بدا كل شىء مظلماً من حوله وفى أعماق نفسه وكأنه بدلا من الشاطئ والبحر والسماء لم تكن هناك سوى أشباح وأشكال غامضة منذرة متوعدة .

وفى اثناء ذلك كان الصبية قد انتهوا من أكل الذرة المشوية وألقوا بالاكواز العارية بعيدا فى الرمال . ثم اقترح احدهم قائلاً - « فلنذهب لنستحم فى ريو » وحاز الاقتراح قبولا فى الحال كما رافقهم سارو فقد اتفق على أن يعودوا جميعا معه فى القارب الى بانيوفسيوتشى .

وبينما كانوا يسرون على الرمال ترك ساندرى زملاءه وأقبل على أجو ستينو قائلاً : « ان كنت مستاء من الزنجى فلم لا تبث فى قلبه الرهبة والحشوع ؟ »

فسأله أجو ستينو قائلاً فى لهجة ضعيفة متخاذلة : وكيف ؟ - « بالضرب المبرح » .

فقال أجو ستينو متذكرا معركة الذراع الحديدى - « ولكنه أقوى منى ما لم تمد لي يد المساعدة . »

- « ولماذا أساعدك ؟ فالامر يخصكما وحدكما . أنت وهو »

نطق ساندرى بهذه الكلمات بطريقة أوضحت تماما أنه كان يتفق مع الباقيين فيما يخص السبب الذى يدفع أجو ستينو الى كراهية الزنجى . فأحس أجو ستينو بمرارة هائلة تخترق قلبه . اذن فقد كان ساندرى - الذى لم يظهر سواه شيئا من العطف نحوه - يؤمن هو أيضا بتلك الوشاية . وما أن أسدى اليه تلك النصيحة حتى عاد لينضم الى الباقيين وكأنه يخشى ان يرى فى صحبته . وقد مروا وهم فى طريقهم بغابة من شجيرات الصنوبر ثم عبروا ممرا رمليا واقتحموا أحواض الغاب الذى كان ينمو كثيفا طويلا تعلو الكثير منه رءوس ريشية بيضاء . وكان الصبية يظهرن تارة ثم يختفون أخرى

بين حراب الغاب الحضراء الطويلة وراحوا ينزلقون هنا وهناك
على الأرض الرطبة وهم ينحون من طريقهم أوراق الشجر
الصلبة ذات الألياف فتحدث حفيفا خشنا . وأخيرا وصلوا الى
مكان اتسع فيه حوض الغاب حول ضفة خفيضة موحلة .
وعند ظهورهم وثبت هنا وهناك من جميع الجوانب ضفادع
كبيرة فى المياه القاتمة الساكنة . وهنا أخذ الجميع يخلعون
ملابسهم وقد اعتلى كل منهم ظهر الآخر تحت بصر سارو الذى
كان جالسا فى كامل هندامه فوق صخرة مشرفة على الغاب
حيث بدا مستغرقا فى تدخين سيجاره ولكنه فى الحقيقة لم
يفتأ يراقبهم من خلال جفونه المغمضة حتى نصفها . وخجل
آجو ستينو من الانضمام اليهم ولكنه بدأ يحل ازرار سراويله
متمكنا فى ذلك قدر امكانه وهو يراقب الباقيين خشية أن
يضحكوا منه . ولشد ما بدوا جذلين مسرورين للتخلص من
ملابسهم وراحوا يتصادمون صائحين فى بهجة وفرح . وبدت
أجسادهم ناصعة البياض وهى منعكسة على الخلفية التى
تتألف من أعواد الغاب الحضراء . ولكن بياضها من الحقو الى
البطن كان قدرا بغيضا . ولم يزد هذا البياض الشاحب على
اظهار قوة عضلية قبيحة مفرطة يتميز بها العمال اليدويون
بصفة خاصة . أما ساندرودو الجسم الرشيق المتناسق الذى
كان اشقر الشعر عند العانة كما كان عند الرأس فقد كان
وحده دون سواه لا يبدو عاريا حقا ولعل السبب فى ذلك أن
بشرته كانت برونزية بنسبة واحدة فى جميع أجزاء جسده .
وعلى أية حال فلشد ما اختلف عريه عن ذلك العرى المنفر
الذى يعرض فى الحمامات العامة .

وأخذ الصبية يمارسون جميع أنواع اللهو الفاحش البنى
قبل غوصهم فى الماء كأن يفرجوا سيقانهم على سعتها ثم يتلامسوا
فى طعان وقد سادهم الهرج والمرج على صورة فاحشة منحلة
أذهل لها آجو ستينو الذى لا عهد له قط بشيء من ذلك . كان
عاريا هو ايضا وقد اسودت قدماه فى الوحل البارد القدر ولكنه
كان يود لو اختلفى بين أعواد الغاب لا لشيء الا ليهرب من
نظرات سارو التى أخذ يسدها اليه من خلال عينيه المغمضتين

حتى نصفهما وهو جالس منحني الظهر في سكون كضفدع من تلك الضفادع الضخمة التي تسكن حوض الغاب . ولكن نفوره كالعادة كان أضعف من أن يصمد أمام تلك الجاذبية الغامضة التي كانت تربطه بجماعة الصبية . بل لشد ما امتزج الاحساسان حتى استحال عليه أن يميز بين احساسه بالرعب وبين ما ينطوي تحته من احساس بالمتعة . واستعرض الصبية أنفسهم كل بدوره مباهين بقوة ذكورتهم وجسارتهم البدنية . وكان تورتيما اكثرهم زهوا . ولكنه على الرغم من قوته غير المتناسبة كان أشدهم قذارة وسوقية في مظهره . فقد أخذه الغرور بنفسه حتى صاح قائلا لآجو ستينو - « لنفرض أنني ظهرت لامك ذات صباح عاريا على هذه الصورة فماذا هي قائلة ؟ أتمثل لرغبتى ؟ »

فقال آجو ستينو - « كلا . »

فقال تورتيما - « وأنا أقول لك انها تمثّل لأمرى في الحال فهي لن تزيد على أن ترميني بنظرة لتري ما أصلح له ثم تقول لي : هيا ياتورتوما فلنمض معا »

وضحك الجميع من سخف اقتراحه الفظ . وعندما هتف قائلا : « هيا ياتورتوما فلنمض معا » قذف الصبية بأنفسهم في الماء أحدهم في اثر الآخر وهم يفوصون فيه برءوسهم تماما كما فعلت الضفادع التي أزعجها مقدمهم .

كان الشاطئ كله محاطا بالغاب حتى أن النهر لم تبد منه الا مسافة قصيرة . ولكنهم ما أن توغلوا فيه حتى أمكنهم أن يروا النهر بأكمله تتدفق أمواجه الكثيفة القادمة بحركة غير محسوسة تجاه مصبه البعيد بين الضفاف الرملية . أما في أعلى النهر فكان الماء يواصل طريقه بين صفيين من الشجيرات الكبيرة الفضية التي تلقى ظلالها البهيجة على الماء حتى يبلغ النهر جسرا حديديا صغيرا تنمو وراءه أعواد الغاب وأشجار الحور والصنوبر بكثافة تحول دون تسرب الماء بعد ذلك . وثمة بيت أحمر يكاد يختفي بين الأشجار بدا كأنه يقوم على حراسة الجسر .

وشعر آجو ستينو لحظة بالسعادة وهو يسبح فى ذلك الماء القوى البارد لحظة كل مالحق به من محن ومظالم - وسبح الصبيحة ونسى لحظة كل مالحق به من محن ومظالم - وسبح الصبيحة فى جميع الاتجاهات وقد برزت رؤوسهم وسواعدهم فوق سطح الماء الاخضر الهادى . ودوت أصواتهم فى الهواء النقى الساكن . وبدت أجسادهم من خلال الماء الشفاف وهى تتحرك هنا وهناك حيثما يجذبها التيار كالأغصان البيضاء النامية من الأعماق . وسبح آجو ستينو حتى لحق ببرتو الذى لم يكن على مسافة بعيدة منه ثم سأله قائلاً - « هل يكثر السمك فى هذا النهر ؟ »

فنظر اليه برتو قائلاً : «ماذا تفعل هنا ؟ لم لاتبقى فى صحبة سارو ؟»

فأجابه آجو ستينو قائلاً وقد عاوده شعوره بالتعاسة - « انى أحب السباحة . » ثم استدار وسبح بعيداً عنه .

ولكنه لم يكن سباحاً قويا أو ذا خبرة كالباقيين . فما لبث أن عراه الاعياء واستسلم للتيار الذى حمله بعيداً تجاه مصب النهر . وسرعان ما خلف وراءه الصبية وضجيجهم . وقلت كثافة الغاب وأمكنه أن يرى من خلال الماء الصافى الذى لا لون له القاع الرملى الذى لا تفتأ تدور فوقه دوامات رمادية صغيرة وأخيراً وصل الى بركة عميقة خضراء كانت بمنزلة العين الشفافة لمجرى النهر وما أن تجاوزها حتى لمست قدماه الرمل . ثم تسلق ضفة النهر بعد صراع استمر لحظة مع قوة الماء . وكان النهر عندما يصب فى البحر يلتف حول نفسه ويكون شيئاً أشبه بعقدة من الماء . وبعد ذلك يفقد النهر كثافته وينتشر على هيئة مروحة ثم لا يفتأ يرق ويرق حتى لا يعدو ان يكون غلالة سائلة ملقاة على الرمال الناعمة . وتتدفق مياه المد فى النهر فى صورة موجات صغيرة مرقطة بالزبد . وكانت السماء اللامعة تنعكس هنا وهناك على صفحة الماء فى برك نسيها النهر وسط الرمل المائى . وتجول آجو ستينو قليلاً وهو عار من ملابسه فوق الرمال الناعمة اللامعة كالمرآة وطاب له ان يطأ الرمل بقدميه وأن يرى الماء وهو يرتفع فجأة الى السطح فيغمر آثار

خطواته • وثارت في نفسه رغبة غامضة يائسة في أن يخوض عبر النهر ويواصل السير بمحاذاة الساحل مخلفا الصبية وسارو وأمه وحياته السابقة كلها بعيـدا وراءه • فلعله لو واصل سيره قدما الى الأمام ولم يعد أدراجه قط بل ظل يمشى ويمشى على هذا الرمل الناعم الابيض لعله يصل في النهاية الى بلد لا أثر فيه لتلك الاشياء الشنيعة - بلد يجد فيه الترحيب الذي يتوق اليه حيث يمكنه أن ينسى كل ما تعلمه ليتعلمه من جديد في رقة ورفق كما أوحى اليه احساسه الغامض وبطريقة طبيعية خالية من كل هذا الحجل والرعب • ثم حلق في الأفق القاتم البعيد الذي كان يكتنف تخوم البحر والشاطئ والغابة وأحس بنفسه مشدودا الى ذلك الأفق الرحيب المترامي وكأنه يرى فيه الخلاص من عبوديته • وارتفعت صيحات الصبية وهم يتسابقون عبر الشاطئ في اتجاه القارب فأيقظته صيحاتهم من تخيلاتهم الحزينة • وراح أحدهم يلوح له بملابسه في الهواء بينما صاح برتو قائلا - « بيزا - نحن راحلون » فhez نفسه وسار محاذيا حافة البحر لينضم الى جماعة الصبية •

كان الصبية يتزاحمون في الماء الضحل • وأخذ سـارو يحذرهم في لهجة أبوية من صغر حجم القارب ومن أنه لا يتسع لهم جميعا • ولكنه كان واضحا أنه لا يقصد سوى مشاكتهم وراح الصبية يلقون بأنفسهم كالمجانين على القارب وهم يصرخون ، وقد تشبثت عشرون يدا بجنبى القارب في وقت واحد • وفي لمح البصر امتلأ القارب بأجسادهم التي لم تهدأ عن الحركة ، وركدت فئة منهم في القاع وتكدست فئة أخرى حول الدفة في مؤخر القارب وجلس البعض في مقدم القارب والبعض الآخر على المقاعد أما الباقيون فقد جلسوا على الحافة وتدلّت أقدامهم في الماء • وكان القارب في الواقع لا يتسع لكل ذلك العدد فارتفع الماء حتى كاد يبلغ أعلاه •

قال سارو في سرور بالغ - « ألسنا جميعا هنا ؟ » ثم نهض واقفا وأطلق الشراع فأسرع القارب الى عرض البحر • وهلل الصبية لبحاره بهتافات مدوية •

ولكن آجو ستينو لم يشاركهم سعادتهم . بل راح يترقب الفرصة المواتية لاثبات براءته وازالة تلك الوصمة الظالمة التي كان يرزح تحت عبئها . فانتهر لحظة انهمك فيها الصبية في مناقشة ما وتسلسل الى جانب الزنجى الذى كان يجلس وحده فى مقدم القارب وقد حاكى فى سواده نوعا جديدا من التماثيل التى توضع فى مقدم السفينة . وسأله آجو ستينو قائلا وهو يهصر احدى ذراعيه فى قوة - «مالذى جئت تقوله عنى الآن؟» لقد اساء اختيار تلك اللحظة ولكنها كانت أول فرصة أتيح فيها لآجو ستينو الاقتراب من الزنجى الذى حرص كل الحرص على الابتعاد عنه عندما كانا على الشاطئ . فقال حمص دون ان ينظر اليه - « قلت الحقيقة » .
- وما هي الحقيقة ؟

وذعر اجوستينو لرد الزنجى . « لن يجديك شيئا أن تهصر ذراعى على هذه الصورة . فانى ماقلت سوى الحقيقة . ولسوف أخبر أمك بكل شىء ما لم تمتنع عن تحريض سارو على فحذار يا بيزا » .

فصاح اجوستينو قائلا وهو يرى أسفل قدميه هوة فاغرة:
- ماذا ؟ ماذا تعنى ؟ هل جنتت ..

ثم تلثم قائلا وقد عجز لسانه عن متابعة تلك الرؤيا المخيفة التى استحضرها خياله فجأة - انى .. انى .
ولكن الوقت لم يتسع لمواصلة الحديث . اذ انفجرت صيحات الهزء والسخرية فى جميع أرجاء القارب .

وضحك برتو قائلا : انظروا اليهما جنبا الى جنب .. انظروا اليهما .. ياللعار اننا لانملك آلة تصوير لالتقاط صورهما معا . فاستدار اجوستينو نحوهم بوجه محتقن ورأهم جميعا يضحكون .. حتى سارو فانه كان يبتسم من تحت شاربه وهو يدخن سيجاره وقد أغمض عينيه فانسحب آجو ستينو بعيدا عن الزنجى وكأنه قد لمس افعى .. ثم جلس يراقب البحر وقد التفت ذراعا حول ركبتيه واغرورقت عيناه بالدموع .
وكانت الشمس فى الافق قد بدأت تميل الى الغروب وسط سحب من اللهب فوق بحر بنفسجى أطلقت نحوه اشعة

زجاجية مدبية .. وهبت الريح وأخذ القارب يسير في بطن
وقد مال على احد جنبيه تحت ثقل الصبية .. واتجه مقدم
لقارب نحو عرض البحر فبدا وكأنه يقصد تلك الجوانب
المعتمة من الجزر النائية التي بدت وسط دخان الغروب الاحمر
كالجبال القائمة عند حافة هضبة بعيدة .. ووضع سارو ثمرة
البطيخ التي سرقها الصبية بين ركبتيه ثم شققها بمطواته البحرية
وقطع منها شرائح كبيرة وزعها عليهم بطريقة أبوية .. وأخذ
كل منهم يناول الاخر شرائح البطيخ التي راحوا يقضمونها في
بهم وهم يتفلون البذور وينهشون قطعاً كبيرة من اللحم ..
وبعد ذلك أخذت تتطاير شرائح القشرة الحمراء التي قرضت
بشدة احداها تلو الاخرى من فوق القارب الى البحر .. وبعد
الانتهاء من تناول البطيخ جاء دور قارورة النبيذ التي اخرجها
سارو في وقار من تحت الكوثل .. ودارت الزجاجاة على
الصبية في القارب وقد أرغم حتى اجو ستينو على تناول جرعة
منها .. وكان النبيذ دافئاً فلم يلبث أن صعد الى رأسه في
الحال .. وعندما عادت الزجاجاة الفارغة الى مكانها أنشد
تورتيما اغنية فاحشة اشترك الجميع في ترديد قرارها ..
وكانوا بعد كل مقطع من الاغنية يحثون اجو ستينو على الغناء
أيضا لانهم جميعا لاحظوا حالته النفسية السيئة ولكن أحدا
لم يتحدث اليه الا لمشاكسته أو لحثه على الغناء .. وأحس
اجو ستينو في داخل نفسه بعبء ثقيل من الحزن المكبوت الذي
لم يزدده البحر العاصف ولهيب المغيب الرائع على المياه البنفسجية
الامرارة وقسوة لا تحتمل .. فقد بدا له من الظلم الصارخ
ان يسير قاربهم هذا بكل ما احتشد فيه من حقد وقسوة
وافتراء وفساد في مثل هذا البحر وتحت هذه السماء .. ففي
وسط هذا الجمال كله بدا له قاربهم وهو محتشد بالصبية
الدائبين على الحركة كالقردة القبيحة ومن بينهم سارو البدين
السعيد واقفا عند الدفة : بدا له هذا منظرا كثيبا لا يمكن
تصديقه .. حتى أنه تمنى في بعض اللحظات لو غرق بهم
القارب .. بل تمنى لو مات هو حتى لا يلوثه بعد ذلك كل هذا
الدنس ولا تنتقل اليه عدواه .. ولشده ما بدا له بعيدا ذلك

الصباح الذي رأى فيه الكوخ الاحمر فى بانيو فسيوتشى لاول مرة . . كان لا يبدو بعيدا فحسب بل وكأنه ينتمى الى عهد مات واندر . . وكان الصبية جميعا يطلقون صرخة يقشعر لها بدنه كلما ارتفع القارب فوق موجة عالية على صورة غير مألوفة . . وكان كلما خاطبه الزنجى باتضاعه المنفر المشوب بالذلة والنفاق يحاول الا ينصت اليه بل يمعن فى الابتعاد عنه فى مقدم القارب . . لقد أدرك فى غموض انه دخل فى ذلك اليوم المشئوم مرحلة مليئة بالمشاق وألوان التعاسة والشقاء التى رأى أنه لاسبيل الى الهرب منها . . كان القارب قد قام برحلة طويلة للغاية برحيله الى الميناء ثم العودة مرة اخرى . . وأخيرا ما ان لمس الارض حتى ولى اجو ستينو الادبار . . دون ان يودع أحدا . . ولكنه لم يكن قد ابتعد كثيرا عندما أبطأ خطاه ونظر الى الخلف فرأى الصبية يساعدون سارو على سحب القارب فوق الشاطىء . . وكان الظلام قد بدأ يبسط أجنحته .

- ٤ -

كان ذلك اليوم بداية مرحلة ظلام واضطراب فى حياة اجو ستينو فيومذاك فتحت له عيناه عنوة . . ولكن ما تعلمه كان أكثر مما ينبغى . . بل عبئا أكبر مما يمكنه احتمالها . . ولكن صدره لم يضيق ودمه لم يتسمم بجدة تلك الاشياء التى تعلمها بقدر ماضق وتسمم بنوعها وصنفها . . فقد كانت أشدهولا وأكثر شؤما مما يمكنه أن يتمثله . . اذ خيل له مثلاناه بعد ما تجمع لديه يومئذ عن أمه من حقائق كانت خافية عليه فان علاقته بها ستتضح وتستبين وأن ما كان يحس به لمداعباتها من قلق ونفور بل واشمئزاز على أثر ما كشف عنه سارو من أمور سوف يذوب ويهدأ كما لو كان ذلك بفعل السحر فى ظل وعى هادىء جديد . . ولكن هذا لم يحدث بل بقى احساسه الاول بالقلق والنفور والاشمئزاز الذى أورثه اياه ما أصيب به حبه البنوى من صدمة وارتباك عند ادراكه الغامض لانوثة أمه . . وظل يراوده بعد ذلك الصباح الذى قضاه فى خيمة سارو نفس ذلك الاحساس المرير بالفضول المذنب الذى لم يستطع احتمالها لما كان يكتنه فى نفسه نحو أمه من احترام

تقليدى ثابت .. وبينما كان فى مبدأ الامر يحاول بعقله الباطن أن يتحرر من تلك العاطفة ببغض لامبرر له فقد بدا له الآن انه يكاد يكون لزاما عليه ان يفصل بين معرفته المنطقية التى اكتسبها حديثا وبين احساسه بقرابة الدم التى كانت تربطه بشخص شاء هو أن يعده امرأة فحسب .. فقد احس انه لو أمكنه أن يرى أمه امرأة جميلة فحسب كما كانت فى نظر سارو والصبية اذن لتلاشى من نفسه كل ما كان يشعر به من شقاء .. وحاول بكل قوته ان يتلمس الفرص لتأكيد هذا الاعتقاد وترسيخه .. ولكن ذلك لم يؤد الا الى نتيجة واحدة وهى ان احترامه العميق لأمه وحبها اياها قد حلت محلها القسوة والشهوانية .

وفى المنزل كانت أمه كعادتها لاتتستر أمامه أكثر من ذى قبل ولم تلاحظ أى تغير فى نظرتها اليها .. فهى كأمه لم يخالجهما نحوه احساس بالخجل ولكنها بدت فى نظره مثيرة للغاية .. فأحيانا كان يسمعها تناديه فيذهب الى غرفتها حيث يجدها فى ثوب منزلى خفيف يكاد يكشف عن ثدييها وهى تضع زينتها .. أو يستيقظ من نومه فيجدها منحنية فوقه لتمنحه قبلة الصباح وقد فتحت عباؤها فىرى بوضوح معالم جسدها من خلال قميص النوم الهش المغضن .. ثم تغدو وتروح أمامه وكأنه لاوجود له .. ثم ترتدى جوربيها أو تخلعها وتتشح بملابسها وتتعطر أو تتزين .. كل هذه الاعمال التى كان يعدها اجوستينو فى وقت من الاوقات طبيعية للغاية صارت تبدو له الآن كدلائل ظاهرية مرئية لحقيقة أكثر شمولا وأشد خطورة فيتمزق عقله بين الفضول والالم .. كان لايفتا يحدث نفسه قائلا : انها امرأة فحسب .. متذرا بعدم الاكتراث الموضوعى الذى يتميز به الخبيرون .. ولكن لاتكاد تمضى على ذلك لحظة واحدة حتى يتمنى لو صاح قائلا وقد ضاق ذرعا بشدة يقظته وبأمومتها اللاهية عن حالها «أسترى نفسك .. أغربى واياك أن تخلعى العذار أمامى بعد ذلك فأنا لم اعد كما كنت » ولكن أمه فى الحكم على أمه كامرأة فحسب لم يلبث ان تحطم وانهار .. اذ سرعان ما تبين له أنها حتى لو أصبحت امرأة فان ذلك لن يقلل من أمومتها فى عينيه بل

يزيدها قوة .. كما أدرك أن احساسه القاسى بالحجل الذى كان ينسبه فى أول الامر الى جدة مشاعره لن يفارقه الآن .. ورأى فى ومضة أنها ستظل فى نظره دائما ذلك الشخص الذى أحبه كل هذا الحب الصافى الطليق وانها لن تفتأ تخلط بين أكثر حركاتها أنوثة وبين انقاها حديبا وحبا وهى التى لم يعرف سواها أمدا طويلا ، فهو لَن يستطيع الفصل بين تصوره الجديد لها وبين ذكرى كرامتها السابقة التى جرحها الان ... فهو لم يشك لحظة ان حقيقة علاقتها بالشاب كانت مطابقة فى الواقع لما قرره الصبية فى خيمة سارو .. وحار بينه وبين نفسه لذلك التغير الذى طرأ عليه .. ففى أول الامر كان لايشعر الا بالغيرة على أمه والبغض نحو ذلك الشاب .. وكان كلا الاحساسين غامضا مبهما الى حد ما .. ولكنه الان وهو يحاول ان يظل هادئا موضوعى النظرة تمنى لو أحس بالعطف نحو الشاب وعدم الاكتراث نحو أمه .. غير أنه بدا له ان هذا العطف سيجعل منه شريكا له على صورة ما وأنه سوف يتهم بالنزق لعدم اكترائه لأمه .. لم يعد الان يخرج معهما فى الطوف الا لماما لانه كان يوفق عادة الى التهرب منهما .. ولكنه كان كلما رافقهما يحس بأنه يتأمل حركات الشاب وألفاظه وبوده لو تجاوز الحدود المتاحة للياقة الاجتماعية كما كان يحس أنه يتفحص امه يكاد يراوده الامل فى اثبات صحة شبهاته وظنونه ولكن هذه المشاعر كانت فى نفس الوقت تفوق احتمالها لانها تمثل النقيض تماما لما ينشده من احساس .. وكاد يتمنى لو عاوده ذلك الشعور بالشفقة الذى أثاره فى نفسه ذات مرة سلوك أمه الأحمق .. فقد كان هذا الشعور اكثر انسانية وعظفا مما كان يمارسه عندئذ من تشريح لايعرف الرحمة ..

تركت فى نفسه تلك الايام التى عانى فيها من الصراع الداخلى احساسا مضطربا بالدنس .. فقد أحس انه لم يستبدل حالته الاولى التى تتسم بالبراءة والسذاجة بما كان ينشده من هدوء الرجولة بل بحالة غامضة غير محددة لايجد فيها من المزايا ما يعوضه عما فقدته بل انه لم يجد فيها سوى حيرة جديدة أضيفت الى ما كان يعانيه من قبل .. فما الجدوى من

وضوح الرؤية اذا كان هذا الوضوح لا يجلب معه سوى مزيد من الظلام . . . وكان يتساءل أحيانا كيف يوفق الصبية الذين يكبرونه سنا في الحفاظ على حبهم لامهاتهم رغم علمهم بما يعلم هو . . . وخلص الى أن مثل هذا الإدراك لا بد ان يدمر حبهم البنوي في الحال في حين أنهما ظلا لديه متلازمين في عقدة كئيبة لا يتنافى احدهما مع الاخر .

وكما يحدث احيانا فقد صار المنزل الذي كان مسرحا لكل هذه الاكتشافات والصراعات مكانا لا يكاد يحتمل في نظره . . . في حين انه كان يجد في منظر البحر والشمس وزحام المستحمين والنساء الكثيرات ما يشئت انتباهه على الاقل ويخدر حساسيته . . . أما في البيت حيث يخلو الى امه بين أربعة جدران فكان يراوده احساس بأنه معرض لجميع ألوان الاغراء ومحاصر بالمتناقضات . . . كانت أمه على الشاطئ لا تعدو ان تكون احدى المستحبات الكثيرات في ضوء الشمس . . . أما في البيت فقد بدت له منفردة متسلطة حيث كانت كل حركة من حركاتها وكل كلمة من كلماتها تبدو بارزة للعيان في وضوح خارج عن المؤلف تماما كما يبدو الممثلون على خشبة مسرح صغير وكأنهم اكبر حجما مما هم في واقع الحياة . . . ولشد ما كانت حساسية اجوستينو للاشياء المألوفة في منزله متوقدة ومتطلعة الى المغامرة . . . ففي طفولته كان المنزل بجميع دهاليزه وأركانها يتسم في نظره بطابع غامض غريب . كانت كلها في نظره أماكن يمكنك أن تجرى فيها أغرب الاكتشافات وتخوض فيها مغامرات خيالية للغاية . . . ولكن هذه المغامرات والاكتشافات لشد ما اختلف طابعها الآن بعد لقائه بهؤلاء الصبية في الخيمة الحمراء حتى انه لم يعد يدري هل يقبل عليها أم يخشاها . . . وكان من قبل يتخيل وجود مكانم وأشباح وأطياف وأصوات في الاثاث والجدران . . . أما الان فقد ارتبط خياله على صورة اكثر ايجابية مما كان عليه في طفولته الخصبة بتلك الحقائق الجديدة التي بدا له ان المنزل بجميع جدرانه وأثاثه بل حتى هوائه محمل بها . . . وصار في نومه لا يحس بذلك الاضطراب البريء القديم الذي كانت امه لا تفتأ تهدئه بقبله

المساء بل اخذ يعذبه ذلك الفضول المخجل المحرق الذي كان
يزداد نموه أثناء الليل فيكبر ويتضخم ويبلغ ابعادا هائلة . كان
يبدو له انه يجد في الظلام مزيدا من الوقود لنيرانه الدنسة .

كان يبدو وكأنه يتجسس في كل مكان في المنزل على
اثار امرأة تقيم معه تحت سقف واحد - تلك المرأة التي لم
يعرف سواها عن قرب في الفة ومودة - وهذه المرأة هي أمه .
فكان يحس في وجوده معها وكأنه يشرف بصورة ما على حراستها
.. فكان عندما يقترب من باب غرفتها يحس وكأنه يتجسس
عليها وعندما يلمس ملابسها يحس وكأنه يلمسها هي نفسها
اذ أنها كانت ترتدى هذه الملابس وقد حوت جسدها ..
وكانت الاحلام تتراعى له أثناء الليل وهو مفتوح العينين
وتعذبه الرؤى الرهيبة .. كما كان يخيل اليه احيانا انه عاد
الى طفولته من جديد وأنه يخاف كل صوت وكل شبح فيقفز
من فراشه ليجرى الى فراش أمه ويلوذ به .. ولكنه لا يكاد
يلمس الارض بقدميه حتى يدرك على الرغم من نعاسه وذهوله
ان خوفه لم يكن الا قناعا ماكرا لفضوله ، وما أن يرتدى في
أحضان أمه حتى تتمخض رؤياه عن حقيقة غرضها .. وأحيانا
كان يستيقظ فجأة من نومه ويتساءل ما اذا كان الشاب صاحب
الطوف تضمه عندئذ بالذات من قبيل الصدفة العارضة غرفة
أمه التي تقوم على الناحية الاخرى من الجدار .. وثمة أصوات
معينة كانت تبدو وكأنها تؤكد هذا الظن وأصوات اخرى تبدو
وكانها تكذبه .. فيظل يتقلب قلقا في فراشه فترة وجيزة .
ثم لا يلبث ان يجد نفسه في النهاية واقفا في الدهليز وقد ارتدى
قميص نومه دون ان يدري مطلقا كيف وصل الى هناك ثم
يأخذ في الانصات في خارج غرفة أمه والتجسس عليها ..
وذات مرة لم يستطع ان يقاوم الاغراء بدخول الغرفة دون ان
يطرق بابها .. وهناك وقف وسطها بلا حراك وكان ضوء القمر
يتسلل من خلال النافذة المفتوحة منتشرا في ارجائها .. واذا
به يركز عينيه على الفراش حيث أمكنه أن يرى شعر أمه الاسود
مسدلا على الوسادة كما شاهد اطرافها الطويلة وقد امتلات في
رقة وجمال .. سألته وهي تستيقظ من نومها قائلة - أهذا

أنت يا اجو ستينو ؟ .. فاستدار دون ان ينبس بكلمة وهرول
عائدا الى غرفته .

وقد دفعه احجامه عن الخلو بأمه الى الامعان فى التردد على
يانيو فسيوتشى حيث تنتظره ألوان اخرى من العذاب جعلت
المكان كمنزله بغيضا الى نفسه - اذ انه لم يطرأ تغير ما على
موقف الصبية منه بعد خروجه وحيدا فى القارب مع سارو ..
بل اتخذ فى الواقع شكلا نهائيا محددًا وكأنه اقيم على اساس
من الاعتقاد الراسخ الذى لا يتزعزع .. وذلك لانه هو الذى
قبل هذا الصنيع المشئوم الذى عرضه عليه سارو .. واستحال
عليه ان يمحو تلك الفكرة من أذهانهم .. ولهذا فقد اضيف الى
احساسهم نحوه منذ البداية بالغيرة والاحتقار لثرائه مصدر
اخر للاحتقار .. ذلك هو فساد المزعوم .. وقد بدا لاذهان
أولئك الهمجين الصغار أن كليهما يبرر الاخر وينجم عنه ..
فقد كان يبدو من تحقيرهم اياه وقسوتهم فى معاملته انهم
يتهمونه بينهم وبين انفسهم بالثراء وبالفساد كنتيجة طبيعية
لذلك .. وسرعان ما احس اجو ستينو بالصلة الدقيقة بين
هاتين التهمتين وخالجه شعور غامض بأنهم كانوا يعاقبونه
لاختلافه عنهم وتفوقه عليهم .. وكان ملبسًا وحديثه عما فى
منزله من ترف ورفاهية وكذلك ميوله وأسلوبه فى الحديث ،
كل هذا كان يعبر عن ذلك الفارق الاجتماعى والتفوق الطبقي
.. وهذا هو ما دعاه الى انكار التهمة الموجهة اليه بوجود علاقة
ما بينه وبين سارو .. كما لم يفتأ هذا التفوق يكشف عن نفسه
فى نفوره الواضح الصريح من اداب الصبية وعاداتهم .. ولذا
فقد استقر رأيه فى النهاية على أن يكون كما بدا انهم يبغون له
أن يكون .. أى على غرارهم تماما ولم يصدر فى ذلك القرار عن
اختيار معين من جانبه بقدر ما كان يحفز به عليه موقفه المهين الذى
وجد فيه نفسه .. فأخذ يتخير من ملابسها اكثرها بلي وأشدّها
قذارا مما اثار دهشة أمه البالغة فقد لاحظت انه لم يعد يفخر
بمظهره .. كما حرص على تجنب ذكر شىء ألبتة عن رفاهية
الحياة فى منزلهم .. وأخذ يتكلف الرضا عن تلك الاساليب
والعادات التى كانت حتى ذلك الحين تبعث فى نفسه النفور

والاشمئزاز . . وذات يوم وقع ما هو أسوأ من هذا كله مما
تطلب جهدا كبيرا ليقوى عليه . . فقد حدث ان قال للصبية
أثناء تندرهم المعهود بخروجه وحيدا مع سارو انه سئم الانكار
وأن ما كانوا يتهمونه به قد وقع فعلا . . وأن الامر لايهمه
سواء عرفوا ذلك أو لم يعرفوه . . وجفل سارو لهذه التأكيدات
ولكنه لم ينكرها . . ولعله خشى أن يعرض نفسه للهزاء
والسخرية . . ولشد ما دهش الصبية كذلك في أول الامر عندما
سمعوه يعترف بصدق الرواية التي بدا أنه تعذب كثيرا من
جرائها . . ولكنهم ما كانوا ليعتقدوا أنه خليق بكل هذه الشجاعة
لشدة خجله وحيائه . . ومع ذلك فما لبثوا أن امطروه بوابل
من الاسئلة عن حقيقة ما حدث . . وعندئذ خانت شجاعته
واحمر وجهه وأبى ان يزيد حرفا واحدا . . فكان طبيعيا أن
يفسر الصبية صمته على طريقتهم الخاصة . . أى أنهم عزوه الى
خجله لا الى جهله وعجزه عن الاختلاق كما هي الحقيقة . . .
واشتدت عليه وطأة سخرياتهم اللاذعة المألوفة ونكاتهم السافلة
اكثر من أى وقت مضى .

ولكنه كان قد تغير حقا على الرغم من هذا الانهيار . . فقد
انتهى الامر لطول عشرته لهؤلاء الصبية أن صار على غرارهم
تماما دون ان يعى ذلك هو نفسه ودون ان يسعى اليه حقا ففقد
ميوله القديمة ولم يكتسب في الحقيقة بديلا جديدا . . وقد
حدث اكثر من مرة في اثناء نوبات نفوره واشمئزازه من
بانيو فسيوتشى . . ان شارك الصبية في بانيو سبرانزا
العبهم البريئة متخيرا زملاءه القدامى الذين عرفهم في أوائل
الصيف . . ولكن هؤلاء الصبية ذوى النشأة الحسنة لشد
مابدوا لعينيه الان بلداء أغبياء لالون لهم ولا طعم . . فما كان
أمل نزهاتهم المقررة تحت بصر ابائهم أو الاوصياء عليهم وما اتفه
احاديثهم المدرسية ومجموعاتهم من طوابع البريد وكتبهم عن
المغامرات وما الى ذلك . . وفي الواقع فان صحبته لتلك العصابة
واحاديثهم عن النساء وحملات السرقة التي كانوا يشنونها على
البساتين بل حتى اعمال الاضطهاد والعنف التي كان هو نفسه
ضحية لها ، كل هذا كان قد غير من نفسيته وطباعه حتى اصبح

لا يطيق اصدقاءه القدامى .. وثمة حادث وقع له قرابة ذلك
الحين كان دليلا قويا على هذا التغير .. فقد حدث ذات صباح
ان وصل متأخرا بعض الشيء الى بانيو فسيوتشي فلم يجد
احدا هناك .. كان سارو قد ذهب لبعض شأنه ولم يكن هناك
أحد من الصبية فاتجه في كآبة الى حافة الماء حيث جلس على
ظهر طوف .. وفيما هو يراقب الشاطئ لعله على الاقل يرى
سارو قادمًا نحوه اذا برجل يظهر له وكان يصحب صبيًا
يصغره بعامين تقريبا - كان رجلا ضئيلا ذا ساقين قصيرتين
ممتلئتين أسفل بطنه البارزة ووجه مستدير وأنف مدبب
تعلوه عدستان .. كان يبدو كموظف مدني أو استاذ في
الجامعة وكان الصبي نحيلًا شاحب الوجه يرتدى حلة فضفاضة
ويضم الى صدره كرة كبيرة من الجلد بدت جديدة تماما ..
وأقبل الرجل على اجو ستينو ممسكا بابنه من يده وراح ينظر
اليه مرتابا بعض الوقت .. وأخيرا سأله ان كان من الممكن أن
يقوما بنزهة في البحر .

فأجابه اجو ستينو قائلا بلا تردد : بالطبع .
وتأمله الرجل في شيء من الريبة من فوق نظارته ثم سأله
عن اجر النزهة بالطوف لمدة ساعة في البحر .. وكان اجوستينو
يعرف الاسعار فأخبره بذلك ثم أدرك ان الرجل قد حسبته
ابن الغواص أو احد الصبية فأرضى ذلك غروره على صورة
ما .. وقال الرجل : حسنا .. فلنذهب .

ولم يتردد اجو ستينو .. بل حمل في الحال كتلة الخشب
الصنوبرية الحشنة التي كانت تستخدم كبكرة ووضعها تحت
مقدم القارب .. ثم أمسك العوامتين من طرفيهما بكلتا يديه
وقد تضاعفت قوته لهذا الحافز الفريد لكبريائه فدفع بالطوف
الى البحر .. ثم عاون الصبي وأباه على ركوب القارب ومن
خلفهما وثب هو وأمسك بالمجدافين .

ولبت يجدف في صمت فترة وجيزة .. وكان البحر في
تلك الساعة المبكرة مقفرا تماما .. ولم يفتأ الصبي يضم كرتة
الى صدره وقد ركز عينيه الشاحبتين على اجو ستينو .. بينما
جلس الرجل في ارتباك وقد انفرجت ركبته لتفسح مكانا

لكرشه .. ولم يفتأ يدير عنقه الغليظ لينظر حوله وبدا انه مستمتع بالنزهة .. وأخيرا سأل اجوستينو عن يكون وهل هو ابن الغواص أم احد اجرائه .. فأجابه قائلا انه احد اجرائه .. ثم سأله الرجل قائلا : وكم تبلغ من العمر ؟
فرد اجوستينو قائلا - الثالثة عشرة .

فقال الرجل ملتفتا الى ابنه : أترى ؟ .. ان هذا الصبي يكاد يكون في مثل عمرك وها هو يعمل فعلا .. ثم التفت الى اجوستينو قائلا : وهل تذهب الى المدرسة ؟

فأجابه متخذا تلك اللهجة المنافقة التي كان قد سمع الصبية يتكلمون بها عندما يوجه اليهم سؤال من هذا القبيل قائلا : وددت لو فعلت ولكن كيف يمكنني ذلك ياسيدى ؟ .. فعلينا ان نكسب قوتنا .

فقال الاب لابنه : أترى ؟ هذا الصبي لايمكنه ان يذهب الى المدرسة لانه مضطر الى العمل .. وأنت لاتخجل من ان تثير ضجة حول دروسك .

قال اجوستينو وهو يجدف في قوة : في الاسرة عدد كبير منا .. والجميع يعملون .

وسأله الرجل قائلا : كم يمكنك ان تكسب يوميا ؟
فأجاب اجوستينو قائلا : هذا يتوقف على عدد العملاء .. فان ارتفع عددهم امكنني ان اكسب حوالى عشرين أو ثلاثين ليرة .

فقاطع الرجل قائلا : تعطيها طبعاً لوالدك .
فأجابه اجوستينو قائلا دون أن يتردد لحظة : بالطبع عدا ما احصل عليه من هبات .

وعندئذ لم ير الرجل ضرورة للاشادة به كقدوة حسنة لابنه .. بل أوماً برأسه مستحسنا ولم يفه ابنه بشيء بل ضم الكرة بشدة الى صدره وظل مركزا عينيه الشاحبتين الدامعتين على اجوستينو .. وسأل الرجل اجوستينو فجأة :

أتحب ايها الصبي ان تكون لديك كرة جلدية كهذه ؟
وكان اجوستينو عندئذ يملك كرتين مماثلتين بقيتا زمتا طويلا في غرفته بين اللعب الاخرى .. ولكنه قال : بالطبع .

ولكن انى لى بواحدة ؟ .. فعلينا أولا ان نبتاع ضروريات الحياة .. فالتفت الرجل الى ابنه قائلا له فى لهجة ربما كانت تنطوى على شىء من المزاح : والآن يا بطرس اعط كرتك لهذا الصبى الذى لا يملك واحدة .. فنظر الصبى أولا الى ابيه ثم الى اجو ستينو ثم شدد فى طمع ضمته على الكرة ولكنه لم ينبس بكلمة .. فسأله أبوه فى رقة قائلا : ألا تبغى ذلك ؟ ألا تبغى ذلك ؟

فقال الصبى : ولكنها كرتى .

فألح الأب قائلا : نعم كرتك ولكنك ان شئت تستطيع أن تتخلى له عنها .. فهذا الصبى المسكين لم يملك فى حياته كرة قط .. والان الا تريد ان تتخلى له عنها . فقال ابنه مؤكدا : كلا .

وعندئذ تدخل اجو ستينو قائلا بابتسامة متظاهرا فيها بالصلاح : أنا لأريدها فى الحقيقة .. فلن يتسع وقتى للعب بها .. أما هو فالامر يختلف بالنسبة له .

فابتسم الاب لهذه الكلمات مسرورا بهذا الدرس الذى تلقاه ابنه على الطبيعة فقال وهو يربت على رأس ابنه : انه خير منك .. فهو فقير ولكنه لا يريد ان يأخذ كرتك .. بل يدعها لك . ارجو ان تتذكر دائما كلما اردت ان تتذمر أو تثير ضجة ان فى العالم كثيرين من أمثال هذا الصبى ممن يضطرون الى العمل ولم يملكوا فى حياتهم كرات قط أو اية لعبة اخرى .

فردد الصبى قائلا فى عناد : ولكنها كرتى .

فتنهده الاب فى شرود قائلا : نعم كرتك .

ثم نظر الى ساعته وقال فى لهجة امرة : لقد حان الوقت للعودة .. فلتعد بنا يا بنى . فأدار اجو ستينو مقدم القارب تجاه الشاطيء دون ان ينبس بكلمة .

وعندما اقترب من الشاطيء رأى سارو واقفا فى الماء يرقب حركاته بانتباه وخشى ان يفشى الغواص سره .. ولكن سارو لم يفه بكلمة .. فلعله فهم الموقف .. ولعله لم يعبا بذلك .. وعاون اجو ستينو فى مهابة على سحب القارب الى الشاطيء .. وقال الرجل وهو يعطى اجو ستينو المبلغ المتفق عليه مع

منحة صغيرة .. هذه لك .. فأخذ اجو ستينو النقود وأعطاهما لسارو .. ثم أضاف قائلاً في شجاعة مظهرية راضية: ولكنني سأحتفظ بالهبة .. فسكت سارو ووضع النقود في حزامه المحيط ببطنه وهو لا يكاد يبتسم ثم سار في بطن الكوخ عبر الشاطئ .

وقد بعث هذا الحادث الصغير في نفس اجو ستينو شعوراً محددًا بأنه لم يعد ينتمي إلى ذلك العالم الذي يعيش فيه صبية من ذلك النوع وأنه لشده ما ألف الآن الحياة مع الفقراء حتى سئم نفاق كل لون آخر من ألوان الحياة . ولكنه في الوقت نفسه أحس بالأسف لأنه لم يكن يشبه حقاً صبية العصابة .. فما زال مرهف الحس للغاية .. وكان يخطر بباله أحياناً أنه لو كان حقاً واحداً منهم لما تألم كل هذا الألم من نكاتهم السمجة الفظة .. لذا فقد بدا له أنه فقد وضعه الطبقي الأول دون أن ينجح في استبداله باخر .



وذات يوم قرب نهاية الصيف ذهب اجو ستينو مع الصبية إلى الغابات الصنوبرية لصيد الطيور والبحث عن الكمأة ولشده ما كانت تمتعه هذه المغامرات الجريئة التي كانوا يقومون بها .. فقد اقتحموا الغابة وساروا أميالاً فوق تربتها الرخوة في ممرات طبيعية تحف بها جذوع الأشجار الشبيهة بالاعمدة الحمراء وقد رفعوا أبصارهم إلى السماء ليروا ما إذا كان هناك شيء يتحرك بين الأشواك الصنوبرية وسط تلك الجذوع الطويلة .. عندئذ كان برتو أوتورتوما أوساندرو وهو أمهرهم جميعاً يجذب مطاط قذافته مصوباً حجراً مسنناً في الاتجاه الذي يعتقد أنه رأى فيه حركة ما .. فيهوى أحياناً على الأرض عصفور كسير الجناح لا يفتأ يدف في عرج بينما تنبعث منه شقشقة صغيرة محزنة حتى يمسك به أحد الصبية لاوياً عنقه بين أصابعه .. ولكن المطاردة في معظم الأحيان كانت لا تأتي بالنتيجة المرجوة ويظل الصبية يتجولون متوغلين في قلب الغابة .. وقد مالت رؤوسهم إلى الخلف وتركزت عيونهم على نقطة ما على ارتفاع كبير فوقهم .. وهم لا يفتأون يتوغلون في

الغابة حتى يصلوا فى النهاية الى حيث ينبت دق الشجر وتحل كتلة متشابكة من الشجيرات الشائكة محل التربة العارية الرخوة المغطاة بالقشرة الجافة . . وعندئذ يبدأ البحث عن الكماة . . كانت أوراق الشجيرات على أثر المطر الذى ظل يتساقط يوما أو يومين لاتزال تلمع بالبلل كما لم تنزل الارض رطبة تغطيها براعم خضراء جديدة . . وفى وسط الشجيرات . . كانت الكماة الصفراء تلمع بالبلل تارة منفردة فى روعة وتارة فى جماعات هائلة من البراعم الصغيرة . . فيمد الصبية اصابعهم خلال العليق حيث يقطفونها فى رفق واضعين رؤوسها بين اصابعهم حريصين أيضا على نزع السوق وقد علق بها الطين والطحلب . . ثم ينظّمونها على أسلاك مكنسة طويلة مدببة . . وهكذا فانهم فى اثناء تجوالهم على هذه الصورة من بقعة الى بقعة بين دق الشجر يجمعون منها عدة كيلوات يتناولها تورتيمما فى عشائه . . اذ انه لما كان أقواهم بنية فانه كان يصادر مغانمهم . . ويومئذ كان محصولهم وافرا اذ انهم بعد تجوالهم مدة طويلة عثروا على بعض الشجيرات البكر التى تنمو فيها الكماة كثيفة متقاربة فى حوضها الطحلبى حتى تأخر بهم الوقت ولما يستكشفوا بعد هذا العدد كله من الشجيرات . . فبدأوا فى بطاء رحلة العودة وهم يحملون معهم عدة فروع طويلة محملة بالكماة وكذلك طائرين أو ثلاثة .

وكان من عادتهم ان يسلكوا ممرا يفضى مباشرة الى الشاطيء . . ولكنهم فى ذلك المساء ابتعدوا عن هذا الطريق وأوغلوا فى الابتعاد عنه وهم يقتفون اثر عصفور مشاكس ظل يدف هنا وهناك بين الاغصان الخفيضة موهما اياهم انه صار فى متناول أيديهم تماما حتى انتهى بهم المطاف الى اجتياز الغابة كلها وكانت تنتهى من الشرق خلف المدينة تماما . . وكانت ظلمة الغسق قد بدأت تنتشر عندما ظهروا من بين اشجار الصنوبر وخرجوا الى الساحة فى ضاحية نائية انتشرت فيها اكداس القمامة والضحايا والعلقى وتلوت عبرها بضعة ممرات غير واضحة المعالم . . كما نمت هنا وهناك حول حافتها اشجار الدفل القصيرة . . وقد خلت الساحة من الافاريز . . أما الحدائق

المغبرة المحيطة بالفيلات القليلة الصغيرة التي تحف بها فكانت تفصل احداها عن الاخرى مساحات من الارض المهملة التي احيطت بسياج متقطع . . . وكانت هذه الفيلات الصغيرة موزعة بحيث تحيط بالساحة من جميع الجهات . . . وقد امتدت فوق هذا الميدان الكبير رقعة السماء فسيحة مترامية فأمنت في خلق ذلك الانطباع بالوحدة والرتابة .

واجتاز الصبية الساحة في خط الزاوية وهم يسرون مثنى وكأنهم افراد احدى الطوائف الدينية . . . وفي نهاية الموكب كان يمشى تورتيما واجو ستينو وقد حمل الاخير فرعين طويلين محملين بالكماة بينما أمسك تورتيما في يديه الكبيرتين بزوج من العصافير تدلى رأسهما الداميان وهما يتأرجحان .

وعندما بلغا الطرف القصى من الساحة لكز تورتيما اجوستينو بمرفقه قائلا له في مرح وهو يشير الى احدى الفلات الصغيرة: أترى هذه الفيلا؟ . . . فنظر اليها اجو ستينو . . . فاذا بها على طراز الفيلات الاخرى جميعها ولكنها ربما كانت اكبر قليلا ذات طوابق ثلاثة وسطح منحدر مبلط . . . وكانت واجهتها دخانية قاتمة اغلقت مصاريعها البيضاء باحكام . . . وكادت الفيلا تتوارى خلف الاشجار الكثيفة فى الحديقة التى لم تبد فسيحة واسعة . . . وقد احاط بها سور يكسوه نبات القسوس وأمكنه ان يرى من خلال البوابة ممرا قصيرا تحف به الشجيرات وبابا مصفحا مزدوجا تعلوه سقيفة من الطراز القديم . . . فقال اجو استينو متوقفا عن المسير : لأحد هناك .

فضحك الاخر قائلا : لا احد هناك . . . هه ؟ . . . ثم أوضح له فى بضع كلمات من هم سكانها . . . وكان اجو ستينو قد سمع الصبية يتحدثون مرارا عن منازل تقيم فيها النسوة على انفراد وكيف كن يحتسبن فيها طوال النهار وما ان يحل الليل حتى يتأهبن لاستقبال كل من يأتى لزيارتهم فى مقابل اجر معين . . . ولكنه لم ير قط منزلا من هذا النوع . . . ولشده ما أثارت فى نفسه كلمات تورتيما ذلك الاحساس بالغرابة والحيرة الذى سبق ان راوده عندما سمعهم يناقشون هذا الموضوع لأول مرة . . . ولكنه لم يكذب يصدق الان كما لم يصدق من قبل

وجود مثل هذا المجتمع الذى تبلغ به سماحته الفريدة ان يبذل فى غير تحيز كل هذا الحب - ذلك الحب الذى لشد ما بدا له بعيد المنال نادر الوجود . . فأخذ ينظر الى الفيلا الصغيرة بعينين مرتابتين وكأنه يتمنى لو امكنه ان يقرأ على جدرانها شيئاً مما يجرى فى داخلها من حياة لا قبل له بتصديقها .
ولشد ما كان المنزل يبدو لعينيه قديماً قديماً اذا ما قورن بتلك الصورة التى ارتسمت فى خياله لغرف المنزل وقد وقفت على باب كل منها امرأة عارية تتألق بهاء واشراقاً . وقال وهو يتكلف عدم الاكتراث مع أن ضربات قلبه قد زادت سرعتها :
آه نعم .

وقال تورتيما : نعم انه أعلى منزل فى المدينة . . ثم أضاف الى حديثه بعض التفاصيل عن المكان وعدد من به من النساء والرجال الذين يترددون عليه والزمن الذى يتباح للزائر ان يقضيه هناك . . وكادت هذه المعلومات ان تثير سخط اجوستينو باحلالها تفاصيل قدرة محل الصورة الهمجية المضطربة التى نسجها خياله عندما سمع لأول مرة عن تلك الاماكن المحرمة .
ولكنه امطر رفيقه بوابل من الاسئلة متكلفاً لهجة تنبىء بالفضول المجرى من الحماس . . وذلك لانه بعد اللحظة الاولى من الدهشة وخيبة الامل لاح له خاطر فجائى ما لبث ان استولى على تفكيره . . فقد مده تورتيما الذى بدا انه على علم واسع بهذا الموضوع بكل ما كان يحتاج اليه من معلومات . . وعبر الساحة ثم لحقا بالآخرين عند الطريق الموازى للبحر وهما مستغرقان فى الحديث . . ولما كان الظلام حينذاك قد خيم تماماً فقد تفرقت الجماعة . . وسلم اجوستينو الكمأة الى تورتيما ثم انطلق فى طريقه الى المنزل .

كان الخاطر الذى لاح له على جانب كبير من البساطة والوضوح رغم غموض مصدره وتعقيده . . لقد صبح عزمه على ان يذهب فى ذلك المساء بالذات الى هذه الفيلا حيث يضاجع احدى النساء . . ولم تكن هذه رغبة غامضة فحسب بل كانت عزماً ثابتاً للغاية يكاد يبلغ حد التهور . . فقد احس ان هذا

هو السبيل الوحيد الذى يمكنه به ان يتخلص من تلك الفكرة المسيطرة التى لشد ما عانى منها طوال ذلك الصيف .. وأخذ يحدث نفسه قائلاً ليته يستطيع ان يمتلك احدى هؤلاء النسوة الآن لأثبت الى الأبد افتراء الصبية عليه كان مثيراً للسخرية ولا يمكنه فى الوقت نفسه ان يقطع ذلك الخيط الرفيع من الشهوانية الشاذة المضطربة التى لم تزل تربطه بأمه .. كان احساسه بالاستقلال عن حب أمه هو هدفه الرئيسى الذى لامثيل له فى الحاجة رغم انه لم يعترف بذلك امام نفسه .. وثمة حقيقة هامة بسيطة اقنعتة يومئذ فحسب بهذه الضرورة .

فقد كان هو وأمّه حتى الان ينامان فى غرفتين منفصلتين ولكن احدى صديقات أمه كان من المتوقع مجيئها فى ذلك المساء لتقضى معهما اسبوعاً .. ولما كان المنزل صغيراً فقد تقرر ان تشغل الضيفة غرفة اجو ستينو وأن يعد له فى غرفة أمه فراش صغير .. وقد بعث فى نفسه الاشـمئزاز فى ذلك الصباح بالذات ان يرى سريره الصغير وقد وضع بجانب فراش أمه وهو لم يسو بعد وقد ألقيت عليه الملاءة .. كما نقلت مع السرير الصغير الى غرفة أمه ملابسه وكتبه وادوات الغسيل .

ولم تزده هذه المشاركة فى النوم الا كرها لذلك الاختلاط الذى لشد ما كان بغيضاً الى نفسه من قبل .. فقد خيل له ان هذه الالفة الجديدة التى زادت وثوقاً لن تلبث بلا ريب ان تكشف له فجأة وبلا أمل فى مهرب عن كل ما كان يرتاب فيه حتى ذلك الحين على صورة غامضة فحسب .. فكان عليه ان يعثر سريعاً سريعاً على ترياق . كان عليه أن يضع بينه وبين أمه صورة امرأة اخرى يمكنه ان يتحول نحوها بتفكيره ان لم يكن بعينيه .. أما هذه الصورة التى ستحجب عنه عرى امه وترد لها كرامتها باستبعاد انوثتها .. فهى امرأة من أولئك النسوة المقيمات فى الفيلا المشرفة على الساحة .

ولكن اجو ستينو لم يعبأ قط بالطريقة التى سيستقبل بها فى ذلك المنزل وكيفية اختياره المرأة التى سوف يضاجعها وفى

الواقع فانه حتى لو شاء ذلك لما امكنه مطلقا أن يصوره لنفسه
.. فقد كان المنزل وسكانه وكل ما يتعلق به على الرغم من
معلومات تورتيما يكتنفه جو كثيف من الشك وبعد الاحتمال
وكان المرء لا يواجه حقيقة بل فرضا أشد ما يكون جرأة ..
وقد يثبت في اخر لحظة انه لانصيب له من الصحة .. اذ ان
نجاح مشروعه كان يتوقف على تقدير منطقي فحسب .. فلو
أن هناك منزلا اذن لكانت هناك نسوة ولو ان هناك نسوة
اذن لكان من المحتمل ان يلتقى باحدهن .. ولكن وجود المنزل
والنسوة في الحقيقة لم يكن واضحا تماما أمام عينيه .. ولا
يعزى ذلك الى شكه في أقوال تورتيما بقدر ما يعزى الى افتقاره
التام الى وجه من وجوه المقارنة .. فليس ثمة وجه للشبه
بين كل ما فعله أو شاهده في الماضي وبين ما هو مقدم عليه ..
كان في محاولته تصور هؤلاء النسوة ومداعباتهن لايسعه الا
أن يتمثل أمه مع شيء من التعديل الطفيف وكان في ذلك كالهيمجي
المسكين الذي لايسعه عندما يسمع عن قصور اوروبا .. الا أن
يتمثل كوخه المسقوف بالغاب في صورة أكبر قليلا .. أما عن
ممارسة الحب فلا يمكن الا أن تكون حدسا ورغبة غامضة .

ولكن افتقاره الى الخبرة أدى به كما يحدث في معظم الاحيان
الى أن يشغل نفسه بالنواحي العملية للمسألة وكأنه بتسويتها
يمكنه أيضا ان يجد حلا لما فيها من وهم مركب .. ولشـد
ماشغلته مسألة النقود .. فانه لم يستطع أن يدركها تماما رغم

ان تورتيما قد شرح له بالتفصيل الدقيق كم كان عليه ان يدفع
بالضبط ولمن .. فما هي العلاقة بين النقود التي تستخدم عادة
للحصول على أشياء معينة بالذات تتميز بأوصاف معروفة وبين
مداعبات المرأة أو بدنها العاري .. هل كان هناك حقا ثمن
لذلك وهل كان حقا هذا الثمن محددًا ولا يختلف طبقا لكل
حالة بذاتها .. لقد بدا له من القسوة والغرابة اعطاء
النقود في مقابل تلك المتعة المخجلة المحرمة - بدا له ان في
ذلك اهانة قد يجد فيها المعطي متعة له ولكنها لا بد أن تكون
قاسية على من يتلقاها .. أكان عليه حقا أن يدفع النقود مباشرة
للمرأة وفي حضورها ؟ .. لقد أحس على صورة ما انه ينبغي عليه

ان يخفيها حتى يتيح لها ان تعيش على وهم العلاقة المنزهة
عن الغرض .. فضلا عن ذلك ألم يكن المبلغ الذي ذكره
تورتينا ضئيلا للغاية ؟ .. فقد خيل له ان النقود مهما بلغت
قيمتها لن تكفى لتكون ثمنا لمثل هذه التجربة .. وهى تمثل
نهاية مرحلة معينة من حياته وبداية اخرى .

وما ان ساورته هذه الشكوك حتى قرر ان يلتزم بدقة كل
ما قاله تورتينا حتى ولو تبين له عدم صحته فلم يكن لديه
اساس اخر يبني عليه خطة عمله .. لقد عرف من صديقه
كم تكلفه زيارة الفيلا ولم يبد الرقم أكبر من المبلغ الذى ظل
يدخره زمنا طويلا فى حصالته .. المصنوعة من الفخار ..
فاذا ما جمع ماتحويه من قطع النقود والاوراق المالية امكنه بلا
شك أن يحصل على المبلغ المطلوب بل وربما زاد عليه .. وكانت
خطته أن يأخذ النقود من الحصالة .. ثم ينتظر حتى تذهب
أمه الى المحطة لاستقبال صديقتها فيخرج هو بدوره للبحث عن
تورتينا ثم يصحبه الى الفيلا .. كما كان عليه أيضا أن يوفر
النقود اللازمة لتورتينا لانه كان يعلم انه فقير وأنه بالطبع لم
يكن على استعداد مطلقا لاداء صنيع له مالم يفد هو منه .

كانت هذه هى خطته ومع أنها لم تزل تبدو له بعيدة
المنال ضعيفة الاحتمال للغاية فقد صح عزمه على أن يتأهب لها
بنفس الحرص واليقين اللذين يتذرع بهما للذهاب فى نزهة
بالقارب أو القيام بحملة على غابات الصنوبر .

- ٦ -

كاد اجو ستينو أن يقطع الطريق كله ركضا من الساحة
البعيدة الى المنزل وقد تولاه الحماس والاضطراب لتخلصه
لاول مرة من سم العجز وتأنيب الضمير .. وكان الباب
الامامى موصدا بينما فتحت النوافذ الكبيرة فى غرفة الاستقبال
وانبعثت منها أنغام الموسيقى فقد كانت أمه تعزف على البيانو
.. ودلف الى الداخل حيث رأى وجهها يضيئه مصباحان
خافتان فوق البيان بينما سبحت الغرفة فى الظلام .. وكانت
جالسة على مقعد البيان الصغير وبجانبيها جلس ذلك الشاب صاحب
الطوف على مقعد اخر .. ولم يكن اجو ستينو قد رآه من قبل

في منزلها فخامره هاجس ذهب بأنفاسه .. وبدأ له أن أمه
قد تكهنت بوجوده لأنها ادارت رأسها بحركة هادئة تشي
يدلالها اللاشعوري الذي احس اجو ستينو انه لم يكن هو
المقصود به بقدر ما قصد به ذلك الشاب .. وما ان رآته حتى
توقفت عن العزف في الحال ودعتة اليها قائلة : اجو ستينو .
ماذا تعنى بعودتك الى المنزل في مثل هذه الساعة ؟ .. تعال هنا .

فاتجه نحو البيان في ببطء وقد امتلأت نفسه بالنفوس
والارتباك .. فجذبتة أمه اليها وأحاطته بذراعها .. ولاحظ
اشراق عينيها ونضارتها وتألقهما على صورة خارجة عن المألوف
.. وخيل له ان الضحكات توشك ان تنبعث من بين شفثيها
فيتلأأ بها ثغرها .. ولشد ما اخافته بان دفاعها الذي يكاد
يبلغ حد العنف وهي تجذبه نحوها وكأنها ترتجف من الفرحة
.. وكان على يقين من ان كل هذه المظاهر لا صلة لها به هو
شخصيا .. بل كانت تذكره على صورة غريبة بما كان هو
عليه من اضطراب قبل ذلك ببضع دقائق وهو يجري في حماس
خلال الشوارع لاحضار مدخراته واصطحاب تورتيما الى الفيلا
حيث يضاجع احدي النساء .

وأردفت امه تسأله في صوت جمع بين الرقة والقسوة
والبهجة في نفس الوقت قائلة : أين كنت ؟ أين كنت طيلة
هذا الوقت أيها الفتى الحبيث ؟ فلم يحر اجو ستينو جوابا
اذ انه احس ان امه في الواقع لم تكن تتوقع منه ان يجيب ..
فبهذه الطريقة تماما كانت تتحدث احيانا الى القط .. وكان
الشاب يجلس متكئا الى الامام وقد ضم ركبتيه بكلتا يديه
وأمسك بالسيجارة بين اصبعيه وهو يحملق في أمه بعينين
متألفتين مبتسمتين كعينيها .. ورددت أمه كلامها قائلة :
أين كنت ؟ ما اخبثك في تغيبك على هذه الصورة .. وجعدت
شعره على جبهته ثم عادت فنعمته بيدها الرقيقة الدافئة التي
كانت على الرغم من حنانها عنيفة على صورة لا قبل له بمقاومتها
.. ثم قالت في اعتزاز وهي تستدير نحو الشاب : أليس فتى
وسيما ؟

فأجابها الشاب قائلا : في وسامة أمه .

فابتسمت لهذه المجاملة البسيطة على صورة مثيرة للشفقة .
وحاول اجواستينو أن يتخلص من عناقها وقد ملأه الخجل
والسخط . . . فقالت أمه : اذهب واغتسل بسرعة فلن نلبث أن
نتناول العشاء . . . فحنى اجواستينو رأسه قليلا تحية للشباب
ثم غادر الغرفة . . . وما لبث أن سمع في الحال أنغام الموسيقى
تنبعث خلفه من جديد لتواصل اللحن حيث قطعه بالضبط .

ولكنه ما كاد يبلغ الدهليز حتى وقف ساكنا وهو ينصت
الى الانغام التي كانت تستخرجها أصابع أمه من مفاتيح البيان
. . . كان الدهليز مظلما وأمكنه أن يرى في نهايته من خلال
باب مفتوح ما يجري داخل المطبخ ذي الاضاءة القوية حيث
انهمكت الطاهية في عملها بين المائدة ومنصة الطهي وقد ارتدت
الملابس البيضاء وواصلت أمه عزفها على البيان وبدأت الموسيقى
لاذنيه بهيجة صاخبة متألقة تماما كتعبير عينيها عندما ضمته الى
جانباها . . . لعل ذلك هو الطابع الحقيقي للموسيقى ولعل أمه
بثت فيها شيئا من لظاها وتألقتها وحيويتها . . . كان المنزل كله
يدوى بالموسيقى وخيل لاجوستينو أن كثيرا من المارة في
الطريق كانوا بلاريب يتوقفون عن المسير ليصغوا اليها في عجب
من تلك الخلاعة الفاضحة التي بدت وكأنها تتدفق من كل نغم
من أنغامها .

وفجأة توقفت الانغام عند منتصف أحد الاوتار وتأكد
اجوستينو - وما كان في وسعه ان يفسر ذلك - ان العاطفة التي
كانت تجد تعبيرا في الموسيقى قد اتخذت فجأة سبيلا اخر . . .
فتقدم خطوتين ووقف ساكنا على عتبة غرفة الاستقبال . . . ولكنه
لم يدهش كثيرا لما وقع عليه بصره . . . كان الشاب واقفا يقبل
أمه على شفيتها . . . وقد مالت الى الخلف فوق المقعد الخفيض
الذي كان لا يتسع لجسدها بينما لم تزل احدى يديها على
دساتين البيان والاخرى ملتفة حول عنق الشاب . . .
واستطاع أن يرى حتى في الضوء الخافت كيف كان جسدها
مقوسا اثناء ميله الى الخلف وقد برز صدرها وانثنت احدى
ساقها الى خلفها بينما امتدت الاخرى نحو دواسة البيانو . . .

وكان الشاب على النقيض من موقفها الذي ينطق بالاستسلام العاطفي الجامح .. لا يزال محتفظا بهيئته الهادئة الرشيقة .. فقد طوق عنق المرأة بذراعه وهو واقف في مكانه ولكنه من الواضح انه لم يكن مدفوعا الى ذلك بعاطفة عميقة بقدر خوفه عليها من السقوط .. وقد تدلت ذراعه الاخرى بجانبه والسيجارة لم تزل بين اصابعه .. وعبرت ساقاه بسراويلها البيضاء عن الحزم والسيطرة التامة على الموقف وقد تباعدت في وقتئذ القوية احدهما عن الاخرى .

وطالت قبلتهما حتى بدا لاجوستينو أن الشاب كلما أراد أن يقطعها تشبثت أمه بشفتيه وهي أشد نهما منها في أي وقت مضى .. وفي الواقع فانه لم يسعه الا أن يحس بجوعها .. بل تضورها الى تلك القبلة كمن حرم الطعام زمنا أطول مما ينبغي .. وبحركة عارضة من يدها دوت الغرفة بنغمتين عذبتين مهيبتين أو ثلاث .. وفجأة وثب كلاهما بعيدا عن الآخر .. اذ تقدم اجوستينو خطوة وهو يقول: أماه .. فدار الشاب على عقبه وذهب ليقف عند النافذة متظاهرا بالنظر الى الخارج . وقد فرج ما بين ساقيه ودس يديه في جيبى سترته .

قالت الام : اجوستينو ؟

فاتجه اليها اجوستينو .. وكانت تتنفس بعنف شديد

للاغاية حتى امكنه ان يرى بوضوح من خلال ثوبها الحريري حركة تديبها وهما يعلوان ويهبطان .. وأشرقت عيناها ببريق أقوى منه في اي وقت مضى وانفرجت شفتاها وتشعث شعرها وتدلّت على وجنتيها خصلة لينة مدببة كالثعبان الحي ..

رددت تقول في صوت خفيض متقطع وهي تحاول جهدها ان

تنسق شعرها : ماذا هناك يا اجوستينو ؟ ..

فأحس اجوستينو بضغط فجائي كان مزيجا من الشفقة والنفور .. وتمنى لو صاح فيها قائلا : هدئي من روعك .. لاتلهثي على هذه الصورة .. ولا تخاطبيني بهذا الصوت .. ولكنه بدلا من ذلك تكلف لهجة صبيانية وهو يقول لها في في حماس مغالى فيه : أماه .. هل يمكنني ان اكسر حصالتى ؟ فأنا أريد ان اشترى كتابا .

فأجابته قائلة وهى تمد يدها لتربت على جبهته : نعم ياعزيزى .

وما ان لمست يدها حتى جفل اجو ستينو الى الوراى على الرغم منه . . كانت حركة طفيفة للغاية لم يكد يحس بها أحد ولكنها لشد ما بدت له عنيفة حتى خيل له ان كل من فى الغرفة قد لاحظها بلاريب قال : حسنا . . اذن فسأكرها . وأسرع بمغادرة الغرفة دون أن ينتظر جوابا . . وكان الرمل يحدث صريرا على الدرج وهويركض صاعدا الى غرفته . . لم تكن فكرة الحصالة فى الواقع سوى ذريعة والحقيقة انه لم يدر ماذا يقول عندما رأى أمه على هذه الصورة . . كانت غرفته يسودها الظلام وقد وضعت الحصالة على منضدة فى الطرف القصى منها . ولكن ثمة مصباحا فى الطريق قد أضاء من خلال النافذة المفتوحة بطنها الاحمر وفمها الاسود الكبير الباسم . . فأدار مفتاح النور ثم تناول الحصالة . . وألقى بها على الارض فى عنف يكاد يكون هستيريا فتهدمت فى التو وتدفتت من الفتحة الواسعة كمية من النقود من كل حجم وشكل . . كما اختلطت بقطع النقود أوراق مالية كثيرة . . فارتمى على يديه وركبتيه واخذ يحصى النقود فى جنون . . وكانت أصابعه ترتعش وهو يحصياها بينما لم تفتأ صورة العاشقين اللذين رأهما فى غرفة الاستقبال تختلط بالنقود المبعثرة على الارض - صورة أمه وقد مالت الى الخلف على مقعد البيانو ومن فوقها انحنى الشاب . . ولكنه عندما انتهى تماما من احصائها اكتشف انها لاتصل الى المبلغ المطلوب . فما العمل ؟

خطر له أن يأخذ المبلغ من أمه . . فقد كان يعلم أين تحتفظ بنقودها . . وليس ماهو أيسر من ذلك . . ولكنه نفر من هذا الخاطر وقرر ببساطة ان يطلبه اليها . ولكن ماذا يمكن ان يكون عذره فى ذلك ؟ . . وفجأة خطر له عذر ما ولكنه سمع عندئذ صوت ناقوس العشاء . . فأسرع باخفاء كنزه فى احد الادراج ثم هبط الدرج .

كانت أمه قد احتلت مكانها الى المائدة . . وقد فتحت النافذة على مصراعها فطارت من الفناء الى الداخل فراشات

مخملية كبيرة اخذت تضرب بأجنحتها غطاء المصباح الابيض .
وقد انصرف الشاب وعاود أمه صفاؤها الوقور المعهود . .
وتساءل اجو ستينو وهو يتأملها عن تلك القبلات التي طبعت
على فمها قبل ذلك ببضع دقائق وكيف انمحي كل اثر لها تماما
كما سبق أن تساءل عندما اصطحبت الشاب لأول مرة للنزهة
في الطوف . . وما كان في امكانه ان يحدد المشاعر التي
اثارها في نفسه ذلك الخاطر . . فقد راوده احساس بالشفقة
نحو أمه التي لشد ما بدت تلك القبلة مثيرة وثمانية في نظرها .
وفي نفس الوقت ثار في نفسه احساس قوى بالنفور لم يبعثه
مارآه بقدر ما بعثته الذكرى التي علقته بذهنه . . وتمنى
لو استطاع ان يطرد تلك الذكرى وينساها تماما . . كيف
يمكن ان تدخل من خلال العينين مثل هذه الانطباعات المزعجة
المتغيرة ؟ . وتنبا بأن هذا المنظر سوف يظل الى الابد مطبوعا في
ذاكرته .

وعندما فرغا من تناول الطعام نهضت امه عن المائدة وصعدت
الدرج . . ورأى اجو ستينو انه لن تتاح له فرصة اسنح من
هذه ليطلب اليها نقودا . . فتبعها على الدرج ودخل معها غرفتها
حيث جلست الى خوان الزينة وبدأت في صمت تتفحص وجهها
في المرأة .

قال اجو ستينو : أماه .

فسألته قائلة في شرود : ماذا هناك ؟ .

— أريد عشرين ليرة .

— لماذا ؟

— لا اشتري كتابا .

فسألته أمه قائلة وهي تمسح على وجهها بالبداية في رقة :
ولكن ألم تقل لي أنك ستكسر حصالتك ؟

وتعمدا اجو ستينو ان يتعلل بعذر صبياني قائلا : نعم ولكنني
ان كسرتها لما بقيت بها نقود . . أريد شراء كتاب دون ان افتح
حصالتي .

فضحكت أمه في شغف قائلة : يالك من طفل . .

وفجست نفسها لحظة أخرى فى المرأة ثم قالت : ستجد كيس نقودى فى الحقيبة على الفراش .. خذ منه عشرين ليرة ثم أعد الكيس الى مكانه .. فذهب اجو ستينو الى الفراش حيث فتح الحقيبة وأخرج الكيس ثم أخذ منه عشرين ليرة .. أمسك بالورقتين فى يده ثم استلقى على السرير الصغير بجانب فراش امه .. وكانت أمه قد انتهت من وضع زينتها وجاءت اليه قائلة : والان ماذا انت فاعل ؟ ..

فقال وهو يتناول كتابا من كتب المغامرات كيفما اتفق من فوق المنضدة الصغيرة المجاورة لفراشه ثم فتحه عند احدى الصور : سأقرأ هذا الكتاب .

- حسنا .. ولكن تذكر ان تطفىء النور قبل أن تنام .. كانت أمه لاتزال تتحرك هنا وهناك فى الغرفة وهى تفعل هذا وذاك من الاشياء بينما رقد اجو ستينو يراقبها وقد توسد ذراعه وخالجه شعور غامض بأنها لم تكن قط أجمل منها فى ذلك المساء .. فقد كان ثوبها الابيض الحريري اللامع يظهر فى تألق سمرتها المكتسبة وبشرتها الوردية الناضرة .. فقد بدا له ان شخصيتها الاولى ما ان انتعشت من جديد على غير وعى منها

حتى استعادت كل ما كانت تتمتع به من صفاء عذب مهيب فى مظهرها كما علتها مسحة غامضة من السعادة . كانت طويلة القامة ولكن اجوستينو لم يرها قط بمثل هذه المهابة .. فقد بدت أنها تملأ الغرفة بوجودها .. أخذت تنتقل فى جلالها وهناك متشحة بالبياض فى ظلام الغرفة وقد انتصب رأسها فوق عنقها الجميل وهدأت عيناها السوداء وان تركزت مقلتها اسفل جبهتها الملساء الناعمة .. ثم أطفأت جميع الاضواء فيما عدا ذلك المصباح الذى يعلو المنضدة الصغيرة وانحنت لتقبل ابنها الذى راح ينهل من جديد ذلك العطر الذى لشد ما كان يعرفه .. ولم يسعه الا أن يتساءل وهو يلثم عنقها بشفتيه ان كانت هؤلاء النسوة .. المقيمات هناك فى الفيلا .. يتمتعن بمثل هذا الجمال ويفوح منهن مثل هذا الاريح .

وما ان خلا اجو ستينو الى نفسه حتى تريت حوالى عشر دقائق ليتيح لاه فرصة الانصراف .. ثم نهض من فراشه

الصغير وأطفأ النور ودخل الغرفة المجاورة على أطراف أصابعه
•• وهناك في الظلام تحسس المائدة القريبة من النافذة ثم فتح
الدرج وملاً جيوبه بقطع النقود والاوراق المالية وغادر الغرفة
بعد أن تحسس بيده كل ركن فيه ليتحقق من خلوه من
النقود •

وعندما خرج الى الطريق اخذ يركض •• كان تورتيما يسكن
الطرف الاخر من المدينة في حي البحارة وعمال السفن وكان
عليه ان يمشى مسافة طويلة على الرغم من صغر حجم المدينة
اذ أنه كان يسلك الازقة المظلمة المتاخمة لغابات الصنوبر ••
ومشى في طريقه رأساً الى الامام تارة يهرول مسرعاً وتارة يركض
بالفعل حتى اخذت تظهر له من بين المنازل سوارى القوارب
الشراعية التى كانت قد سحبت الى المرفأ الجاف • وكان منزل
تورتيما يعلو المرفأ تماماً فيما وراء الجسر الحديدى المتحرك
الذى كان يعبر القناة المؤدية الى الميناء •• وكانت هذه البقعة
تبدو اثناء النهار خربة منسية وكانت مخازن السلع والمحال
المتهدمة تحف بأرصفة الميناء الواسعة المقفرة الملوحة بلهيب
الشمس •• كما تنتشر فيها رائحة السمك والقطران وتوجد
بها مياه خضراء كالزيت وروافع ساكنة لا تتحرك وصنادل
محملة بالحصباء • ولكنها بدت عندئذ في جنح الليل كأي جزء
من أجزاء المدينة •• ولم يكشف عن وجود مياه الميناء العميقة فيما
بين المنازل سوى قارب شرعى كبير كانت جوانبه المنتفخة
وسواريه تشرف على ممر المشاة •• وعبر اجو ستينو الجسر
ثم اتجه نحو صف من المنازل كان على الجانب الاخر من القناة
•• وكانت جدران تلك المنازل الصغيرة يضيئها في تقطع مصباح
هنا ومصباح هناك من مصابيح الطريق •• ووقف اجو ستينو
أمام نافذة مضاءة فتحت على مصراعها وانبعثت منها أصوات
الناس وصليل الصحف كما لو كان اهل الدار يتناولون الطعام
•• فوضع اجو ستينو أصابعه في فمه وأطلق صغيراً واحداً
مدوياً ثم صغيرين هادئين وكانت هذه هى الإشارة المتفق عليها
بين صبية الجماعة •• ولم يلبث ان ظهر شخص في النافذة •
فقال اجو ستينو في صوت متردد خفيض - هذا أنا •• بيزا
فأجابه تورتيما قائلاً - وكان هو ذلك الشخص الذى ظهر في

النافذة - : «انى قادم» وجاء تورتيما وهو مازال يأكل آخر لقمة
وقد احمر وجهه من أثر النبيذ الذى كان يجرعه . . قال
اجو ستينو : لقد جئت اليه لنذهب الى تلك الفيلا . . ومعى
النقود . . التى تكفيننا نحن الاثنين . . فابتلع تورتيما اللقمة
فى صعوبة وهو ينظر اليه . . فردد اجواستينو كلامه قائلا:
تلك الفيلا التى تقع على الجانب الآخر من الساحة حيث توجد
النسوة .

فقال تورتيما وقد أدرك مقصده فى النهاية : اه . . كنت
تفكر فى هذا الامر . . عوفيت يا بيزا . . سأعود اليك بعد لحظة .
فانطلق يجرى بينما لم يفتأ اجو ستينو يغدو ويروح فى
انتظاره مركزا عينيه على النافذة . . ظل ينتظره فترة طويلة الى
ان ظهر له اخيرا . . ولم يكد اجو ستينو يتعرف عليه . . فقد
كان عهده به دائما فتى ضخما طويت سراويله أو تعرى جسده
الا من لباس البحر على الشاطئ وفى الماء . . فاذا به عندئذ
يرى أمامه عاملا صغير السن بملابس العطلة القاتمة : السراويل
الطويلة والصدر والياقة ورباط العنق . . كما بدا اكبر سنا
مما هو بسبب ذلك الدهان الذى أرقده به شعره الاشعث
المتورد . . وكذلك كشفت ملابسه الانيقة العادية لأول مرة عن
شئ فى مظهره كان مبتدلا ومثيرا للسخرية .

قال تورتيما وهو ينضم اليه : هل نذهب الان ؟ .
فسأله آجو ستينو قائلا وهو يهرول بجانبه أثناء عبورهما
الجسر - : ولكن هل حان الوقت ؟
فقال تورتيما ضاحكا : ان الوقت مناسب دائما فى هذا
المكان .

واتخذ طريقا مغايرا لذلك الذى سلكه آجو ستينو . وكانت
الساحة لا تبعد عنهما كثيرا بل تقع على مسافة منعطفين تقريبا
من مكانهما .

وعاد آجو ستينو يسأله قائلا : ولكن هل زرت هذا المكان
من قبل ؟
- ليس هذا الذات

ولم يبد على تورتيما أنه في عجلة من أمره بل كان يسير كعادته . وقال موضحا : سنجد أنهم لما يفرغن بعد من تناول عشائهن . ولن يكون هناك أحد . فهي فرصة مناسبة . فسأله آجو ستينو قائلا : لماذا ؟

- لماذا ؟ ألا ترى أنه يمكننا اختيار المرأة التي نفضلها .
- ولكن كم يبلغ عدد النسوة هناك ؟
- حوالي أربع أو خمس .

وتاق آجو ستينو لأن يسأله عما ان كن جميلات ولكنه أحجم عن ذلك . بل سأله قائلا : وماذا علينا أن نفعل ؟ كان تورتيما قد أخبره بذلك من قبل ولكن لشهد ما كان احساسه بالوهم قويا في نفسه حتى انه كان يشعر بالحاجة الى سماع تأكيد لما قيل له .

فقال تورتيما : ماذا تفعل ؟ ليس هناك ما هو أبسط من ذلك . فانك تدلف الى الداخل . . حيث يعرضن عليك أنفسهن فتقول : سيداتي . طاب مساؤكن . . ! ثم تتظاهر قليلا بالتحدث اليهن لتتيح لنفسك فرصة فحصهن . . وبعد ذلك تختار احدهن . أهذه أول مرة في حياتك ؟

فأخذ آجو ستينو يقول في شيء من الصفاقة - « حسنا » - فقال له تورتيما في وحشية - « ول ! أتقصد أن تقول لي أنها ليست المرة الأولى ؟ قل هذا لغيري ان شئت ولكن ليس لي . ومع ذلك فلا تخش شيئا . فهي تقوم عنك بكل شيء . دع الأمر لها . »

ولم ينبس آجو ستينو بكلمة . فقد أرضته تلك الصورة التي استحضرها تورتيما للمرأة . وهي تلقنه الحب . . فان في ذلك شيئا من الأمومة . ولكنه على الرغم من هذه الحقائق ظل مرتابا في الأمر . وسأله قائلا وهو يتوقف فجأة عن المسير متأملا ساقيه العاريتين - « ولكن . . ولكن أتظنهن راغبات في » ؟

وبدا له أن تورتيما قد ارتبك لحظة عندما وجه اليه هذا السؤال . ولكنه قال في اطمئنان متكلف - « فلنواصل طريقنا . وهناك ندبر أمر دخولك . »

ومن خلال زقاق ضيق خرجا الى الساحة التي كانت غارقة كلها فى الظلام فيما عدا زاوية واحدة كان يرسل فيها أحد مصابيح الطريق ضوءا هادئا على مساحة كبيرة من الأرض الرملية غير المستوية . وكان الهلال المعلق فى السماء بلونه الدخانى الاحمر يبدو مطلا فوق الساحة مباشرة وقد شقه الى نصفين خيط رفيع من الضباب . وتعرف آجو ستينو على الفيلا حيث كان الظلام أحلك ما يكون بما يميزها من مصاريع بيضاء . وكانت كلها مغلقة لا يبدو من خلالها شعاع واحد من الضوء . ومع ذلك فقد عبر تورتيفا الساحة بلا تردد متجها نحو الفيلا . ولكنه ما كاد يصل الى وسط الساحة حتى قال لآجو ستينو وهو واقف تحت هلال القمر مباشرة - « اعطني النقود . اذ يحسن أن تكون معى . »

فبدأ آجو ستينو يقول وهو لا يشعر بالثقة التامة فى تورتيفا - « ولكننى » فأصر تورتيفا قائلا فى خشونة « هل ستعطينى اياها أم لا ؟ » وأحس آجو ستينو بالحجل من كل هذه النقود الصغيرة ولكنه امتثل لأمره وأفرغ جيوبه فى يديه . فقال رفيقه : « والآن تعال معى ولا تفتح فاك بكلمة . »

وعندما اقتربا من الفيلا قلت كثافة الظلام وأمكنهما أن يتبيننا عمودى البوابة وممر الحديقة والباب الامامى أسفل المظلة . لم تكن البوابة موصدة فدفعها تورتيفا ودخلا الى الحديقة . كما كان الباب الامامى أيضا مواربا . فصعد تورتيفا الدرجات ودلف الى الداخل مشيرا الى آجو ستينو بالتزام الهدوء . وعندما نظر آجو ستينو حوله فى فضول رأى بهوا خاليا تماما يقوم فى نهايته باب مزدوج أضيئت ألواح الزجاجية الحمراء والزرقاء بضوء ساطع . وكان دخولهما نذيرا بدق الأجراس . وما لبث ان ارتفع خلف ألواح الزجاج شبح ضخم لشخص جالس وراء الباب . ثم ظهرت امرأة فى المدخل . كانت خادمة فى منتصف العمر مفرطة فى بدانتها عظيمة الصدر متشحة بالسواد وقد شدت حول خصرها وزرة بيضاء .

تقدمت نحوهما وقد برز بطنها وتدلّت ذراعاها • كان وجهها متورما وعيناها عابستين تنظران في ريبة أسفل كتلة من الشعر •

قال تورتيما : هانحن أولاء •
وأحس آجو استينو من صوته وأسلوبه أنه هو أيضا قد عراه الوجل رغم ماعهده فيه من جرأة شديدة •
وتفحصتها المرأة لحظة في استهجان • ثم أتت اشارة وكأنها تدعو تورتيما الى الدخول • فابتسم تورتيما في ثقة مجددة وأسرع تجاه الباب الزجاجي • وهم آجو ستينو بأن يتبعه • فقالت المرأة واضعة يدها على كتفه : أما انت فلا •

فصاح آجو ستينوقائلا وقد تبددت في الحال كل مخاوفه :
- ماذا ! ولماذا يسمح له ولا يسمح لي ؟ •
فقالت المرأة في ثبات - « كلاكما في الواقع ليس من شأنه أن يكون هنا • ولكنه قد يجوز دخوله • أما أنت فلا • »
فقال تورتيما ساخرا : « أنت اصغر مما ينبغي يا بيزا • »
ثم دفع الباب واختفى • وظل شبحة القصير مرتسما لحظة على ألواح الزجاج • ثم تلاشى في الضوء الوهاج •
فألح آجو ستينو قائلا وقد أثارت سخطه خيانة تورتيما :
« ولكن ماذا عنى ؟ »

فقالت المرأة - « أغرب أيها الصبي • ولتمض الى بيتك • »
ثم اتجهت الى الباب الامامي وفتحتة على مصراعيه حيث وجدت نفسها وجها لوجه أمام رجلين كانا على وشك الدخول • قال الأول وكان ذا وجه أحمر مشرق - « طاب مساؤك • • طاب مساؤك • »
ثم أردف قائلا وهو يلتفت نحو رفيقه الذي كان شابا شاحبا نحिला - « اذن فقد اتفقنا • هه ؟ ستكون « بينا » من نصيبي ان لم يكن هناك من يشغلها • • ولتعفنا من أية مناقشة حول هذا الموضوع • »

فقال الآخر : اتفقنا ؟ •

ثم استفسر الرجل المرح المرأة قائلا وهو يشير الى آجوستينو « وماذا يفعل هذا الصغير هنا ؟ »

فقلت المرأة : « انه يريد الدخول . »
وارتسمت على شفيتها ابتسامة متعلقة .

فصاح الرجل ملتفتا الى آجو ستينو وهو يقول - « اذن فهل أردت الدخول ؟ المنزل فى هذه الساعة هو المكان المناسب لمن كان فى مثل سنك » .

ثم صاح قائلا مرة أخرى وهو يلوح بذراعيه هنا وهناك :
« فلتمض الى منزلك . »

فقلت المرأة - « هذا هو ما قلته له . »

فعلق الشاب قائلا - « ولم لا ندعه يدخل ؟ فقد كنت أضاجع الخادمة وأنا فى مثل سنه . »

فصاح الآخر مصدوما لقول رفيقه : « يا لله ! امض الى البيت . . البيت . . البيت ! » ثم دخل يتبعه الرجل الاشقر من خلال الباب المزدوج الذى صفق خلفهما . ووجد آجو ستينو نفسه فى الحديقة وهو لا يكاد يدرى كيف وصل الى هناك .

يالها من نهاية سيئة ! فقد خانه تورتيما الذى استولى على كل نقوده . ثم ألقى به الى الخارج . ولما لم يكن يدرى ماذا يفعل فقد سار فى ممر الحديقة وهو لا يفتأ ينظر خلفه الى الباب الموارب والمظلة والى واجهة المنزل الذى أغلقت مصاريع نوافذه البيضاء . وخالجه احساس محرق بالحيرة وخاصة بسبب هذين الرجلين اللذين عاملاه كطفل صغير . فقد كانت ضحكات الرجل المرح وأريحية رفيقه التجريبية الباردة لا تقلان مهانة وتحقيرا عن استهجان المرأة لهما فى بلادة . ظل يمشى الى الخلف وهو ينظر حوله الى أشجار الحديقة وشجيراتهما حتى بلغ البوابة . ولكنه رأى عندئذ أن الجانب الايسر من الفيلا كان مضاء بنور قوى بدا له أنه ينبعث من خلال نافذة مفتوحة فى الطابق الأرضى . فخطر له أنه يمكنه ، على الأقل ، أن يلقي نظرة على داخل الفيلا من خلال هذه النافذة . فاتجه نحو الضوء متحاشيا قدر امكانه ان يحدث ضجة .

كانت هناك فعلا نافذة مفتوحة على مصراعيها في الطابق الأرضي كما خيل له . ولم تكن مرتفعة القاعدة . فاتجه اليها رأسا في هدوء شديد محاذيا الزاوية حيث لا يحتمل أن يراه أحد وتطلع الى الداخل .

كانت الغرفة صغيرة ساطعة الاضاءة وقد اكتست جدرانها بورق يحمل رسما جميلا لازهار كبيرة خضراء وسوداء . وقد بدا أن ستارا أحمر في مواجهة النافذة كان معلقا في حلقات خشبية على قضيب من النحاس كان يحجب الباب عن الأنظار . لم ير في الغرفة أثاثا ما . ولكن ثمة شخصا كان يجلس في ركن منزو بالقرب من النافذة اذ أمكنه أن يرى ساقبيه المعقودتين وقد انتعلتا حذاء أصفر ومدتا على أرض الغرفة وخيل لآجو ستينو أنهما لا يبد أن تكونا لشخص مستلق على متكأ . ولما خاب أمله في رؤية المزيد أوشك على مغادرة مكانه عندما رفعت الستار وظهرت احدى النساء .

كانت ترتدى عباءة طويلة من الشف الأزرق الباهت ذكرت آجو ستينو بقميص النوم الذي ترتديه أمه . وكانت شفافة تغطي جسدها كله حتى قدميها . وكاد مرأى أطرافها الطويلة الشاحبة من خلال تلك الغلالة يشبه مرآها وهي تطفو مسترخية في مياه البحر الصافية . ولغرابة في التصميم جفل لها آجو ستينو امتدت فتحة العنق في العباءة على صورة بيضاوية حتى كادت تصل الى الحصر . ومن خلال هذه الفتحة بدا ثدياها القويان المثلثان وكأنهما يحاولان الافلات . فلشد ما التصق كلاهما بالآخر تحت ضغط الثوب الذي تجمع حولهما عند العنق في طيات كثيرة دقيقة . وكان شعرها الكستنائي الموج مرسلا في حرية على كتفيها وقد جمع وجهها الكبير الشاحب المستوى بين الطفولة والخبث في نفس الوقت وارتسم تعبير هوائى غريب في عينيها المتعبتين وعلى فمها الذي امتلأت شفثاه وعلاهما الطلاء . وأقبلت من خلال الستار وقد وضعت يديها خلف ظهرها وبرز صدرها الى الامام ثم وقفت لحظة في سكون تام دون أن تنبس ببنت شفة على هيئة انتظار وتوقع . وبدا أنها تنظر في الزاوية حيث كان الرجل مستلقيا وقد انعقدت

ساقاه الممدوتان في وسط الغرفة . ثم استدارت واختفت في صمت كما جاءت تاركة الستار مفتوحة على سعتها . وما لبثت ان اختفت ساقا الرجل في الحال عن عيني آجو سستينو . وعندئذ سمع شخصا ينهض فانسحب بعيدا عن النافذة في انزعاج .

عاد الى الممر ودفع بوابة الحديقة ثم خرج الى الساحة يخالجه احساس حاد بالحيرة لفشل محاولته كما خالجه في نفس الوقت شعور يقارب الفزع مما ينتظره في الايام المقبلة . اذ ان شيئا لم يحدث فلم يضاجع امرأة وهرب تورتيفا بكل ما يملك من نقود وغدا تعود من جديد نكات الصبية القديمة نفسها وعذاب علاقته بأمه . فقد كانت تفصل بينه وبين ذلك العمل الذي سيكتب له الحرية أعوام وأعوام من الفراغ والحيرة . وكان عليه في تلك الاثناء أن يواصل حياته تماما كما كانت من قبل . وما أن خطر له في مرارة أن كل ما كان يعلق عليه آماله قد صار استحالة محققة حتى تمردت روحه من أعماقها . وعندما عاد الى المنزل دلف الى الداخل دون أن يثير ضجة ما . وهناك رأى في البهو حقائب الزائرة وسمع أصواتا في غرفة الاستقبال فصعد الدرج واستلقى على سريره الصغير في غرفة أمه . وما كاد ينزع ملابسه في الظلام ويلقى بها على الأرض حتى دخل فراشه عاريا بين الملاء

وما لبث أن تسلل اليه النعاس ثم استغرق أخيرا في سبات عميق . وفجأه استيقظ في فزع . كان المصباح مضاء يلمع نوره على ظهر أمه التي ارتدت عباءة النوم ووضعت ركبتيها على الفراش وهي تهتم بالدخول فيه . فقال فجأة في صوت مرتفع يكاد يبلغ حد العنف - « أماه »

فأقبلت عليه أمه تسأله قائلة - « ماذا هناك ؟ ماذا هناك يا عزيزي ؟ » كانت عباءتها شفافة ايضا كعباءة المرأة في الفيلا ومن خلالها ظهرت لعينيها معالم جسدها وظلاله الغامضة كما ظهر من قبل ذلك الجسد الآخر . قال آجو سستينو بنفس

الصوت الساخط المرتفع محاولا أن ينظر الى وجه أمه لا الى جسدها - « أريد أن أرحل غدا . »
فجلست أمه على الفراش ونظرت اليه في دهشة قائلة :
« ولكن لماذا ؟ . . ماذا دهاك ؟ ألسنت سعيدا هنا ؟ »
فردد قائلا - « أريد أن أرحل غدا . »

فقالت أمه وهي تمر بيدها في رقة على جبهته وكأنها تخشى أن يكون محموما - « فلنر ماذا هناك ؟ ألسنت على مايرام ؟ لماذا تريد الرحيل ؟ »

لشد ما كانت تذكره عباءة أمه بثوب تلك المرأة في الفيلا ، فقد جمعت بينهما نفس الشفافية ونفس ذلك البدن الشاحب المدعن المسترخى . ولم يكن ثمة فارق سوى تغضن عباءة النوم مما أضفى على تلك الصورة مزيدا من الألفة والسرية . وهكذا خطر لآجو ستينو أن صورة تلك المرأة لم تكن تأبى فحسب أن تكون ستارا بينه وبين أمه كما كان يرجو بل بدا له فعلا أنها تؤكد انوثتها وتبرزها . وعادت تسأله قائلة - « ولماذا تريد أن ترحل ؟ ألا تحب أن تكون معي ؟ » فقال آجو ستينو فجأة دون أن يدري لذلك سببا - « انك تعامليني دائما كطفل . »

فضحكت أمه وربتت على خده قائلة - « حسنا . سأعاملك من الآن فصاعدا كرجل . . فهل يرضيك هذا ؟ ولكنك الآن يجب أن تنام . فقد تأخر الوقت للغاية . »

ثم انحنى فوقه وقبلته . وعندئذ أطفأت النور ثم سمعها آجو ستينو وهي تأوى الى فراشها . ولم يسعه الا أن يحدث نفسه قائلا قبل أن ينام - « كرجل » ولكنه لم يكن كذلك . ما أطول وما أشقى تلك الفترة التي يجب أن تمر قبل أن يصبح رجلا .

تمرد

- ١ -

عاد لوقا الى البلدة التي كان يعيش فيها بعد قضاء العطلة في المصيف المألوف وهو يحس باعتلال صحته وبأنه في الواقع لن يلبث أن يسقط صريع المرض . وكان قد ازداد نموه أخيرا بسرعة غير طبيعية حتى صار ارتفاع قامته وهو في الخامسة عشرة من عمره مساويا لقامة الرجل الراشد . ولكن كتفيه ظلتا ضامرتين نحيلتين . كما بدت عيناه لحدتها الهائلة المفرطة وكأنهما تستنفدان جبهته الشاحبة ووجنتيه النحيلتين من رقعة وجهه الابيض . ولو أنه كان على علم بحالته الصحية المعتلة وبما يكتنفها من أخطار فربما التمس الى والديه أن يسمحا له بقطع دراسته ولكنه - كما يحدث عادة في هذه السن عندما يستيقظ الاحساس ويظل الوجدان نائما - لم ينجح في إيجاد علاقة ما بين حالته الصحية المتخاذلة وبين ذلك النفور العميق الذي تثيره الدراسة في نفسه .

كان لوقا يواظب دائما على الذهاب الى مدرسته وقد بدا طبيعيا أن يواصل الذهاب اليها ، حتى ولو بدت أمامه أحيانا الاشياء التي ينبغى عليه أن يتعلمها غير موزعة بطريقة منظمة على أيام السنة الدراسية وشهورها بل مكدسة كلها في صورة كتلة شديدة الانحدار لا سبيل الى ارتقائها كالجبل الذي لا تتيح جوانبه الملساء للمتسلق أن يثبت قدمه أو يده . لم تكن تعوزه الارادة بقدر ما كان يفتقر الى دفعة بدنية أو جلد جسماني لم يمكنه أن يحدد كنهه . وكان يخيل له أحيانا أن جسمه ينهار من تحته كالحصان المرهق الذي انطفاأت عيناه من الاعياء بينما لا يفتأ راكبه ينخسه عبثا .

ومع ذلك فطالما تمرد جسده هذا على غير توقع منه ولم يكن ذلك في مواجهة واجبات ثقيلة بل لاسباب تافهة لأهمية لها . حينئذ كان لوقا يتعرض لنوبات فجائية عنيفة من الغضب يبدو له فيها أن جسده وقد انتابه الإرهاق الشديد أخذ يستهلك البقية الباقية من قوته في نوبات من النفور والكرهية كان الباعث عليها أكثر من أى شيء آخر تلك المقاومة الخرساء الجامدة التى يلقاها من أشياء عديمة الحياة أو الأخرى أنه كان يصاب بهذه النوبات المدمرة لعجزه عن استخدام تلك الأشياء بغير عناء أو أذى . كأن يتعذر عليه مثلا ادخال قدمه في نعل ضيق أسىء توثيق رباطه . أو أن يفوته الترام في اللحظة الأخيرة بعد تعقبه مسافة طويلة وهو في طريقه الى المدرسة . أو أن تنقلب المحبرة بحركة سريعة من يده على كراسة التمرينات مما يضطره الى إعادة نسخ الصفحة بأسرها . أو أن يرتطم رأسه أثناء نهوضه بزاوية القمطر على صورة مؤلمة غير متوقعة بعد التقاطه كتابا كان قد سقط على الأرض . كانت مثل هذه السخافات خليقة بأن تجعله يستشيط غضبا فتنتطلق من فمه اللعنات ويطحن أسنانه ويبلغ به الغضب أحيانا أن يضرب بقبضته زاوية القمطر في صبيانية أو يلقي بالمحبرة على الأرض أو ينخرط في نوبة عنيفة من البكاء فيبدو كأنما غمة هائلة قديمة قد وجدت في بكائه متنفسا لها . كان يحس أن العالم يعاديه وأنه يعادى العالم وأنه مشتبك مع بيئته في حرب مستمرة لا تفتأ تحطم أعصابه .

وفي ذلك الصيف أثناء أقامته بالمصيف بلغت ثورة الأشياء الجامدة وعجزه عن حبها أو السيطرة عليها أقصى مداها . وثمة حادث بالذات من بين الحوادث الأخرى قد أثبت الى الأبد وجود ذلك العداء المتبادل بينه وبين عالم الحقيقة . كان لوقا ميكانيكيا ماهرا وكان أهل المنزل يستدعونه دائما كلما طرأ خلل فى الكهرباء . فقد انطفأت أضواء المنزل ذات مساء بسبب قصر فى دورة التيار الكهربائى . وما كاد لوقا يسمع صوت أمه وهى تناديه خلال الغرف المظلمة حتى

سهرول اليها حاملا أدواته . ولكنه ما كاد يعيد الحياة الى التيار الكهربائى حتى أخذ يقطع فجأة مطلقا الشرر بين أصابعه وقد سرى فى جسده بأكمله ولعله لم يحتط لنفسه برفع قدميه عن الأرض أو لعله لم يلحظ أن الاسلاك قد تم الاتصال بينها قبل توقعه ذلك : فأخذ يصيح مشددا فى نفس الوقت قبضته على الاسلاك والمحول وقد ضاعفت الصدمة من قوة قبضته عن طريق رد الفعل الطبيعى . وأخذت أمه تحوم وهى مذعورة لاتدرى ماذا تفعل بينما يصيح لوقا والتيار الكهربائى لا يفتأ يتذبذب خلال جسده بقوة خبيثة بدت له كأنها لا تنبعث من الاسلاك بل من ذلك العالم الغامض المعادى بأسره - ذلك العالم الذى كان يكرهه على الرغم من جهله به . وأخيرا وبعد فترة طويلة من الحيرة والارتباك ذهب شخص ما الى لوحة الاكباس الرئيسية حيث قطع التيار . وما أن أطلق سراح يديه حتى ارتمى لوقا بين ذراعى أمه وأخذ ينشج بالبكاء . ولم تدر أمه لماذا كان يمثل هذا اليأس وضمته اليها فى آلية وهى تربت على رأسه . وظل يبكى طويلا وقد انتابت الرعدة جسده كله يراوده فى نفس الوقت احساس مرير بأن حنان أمه لم يعد يقيه أو يخفف عنه كما كان يفعل من قبل . وقد تبين فيما بعد عندما أضيء المنزل مرة أخرى أن الصدمة الكهربائية قد أحدثت حروقا عميقة فى ثلاثة من أنامل يده . وكان أثر الاسلاك أو الكهرباء نفسها أن جاز هذا التعبير واضحا للعيان على شكل محرز شبيه بوميض البرق الدقيق .

وعند عودته الى بلدته بعد انتهاء العطلة الصيفية انتابته قبل وصول القطار بقليل نوبة أخرى من الغضب . فقد استيقظوا يومئذ مبكرين وأفطروا على عجل فى المنزل العارى بين حقائبهم الكبيرة والصغيرة . وفيما كان لوقا يجرع قدحا من اللبن السيء الملون ببديل للقهوة قالت له أمه - « تزود بفظور دسم لان الغداء يتأخر دائما فى عربة الطعام » . ولم تلبث فكرة الغداء فى عربة الطعام أن بعثت البهجة فى نفسه فى الحال وذلك لانه لم يرها قط من قبل . وأحس أنه سوف يجد متعة فى الجلوس الى إحدى تلك الموائد الصغيرة الدقيقة لتناول

طعامه وكان يلوح هذه الموائد احيانا من خلال نافذة القطار عندما يقف في نفس المحطة قطار آخر . وخيل له أن الخبز والحساء واللحم لشد ما يختلف مذاقها حين يتناولها على مائدة حقيقية صغيرة وبسكاكين وشوكات وأطباق يقدمها السقاة بينما يمضي المنظر الطبيعي مسرعا أمام عينيه أثناء تقدم القطار في رحلته الجريئة . وفضلا عن ذلك فلشد ما كان لوقا حساسا ازاء رأى الآخرين وازاء شكليات السلوك اللائق . فكان يمقت من كل قلبه تلك الوجبات التي يتناولها المسافر على ركبتيه في عربة القطار بين قصاصات الورق القذرة وقشر الفاكهة وبقاياها بينما يكون الطعام الدسم البارد مهصورا في شطائر فاعرة . وخلال هذه الوجبات يوجد دائما من ينتظر الذهاب الى عربة الطعام فينظر في رضا عن نفسه ونفور من الاسرة المجتمعة في تحفز حول حقائب الورق . ولم ينقصهم هذا الشاهد أثناء رحلتهم الى المصيف اذ وجد في شخص سيدة عجوز أنيقة بدا عليها الاحتقار . . فألفى نفسه خجلا من تناول الطعام وخجلا من خجله في نفس الوقت . وغلبه احساسه بالمهانة فلم يكديلمس الطعام .

أحس بالراحة لعدم اضطرارهم الى فض الاوراق الملونة بالدهن لالتهام ما تحوى من شطائر . وظل جالسا في هدوء ينظر الى الريف مسافة طويلة . وأخيرا جاء النادل لحجز الاماكن في عربة الطعام ولكن أباه لم يتناول منه البطاقات . وخيل للوقا أنه ينتظر الدور الثاني وظل يتطلع من خلال النافذة . ثم سمع أباه وهو يقول :

« يمكننا قبل كل شيء أن نبتاع سلال الغداء عند « أورفيتو » . . فهي أرخص بكثير وبها أصناف تفضل ما يقدمونه لك في عربة الطعام » ولم يكشف عن احساس معين بالذات وهو يفوه بهذه الكلمات . فأحس لوقا أنه لم يصدر في قراره هذا عن شح بل عن ادراك سليم فحسب . كما لم يبد غريبا في نظره أن تجيبه أمه التي كانت لا تفتأ تتصف بالمرونة أمام كل حجة تحبذ الاقتصاد قائلة في عدم اكتراث - « كما تشاء . . مع أنني كنت أفضل بلا شك الذهاب الى عربة الطعام حتى لا تتسخ أصابعي على الاقل . . » كان في الواقع

اتفاقا بين شخصين حول موضوع لا أهمية له . فقد استمرت المناقشة في الحقيقة دقيقتين أخريين بطريقة هادئة لطيفة وانتهت بفوز أبيه فوزا كان على أية حال رقيقا للغاية حتى بدا أشبه باللقاء عقليتين متقاربتين عند نقطة تقاطع بين طريقين متماثلين . ومع ذلك فلشد ما غضب لوقا رغم ادراكه أن القرار لم يتخذ عن حقد قبله .

ولشد ما ساء في ذلك أنهما لم يسألاه رأيه وأنهما عاملاه كما لو كان جمادا لا اختيار له أو أفكارا أو ميولا أو رغبات . وأحس في نفس الوقت بخيبة أمل عميقة زاد من إيلاهما وفجيعتها أنه كان فرحا للغاية بفكرة تناوله الغداء في عربة الطعام . ولكن ثمة شعورا آخر بالاستياء لم يبد نابعا من مصدر معين بالدقة أو منبعثا من هذه الازمة بالذات أضيف إلى كل تلك الاحن : ألا وهو غضبه المعهود الذي كان لا يفتأ ينتابه كلما أحس بالثورة والتمرد من جانب الأشياء والناس عندما تعترض سبيل ارادته . وكان يخيل له أن هذا الغضب ينبعث من مكان بعيد ثم لا يلبث أن يتأجج فجأة كالسعر فيسـعفه لهيبه ويهزه من أعلى رأسه إلى أخمص قدمه . فأبيض وجهه وجز على أسنانه بقوة ثم أغمض عينيه . وأحس بكيانه كله يتصلب من شدة الغضب الذي توتر له جسده . . . وشعر لحظة بقوة تدفعه إلى أن يفتح الباب ويلقى بنفسه من القطار . ولم يفزعه هذا الاغراء بالانتحار أو يبد له سخيلا بل كان كما أدرك ذلك متنفسا طبيعيا لما اجتاحه من شعور غاضب بالعجز . ثم عاد ففتح عينيه ونظر إلى والديه . فخيل له أنه يراها لأول مرة وكأن هذا الغضب قد نحت ملامحها بطريقة جديدة تماما كما يفعل الضوء القوي العنيف . . فبدت أمه شقراء نحيلة ذات وجه جاد حاد الزوايا أضفى عليه أنفها الكبير وفمها المطبق مظهر السطوة والحكمة . كما بدا أبوه أشقر أيضا ولكن تميز بالرقرة والاستدارة والملاح غير المحددة التي تنبئ بطيبة الطبع . فأحس لأول مرة بصلاية أمه وسيطرتها وحسن ادراك أبيه ورقة قلبه كأنها أشياء ليست فقط خارجة عنه بل معادية له في الواقع ، أشياء لم يمكنه أن يصل معها إلى تفاهم . وكانت تنبعث من مصادر بعيدة ليس

في مقدوره مطلقا ان يتحكم فيها . ولقد أدرك بلا شك أنه لو أبدى رغبته في وضوح لرحبا بها في الحال . وربما عارضته والدته التي تكره العدول عن قرار اتخذته ولكنها لن تلبث أن توافق . غير أنه أدرك أيضا أنه مهما كان الثمن فلن يقبل أن يرغمهما على شيء بدا له أنهما لا يكثران له . وفضلا عن ذلك فان رغبته هذه بدورها لما كانت مضحكة وغير جديرة بالاعتبار فقد ملأته عندئذ بنوع من الغضب . وعلى أية حال فسواء تناول غداءه في عربة الطعام أو في صالون القطار فان ذلك لم يكن له أهمية بقدر احساسه أن والديه قد خلقا من نفس الطينة المعادية المتحدية التي كان يحس بها في الاشياء الاخرى وبالتالي فانه لم يمكنه احتمالها شأن الاشياء الاخرى رغم كل الحب الذي يكفانه له .

ومع هذا فعلى الرغم من تلك الخواطر لم يفارقه شعوره بالغضب . فلشد ما أحس بالنفور وهو يراقب أباه أثناء نزوله من القطار عند محطة « أورفيتو » لبيتاع سلال الغداء ويعود بها لاهتا الى الصالون . أغلق والده الباب بعناية وجذب مائدة التطبيق الصغيرة التي كانت مثبتة أسفل النافذة ثم وضع عليها السلال الثلاث . وسأل لوقا يحدوه ذلك الجزع الظاهري المشوب بشيء من الحزن الذي كان معهودا فيه قائلا : « هل أنت جائع يا لوقا ؟ أتحب أن تتناول الغداء في الحال ؟ أم تفضل الانتظار قليلا ؟ » . فأجابه قائلا دون أن يدير رأسه : « أنى على استعداد وقتما تشاء » .

وتحرك القطار مرة أخرى . وبدا له أن منظر الريف وهو يمضى مسرعا تحت بصره قد خفف لحظة من استيائه . ولكن نوبة جديدة من الغضب لم يدرك مصدرها انتابته مرة أخرى . ولما لم يستطع السيطرة على نفسه فقد نهض وغادر الصالون . وأتجه رأسا الى دورة المياه حيث دخل صافقا الباب خلفه في غضب . وهناك وجد مرآة معلقة فوق الحوض فدفع بوجهه قريبا منها فاغرا فاه على سعته وكأنه يصرخ رغم أنه في الحقيقة لم ينبعث من حنجرتة صوت ما . ومع ذلك فقد

أحس أنه يصرخ بلا صوت بكل كيانه المرتعد . عندئذ كان القطار يهتز ويتأرجح في عنف وهو يعبر التحويلات الصاخبة مجموعة في أثر مجموعة . كان كل ما في هذا المكان الضيق المحدود يجلجل ويصر . . . اطار الربط في العربة وزجاج النوافذ في تحويفه والحاشية النحاسية المحيطة بالزجاج والقذح المعلق في مقبضه والارضية التي لم تفتأ تتراقص صفائحها الحديدية المتحركة ويصطدم بعضها ببعض . وقف لوقا هناك فاعرا فاه يراوده احساس بأنه يصرخ بصوت أعلى من ضجيج القطار بينما خيل له أن غضبه المحتد هو القطار نفسه الذي لا مناص له من أن يخرج عن قضبانه في لحظة من اللحظات ثم يندفع من فوق الجسر حيث يهوى حطاما على سفح التل . مكث هناك على هذه الصورة فترة وجيزة متوترا متصلبا . ثم فتح الباب مرة أخرى وعاد الى الصالون . وكان والده قد فض سلال الفداء وأخذ يخرج أرغفة الخبز ويضعها على جريدة نشرها على ركبتيه .

قال وهو يقدم أول رغيف الى لوقا : « هاك واحدا » . ثم استدار نحو زوجته وأردف قائلا : « أترغبين الان في تناول قليل من النبيذ ؟ ولكن ربما كان حريا بنا أن نأكل أولا ثم نشرب النبيذ بعد ذلك عندما تتخلص أيدينا مما بها . » كان والده لا يفتأ يتكلم في ببطء وكأنه يتقدم باقتراحات هزيلة يتوقع في استسلام تام أن تقابل بالرفض . تناول لوقا الرغيف المحشو باللحم البارد وقضمه في غضب . ثم أخذ يأكل في جهد وبلا شهية مشيحا بوجهه في عناد تجاه النافذة . وكان يبلغ سمعه من داخل الصالون خلف ظهره حفيف حقائب الطعام أثناء فضاها وكذلك تمتمة أبيه وهو يقدم شيئا أو يعلق على شيء وقد امتلأ فمه بالطعام أو تمتمة أمه وهي تجيبه بكلمات قصيرة . وما أن فرغ من تناول طعامه حتى أحس وكأنه قد غص به . ولم تهداً تأثرته عن ذي قبل بل ظلت كما هي ولكن حالة التوتر المستمر لم تبرح تؤلمه بنفس الدرجة ولو أنها صارت أقل عنفا وشدة .

لقد بدا له وكأن جسده كله ظل خدرا وعقله لم يفارقه الارتباك . فأخذ يحملق في المنظر الطبيعي دون أن يراه وكان

ذلك عندئذ في الريف المجاور لمسقط رأسه . واحس في معدته
بثقل الطعام الذي تناوله وكأنه طرد كبير أحكم شده وطوى في
ورق عازل للدهن وقد ملئ بفتات لم يمضغ الا قليلا . كان
أشبه ما يكون بحقائب الورق المملوءة بالنفاية التي تلقى بها
ربات البيوت من النوافذ الى القطط في الطرقات . وسألته
أمه عما به وهي تمر بيدها على جبهته لتسوى شعره الذي
عبثت به الريح . وما كاد يحس بالارتياح للمس يدها الخفيفة
الباردة يصاحبه رغم ذلك شعور بالغثيان ملأ فاه باللعب حتى
أدرك أنه مريض .

وعند وصول القطار لم يعره أبواه انتباها لانشغالهما
بانزال الامتعة من القطار . ولكنه أدرك فجأة وهم يسرون
على رصيف المحطة بجانب القطار الساكن وسط زحام
المسافرين أنه لن يلبث حتما أن يقى قبل أن يقطع مسافة
كبيرة . عندئذ اشتد شعوره بالغثيان فأحس بمذاق حامض
في فمه وبحافز لا سبيل الى السيطرة عليه يدفعه لان يفتح
فاه . ومروا في طريقهم باحدى عربات القطار ثم بثالثة .
وكان الناس يهبطون من العربات في بهجة ونشاط مخلفين
وراءهم في الصالونات الخاوية فتات الخبز وقصاصات الورق
وأعقاب السجاير والزجاجات الفارغة . أما العربة الرابعة
فكانت خاوية تماما وقد فتحت أبوابها جميعا على مصاريعها .
ثم بلغوا بعد ذلك القاطرة بمرجلها الامامي وقد امتلات كلها
بالمقايض والانابيب بينما توهجت فوهة الفرن بانعكاسها على
الحديد الاسود . ووقف سائق القاطرة بوجهه الملوث بالدخان
والشحم يتطلع الى الناس وهو يلتهم في شهية عظيمة نصف
رغيف حشى بشيء بدا لعيني لوقا وكأنه نوع من الوحل اختلطت
فيه الحاضرة بالصفرة ، وكان ما به عجة بالسببانخ . وما
كاد يقع عليها بصره حتى اشتد احساسه بالغثيان كأن تيارا
من الجاذبية المتعاطفة كتلك التي تشد الصلب الى المغناطيس
قد وجد فجأة بين الوحل الذي يلتهمه سائق القاطرة في نهم
شديد وبين ذلك الوحل الاخر الذي كان يتخمر في معدته .
وكانوا عندئذ قد بلغوا مقدم القاطرة حيث توجد طاسات
التصادم فاتكأ على أحد الكشافات الامامية وقاء على تلك الالة

الضخمة التي يتصاعد منها البخار . وسمع أمه تقول في صوت لشد ما بدا له هادئا - « كنت أعلم أنه ليس بخير » . وأحس في الوقت نفسه بيد ترفع رأسه الى أعلى . ولم يفتأ والده يردد قائلا بلهجة تنبئ بالطيبة « بسـيطة .. بسـيطة » . أما لوقا نفسه فقد انتابه الغضب وراوده حزن عميق لم يدر كنهه فأجهش بالبكاء في صوت مرتفع وقد بدا له أثناء انقياده لهما حزينا باكيا وأمه تقول له بصوت غاضب - « لم تبكى ؟ .. أتبكى وأنت تناهز سن الرجولة ؟ » - بدا له أن قيأه على القاطرة كان على صورة ما عملا انتقاميا من القطار الذي أعاده في قسوة شديدة الى بلدته ومدرسته ودروسه بنفس الطريقة التي رفض بها أبوه في صرامة الذهاب الى عربة الطعام .

- ٢ -

وما كاد يعود الى منزله - حيث ذاب الكثير من مظاهر تمرده السابقة في دوامة العادة أو من شدة الملل - حتى اتخذ شكلا مغايرا لم يعهده من قبل وكأنه قد أدرك عبث العنف فاستحال فجأة الى رغبة في أنكار الذات والاستسلام . لقد كانت هي نفسها تلك الرغبة القديمة المتمردة ولكنها بعدما اكتسبت من خبرة على أثر الهزائم التي منيت بها فقد تحولت طبيعتها نتيجة لذلك الى شيء خفى سلبي . ولم يكن لوقا على علم بالمصطلحات المستعملة للحرب الاجتماعية . ولو كان ملما بها لتعرف بسرعة في ذلك الشكل الجديد الذي اتخذته ثورته على الدنيا على خصائص الاضراب . فان جسده لم يعد يتوتر في نوبات الغضب المدمرة بل صار يسترخي كوتر الكمان الرخي الذي يبدو وكأنه لا سبيل الى شدة مرة أخرى . فكثيرا ما كان يستغرق في النوم لغير ما سبب خلال ساعات الاصيل الطويلة التي كان يقضيها في غرفته جالسا الى منضدته رغم استمتاعه في الليلة السابقة بنوم عميق . وكان نومه هذا أسود خاويا لا تتخلله الاحلام بل أقرب الى حالات الشرود منه الى النوم . كان يفاجئه أثناء قراءته عبارة مطبوعة أو صفحة مكتوبة ولم يكن يجديه أن يقول لنفسه « سأفرغ من قراءة هذه القطعة أو كتابتها ثم أنام » . بل كان لا يسعه الا أن ينهض عن المنضدة

ثم يجر نفسه جرا عبر الغرفة الى فراشه حيث لا يكاد يرقد حتى يستغرق في النوم . وكان عندما يستسلم لهذه النوبات الفجائية الثقيلة من الخمول يراوده ذلك الرضا الانتقامى الذى أحس به وهو يقىء على القاطرة عند عودته من العطلة الصيفية . وقد أدرك أن هذا الرضا كان له طابع مدمر فهو تعبير عن عدائه للعالم . كان نومه هذا أشبه بعقد الذراعين علامة على الاستسلام مادام عاجزا عن رده . ولو كان قد تعرض قبل ذلك لمثل هذه النوبات لبذل جهدا عنيفا في مقاومتها حتى اذا ما أعيته الحيل في النهاية انتابه الجزع وأبلغ بها والديه كما تعود دائما أن يفعل كلما خيل له أنه مريض — ولكنه بدا الان وكأنه يكتشف وجود غرض ما وراء هذا الرضا حيث كان فى الماضى لا يرى فيه سوى الضعف . وبانقياده لهذا الغرض صار يحلو له أن ينفذ عن نفسه كبرياءه السابقة كطالب علم . . . تلك الكبرياء التى اصبحت الان مجرد عبء لاجدوى من ورائه . كما صار يحلو له وقد انتابه عدم الاكتراث أن يستسلم لتيار الزمن وهو يتدفق بالدمار فوق رأسه الذى أضحى الآن مغمورا تماما تحت السطح . ومع هذا فان استسلامه الجسمانى قبل كل شىء لم يكن سوى اشارة غامضة الى طريق فى امكانه أن يتابعه أو يتركه . وبدا له فجأة أنه مادام قد قبل مبدأ الجمود فيمكنه كذلك أن يشجعه ولو لاقتناع نفسه فحسب بأنه حر فى تصرفه وليس مرغما على شىء . ولذا فانه لم يستسلم فقط لهذه النوبات من الخمول ولم يمتنع فقط عن احاطة أبويه علما بها بل أخذ يشجعها فعلا بشتى الطرق . فكان يعتمد قراءة فقرات طويلة مملة أو يركز انتباهه على كتابة تمرينات لاثير اهتمامه . ثم لا يكاد يشعر بثقل جفونه وبنوبات القشعريرة المنذرة تسرى فى ظهره حتى ينهض ويتجه الى فراشه ليرتمى عليه . وكان يحس وهو فى وضعه هذا خافض الرأس رافع القدمين وكأن النوم قد أمسك به من شعره ولم يفتأ يمتصه الى أسفل وكأنه نوع من الطين اللذيذ الذى يتميز بقدرته على الاستبقاء ، وكان يبدو له وهو فريسة لهذا الاحساس بالهبوط كأن رأسه قد ملئ بمادة ثقيلة معتمة بينما تتأرجح قدماه فى أعلى خفيفتين خاويتين . وكان

لا يفتأ يردد قائلاً لنفسه : « كان يجب أن أعمل . . كان يجب أن أترجم . . كان يجب أن أقرأ . . » بينما يخيل له في نفس الوقت وقد راوده احساس بالرضا أن استعمله هذه الصيغة كان يعنى أنه لن يقرأ ولن يترجم ولن يؤدي عملاً ما على الاطلاق ويظل يحدث نفسه على هذه الصورة حتى يستغرق في النوم رويدا رويدا .

ولكن النوم لم يكن سوى وسيلة الى غاية فلم يكن في وسعه أن يظل دائماً مستغرقاً في النوم . ولما كان الهدف النهائي هو التمرد على حفظ دروسه فإنه ما لبث أن بحث عن طريق جديد لتحقيق هذا الهدف . وفي التو استثاره هذا البحث وكأنه عمل لا شبهة فيه . لقد ألف في الماضي أن يثوب الى منزله عقب دروسه المسائية يحدوه صدود شديد وهو يفكر بنفور عميق في ساعات العمل التي تنتظره في المنزل . أما الان وقد صار همه من الناحية الاخرى هو تجريد عمله من طابعه الالزامى وابعاد كل أهمية عنه فقد ألقى نفسه يترقب دنو هذه الساعات يحدوه شعور شكس حي بالضجر ونفاد الصبر وكأنه مقبل أخيراً على أداء عمل يتفق مع أعرق ميوله . فكان يغادر المدرسة ويودع رفاقه ثم يسير وحده في ببطء الى المنزل في تلك الساعة الحزينة التي يلفظ فيها النهار أنفاسه الاخيرة بينما لا يزال الليل بعيداً . كان يبدو له أن جميع الناس يغادرون منازلهم في تلك الساعة تدفعهم الى الخارج عتمة الشفق وكآبته . وكان مما يسره أن يكون هو على النقيض منهم عائداً ساعتئذ الى منزله . ولا تفتأ السماء تظلم من فوقه وهو يسير خلال الشوارع المقفرة في الحى الذى يقطنه . ثم يدخل المصعد فيحمله الى الشقة التي تكون عندئذ خالية الا من الخادم الهادى المسن الذى يلزم المطبخ . اذ أن أباه لا يزال في عمله وأمه تقوم بزياراتها . فيتسلل لوقا عندئذ الى الداخل يكاد يختلس الخطى نحو غرفته خلال العتمة المنتشرة في الغرف الاخرى دون أن يشعل الاضواء بينما يراوده شعور حزين أنه حيوان لم يتلاءم مع الحياة فانسل عائداً الى مأواه ليموت في هدوء . وهنا يضىء لوقا الغرفة ويغلق الابواب والنوافذ ثم يجلس الى منضدته الصغيرة . وهو على علم تام بما يتأهب

له . فيجلس الى المنضدة في رزانة تكاد تكون طقسية . وقد اختلف احساسه ونظرته اختلافا كبيرا عما كان يراوده قبل ذلك من ملل ونفور . وكان قد فكر في طريقة أخرى بالاضافة الى النوم لتجنب العمل أطلق عليها بلغته الخاصة « تمرينات تشتيت الفكر » وتنحصر هذه التمرينات في القراءة والكتابة الالية بينما يحاول جهد طاقته في نفس الوقت أن يبعد ذهنه تماما عما يكتب أو يقرأ . فمثلا كتاب التاريخ كانت فيه العبارة التالية « كانت الظروف السائدة في فرنسا وأوروبا لاتسمح بأن توجه الحكومة الفرنسية انتباهها الى طلب ملك أسبانيا . . » كان لوقا وهو يقرأ هذه الكلمات يتعمد أن يبعد انتباهه عنها بحيث يعزلها فتصير لغوا فارغا . وكان يخيل له بالفعل وهو يخرج هذه الالفاظ من فيه رويدا أنها لا تقفأ تتراجع في منظور مسطح يجلب الدوار ولا يبرح يتضائل حجمه تدريجيا كلوحات الحروف التي يستخدمها أطباء العيون لاختبار قوة الابصار . وعندما توشك الكلمات أن تختفي فوق أفق الفضاء الفسيح الذي تراجعت الى أقصى مداه اذا بها تقفز فجأة الى الامام في حروف متفرقة ضخمة الحجم ذات وقع مخيف : « كانت الظروف السائدة في فرنسا وأوروبا وقتئذ . . » وسر لاكتشافه أن الالفاظ ظلت أثناء حركتها الدائبة الى الوراء والى الامام مستغلقة على فهمه منعزلة عن كل معنى ومفتقرة الى كل إطار منطقي وأشد مواتا من الفاظ أية لغة مية على الرغم من تردد صداها في ذهنه مقطعا في أثر مقطع . ولكي يستوثق تماما من هذا الاحساس كان أحيانا يقرأ بصوت مرتفع فيلاحظ في رضا وسرور أن وقع الالفاظ لا يفسر معناها بل يزيدا سخفا . ولما كان يعلم أنه لا يحتاج الا الى مجهود طفيف من عضلات اذنيه ليبدو صوته غريبا منعزلا وكأنه يخرج من فم شخص آخر فانه كان يتلهم بتكرار نفس العبارة فيما يشبه نغمات الناي بصوت نسوي كهفي كصوت الفول قائلا : « كانت الظروف السائدة في فرنسا وأوروبا عندئذ . . » وكان هذا التمرين عادة ينتهي باستغراقه المعهود في النوم . وكان يحس بالنوم وهو يغشاه من قدميه زاحفا الى أعلى على صورة خدر لذيد في الساقين . فينهض ثم يتجه مترنحا الى الهراش

الذى يستلقى عليه . وتظل عيناه مركبتين على المنضدة حيث يرى ضوء المصباح ساقطا في غير ما جدوى على كتبه المهمله الى أن يستسلم لموجات النوم القاتمة التى تغمره فى طياتها . فينام ساعة أو اثنتين ثم يستيقظ . ويكتشف فى سرور أن الوقت قد فات وأنه لم يعد فى وسعه يومئذ أن يعمل أكثر من ذلك وأنه لن يعرف درسه فى اليوم التالى عند ذهابه الى المدرسة .

أما فى المدرسة فكانت هذه التجارب أيسر منالا وذلك لان فرق الطلبة واساتذتهم كانوا يبدون دائما فى نظره وكأنهم شيء غريب عنه . وكان لايفتا يكتنفهم منذ البداية أن جاز لنا هذا التعبير جو خاو من الحقيقة السخيفة التى لا يمكن قبولها . وكان من السهل عليه وهو جالس الى قمطره وأمامه كتاب مفتوح أن يملأ عينيه وأذنيه بنوع من الضباب الرقيق الذى يستحيل من خلاله صوت الاستاذ وهو يشرح الدرس الى متممة سحرية مجردة تخرج من فم عرافة عجوز سوداء ويتردد صداها مستغلقا على الافهام خلال غابة افريقية تسودها وحشة همجية . وكان يخيل له أن حديث الاحياء هكذا كان يبدو بلا ريب فى آذان الموتى . كما كان يخيل له أنه ميت وأنه يفتقد معنى الالفاظ وأنه يسمع اصواتا سخيفة غير مترابطة . وقد أدرك عندئذ أن عملية الانعزال هذه تمر بثلاث مراحل — اولها يسمع فيها الاشياء ويراها بوضوح طبيعى ولكن دون أن يفهمها . وثانيتها تدوب فيها الاصوات والاشكال ثم تختلط ولكنها تظل محسوسة . وثالثتها لايرى فيها شيئا أو يسمع شيئا اذ يستوعب ذلك الضباب الصامت كل شيء . وحدث ذات مرة اثناء احدى هذه التجارب أن سمع فجأة صوت الاستاذ وهو يسأله قائلا : « هل يمكننى أن أعلم فيم تفكر يامنسى ؟ » وود لو أجابه قائلا : « انى أتعلم كيف أمتنع عن التفكير . » ولكنه لم يزد على أن قال « أنا ؟ .. لاشيء » .

فعلق الاستاذ على رده قائلا : « هذا غنى عن البيان » . ولشد ما كان لوقا فيما مضى يحترم نفسه كما كان من بين خيرة الطلبة . أما الان فقد أصبح منذ بداية الفصل الدراسى الجديد من بين المتخلفين . وكان يحس تحت وابل اللوم

والتعنيف والتقارير السيئة بلذة خاصة ، فقد كان يبدو له أن هذا اللوم انما هو في الحقيقة مديح واطراء وأن هذه التقارير السيئة انما هي في الحقيقة تقارير حسنة طبقا للطريق الذي قرر عندئذ أن يسلكه . ولكن لم يسعه في نفس الوقت الا أن يحس بالمرارة العميقة ملء نفسه عندما يذكر أن حالته في المدرسة كانت لا تفتأ تتدهور يوما بعد يوم وأنه لن يلبث أن يفقد الامل من علاجها . وطالما تساءل عما يدعو به الى هذا السلوك . وقد اعترف أمام نفسه أنه ليس ثمة دافع لذلك سوى أنه أمر غامض يتعلق بالشرف، أمر سخيف بغيض سلبي تماما وبالتالي فانه لا يكاد يحتمل . كان يتساءل قائلا : « ماذا يدعوني الى ذلك ؟ » في تلك الاثناء كان الوقت يمضى وسط هذه الصراعات .

- ٣ -

وفي اثناء ذلك الفصل الدراسي وجد لوقا بمحض الصدفة الجواب على سؤاله : - « ماذا يدعوني الى ذلك ؟ » عن طريق حادث تافه للغاية .

فقد حدث ذات صباح - لمرض ألم بالأستاذ - أن انتهت الدروس قبل الموعد المعتاد بساعتين . وما ان خرج لوقا الى الشارع المواجه للمدرسة حتى جاءه فتى انسحب من بين جماعة أخرى من الفتيان وقد حمل بين ذراعيه كرة قدم - وكان هذا الفتى يدعى « فيرجينيو » وهو اسم غير مألوف وكان لوقا لا يحبه بسبب مظهره الجسماني بصفة خاصة . فقد كان مفرطا في بدائه ولا يفتأ يلهث ، كما كان لا يرى في نفس الوقت الا مشغولا بشيء ما . وثمة زغب ناعم خفيف كان يظلل شفته العليا ووجنتيه . ولكن ملامحه كانت تائهة في شحبه تحت الزغب مما جعلها تكاد تبدو ناقصة التكوين كلامح الطفل البشع . كما كان يتميز بشيء من الانوثة الغامضة مما جعله يلقب باسم « تريزينا » وهو اسم امرأة بدينة مشهورة . قال له في اهتمام وهو يلهث - « لقد كونا فريقين . . . وستكون المباراة بيننا في فيلا بورجيز Villa Borghese . . . ولكننا في حاجة الى حارس للمرمى . . . فهل يروقك أن تأتي معنا ؟

كان لوقا رغم شغفه الشديد بكرة القدم لاعبا دون المتوسط وقد أدرك في الحال أن توجيه الدعوة اليه من ذلك الفتى البدين وهو منظم النشاط الرياضي المعترف به في الفرقة شرف لم يعهده من قبل مما يستوجب التقدير . فقلما كانوا يدعونه الى الانضمام اليهم . وكانت هذه فرصة ينبغي عليه أن ينتهزها لاختبار مؤهلاته الرياضية القاصرة . وقد رغب أول الأمر في قبولها بلا مناقشة . ولكن ثمة قوة غامضة في نفس الوقت غيرت الألفاظ في فمه فقال - « آسف . . اذ يجب أن أعود الى المنزل . . وربما أمكنني ذلك في فرصة أخرى . »

فلم يضع الفتى البدين وقته في مناقشة الامر . ولعله ندم بالفعل على دعوته اياه . ثم صاح موليا لوقا ظهره وامتجها نحو فتى آخر قائلا : « ماريو . . أتود أن تكون حارسا للمرمى ؟ »

ورأى لوقا هذا الفتى الأخير يتوقف ويتحدث اليه . ثم تحركت نحوهما جماعة اللاعبين وأحاطوا بهما . وبعد مناقشة قصيرة سار الجميع تجاه الحدائق . وعندئذ كانت الكرة قد انتقلت من بين ذراعي الفتى البدين الى ذراعي فتى آخر أسمر ضئيل أخذ يتمايل في مشيته معتمدا على ساقيه القصيرتين . ثم قذف بالكرة الى أعلى أمامه وركلها ركلة مدوية فطارت في الهواء . فتفرق الصبية هنا وهناك في وسط الشارع الرئيسي وفوق الأفاريز وهم يركضون نحو الكرة . وأوقفها أحدهم يقدمه ثم أخذ يدحرجها أمامه في حرص وحذر .

وكان الشارع الذي تقع فيه المدرسة طويلا مستقيما مقفرا وذلك لمناخمته للمصانع الكثيرة والأديرة والمصالح . سارت جماعة الصبية يومئذ في وضوح النهار في اوائل شهر نوفمبر على الاسفلت النظيف بين صفوف النوافذ وهم يتقاذفون الكرة فيما بينهم في وثبات صغيرة . ووقف لوقا ساكنا على مقربة من زاوية مبنى المدرسة وهو يراقبهم اثناء ابتعادهم عنه يراوده رضا مرير بدا أنه ليس جديدا عليه رغم أنه قد تعذر عليه أن يذكر المناسبة التي أحس فيها بنفس هذا الشعور . ثم تذكرها: كان هذا الرضا بالذات يثيره في نفسه تدهور حياته المدرسية وتمخض عن هذا الاكتشاف في ذهنه حشد من الخواطر السريعة

المتهبه التي تسلطت عليه . حتى بدا كالمذهول وهو يراقب لاعبي الكرة . لقد خيل له فجأة وكأن صباح قد ولى نهائيا والى الأبد وليس رفاقه . فهم لن يفتأوا يلعبون الى الأبد في حدائق الفيلا بينما يظل هو دائما مستبعدا من العابهم . ولكنه ادرك اخيرا السبب الذي دعاه الى رفض دعوتهم . وكان الصبية في أثناء ذلك يناون عنه رويدا رويدا بينما تتضاءل احجامهم قليلا عن بعد في الشوارع المقفر الطويل . واخيرا قذفوا بالكرة في شارع مقاطع واختفوا عن الانظار . عندئذ فقط نفص لوقا عن نفسه خواطره المذهولة وانطلق في طريقه الى المنزل .

ولاحظ في الأيام التالية ان احساسه بالاكشاف الذي راوده عند المقارنه بين رفضه ان يلعب الكرة ورفضه ان يعمل قد تأكد ورسخ في نفسه . لم يكن خاطرا محمدا دقيقا بقدر ما كان اتجاها سارت فيه أخيرا أحاسيسه المضطربة بالنفور والتمرد . كان يحسب أنه لا يكره سوى دروسه ولكنه أدرك الآن عندما تذكر مشاعر النفور التي اثارتها في نفسه دعوة الفتى البدين ان ثمة أشياء أخرى كان يكرهها كذلك . اية أشياء؟ وما كاد يستعرض هذه الاشياء في ذهنه بسرعة حتى اكتشف لدهشته ان عداه لم يكن يستوعب ناحية واحدة من حياته فقط أو بضع نواح بل كان يستوعبها جميعا بلا استثناء . ومن السهل في سن لوقا ان يقفز المرء من مشاعر غاية في الغموض والابهام الى منطق جهيد مجرد غير مبال باى توفيق بينهما او باى استثناء ممكن . ولذا فقد خيل له أن العالم بأسره ممثلا في أمه وابيه ومدرسيه وزملائه يناشده ان يكون ابنا مطيعا وتلميذا مجدا وصديقا وفيا وزميلا فاضلا ولكنه لم يكن هو نفسه يحب العالم ويأبى ان يقوم بهذه الأدوار التي يريد ان يفرضها عليه . ولذا فقد وجب العصيان - بيد انه مع ذلك لن يكون عن طريق اعمال العنف الغامضة أو نوبات الغضب المجذب التي تنتاب جسده المرهق كما كان يحدث في الماضي بل عن طريق مراعاة نظام معين او خطة معينة في هدوء وعزلة وكأنه يطبق قواعد لعبة ما . ولقد راقته كلمة « العصيان » لانها كانت مألوفا لديه . فقد كان خلال طفولته كلها وردح من صباح يسمع أمه وهي توصيه

بوجوب الطاعة وتتهمه بالعصيان وتنذره بالعقاب ان لم يطعها
وعبارات اخرى من هذا القبيل . ولعله بالعودة الى العصيان على
مستوى اعلى واكثر منطقا لم يعد ان يكون مستكشفا من جديد
موقفه العقلي من الحياة الذى فطر عليه ولكنه افتقده . وكان
عصيانه حتى ذلك الوقت قاصرا على مجال حياته المدرسية
وكانت تمثل أشد نواحي وجوده سخفا وكآبة . ولكنه أخذ
يكتشف الآن ومنذ حادثة كرة القدم ان عصيانه يمكن أيضا ان
يمتد الى مجالات اخرى . كما يمكن ان يشمل اشياء أخرى
كانت لوضوحها وطبيعتها قد فاتته ملاحظتها حتى ذلك الحين
كالعواطف مثلا . كما فاتته حالة أخرى متطرفة لم يلبث ان
فتن بها فى التو - الا وهى حياته فى الواقع .

وما ان طرأ على ذهنه هذا الخاطر حتى احس انه يمارس
حقا لعبة ما ، كانت كاللحن الموسيقى يتميز بتكامله وغائثته فى
حد ذاته كما ان له نغمة الخاص وتصميمه الخاص ودلالته
الخاصة . اما موضوع هذا اللحن فهو العصيان واما تشكيلاته
الأخرى فهى جميع الأعمال المصاحبة له والتي زادت من توريث
لوقا . فضلا عن ذلك فقد حاكت هذه اللعبة احد تمرينات
الرسم للمبتدئين التى تبين فيها الصورة المطلوبة بسلسلة من
النقاط وما على الطفل المبتدىء الا ان يتابع النقاط بقلمه
الرصاص . كانت لعبة قاسية مدمرة ولكنها لعبة على اية حال
لانه كان يمارسها على مستوى تجريبى خال من الغرض تماما .
وقد انحصر عمله فى الواقع بصفة رئيسية فى متابعة هذه
الحركة الغامضة التى لا تفتأ تزيد سرعة وترابطا على صورة
منتظمة والتى بدت انها تحمله نحو الفناء المطلق . وكان فى كل
مرة يكشف ارتباط الظروف التى يكون فيها القيام بأعمال
معينه معناه الحياة وارتكاب اضرارها معناه الموت وكان لوقا
لا يفتأ يختار الأخيرة . ولما كان يتمتع بحاسة رياضية قوية
شأن الصبية جميعا فقد استقر رأيه على أن يطارد منذ ذلك
الوقت فصاعدا كل ما يربطه بهذه الحياة التى لشد ما احس
نحوها بالنفور الهادىء المفعم . كان كل ذلك خليقا بأن ييبث
فى نفسه الذعر لو انه رآه على حقيقته كلون من ألوان الانتحار .

اما وقد تزييا بزى اللهو المؤلف الذى لاضرر منه فقد راقه
وانجذب اليه .

والغريب فى الأمر أنه لم ينظر الى حبه لوالديه كرباط يشده
الى الحياة ومن واجبه ان يحطمه . بل كان احساسه بارتباطه بهما
فى واقع الامر لايزيد بصورة ما على احساسه بارتباطه بأثاث
المنزل او بزملائه فى المدرسة . فلا ريب أن شيئا خطيرا لاسبيل
الى اصلاحه قد وقع له فى الماضى السحيق فحال دون استمرار
حبه لهما ولكنه لم يعد يذكر كيف حدث ذلك ومتى حدث وقد
تأكد له ماأصاب حبه البنوى من تدهور عن طريق المقارنة بين
مشاعره السابقة نحووالديه ومشاعره الآن . فقد مرت به فترة
كان يراوده فيها نحوهما شعور يقارب الخشوع الدينى حين كان
يخيل له انهما بلغا الكمال وانهما يستمدان من ذلك الكمال
سلطانهما الذى يدين له بالحب والتسليم المطلق . فقد كان يخيل له
وقتذاك كما تذكرالآن ان هذا الكمال يقوم على أساس من الخير يكاد
أن يكون خياليا لايمكن تصديقه - ذلك الخير الذى مابلغ الذروة
الا لأنه خيالى . وهو يختلف عن ذلك الذى وصفه له فيما بعد
والداه ومدرساته ومربياته وقوامه القواعد والوصايا والقوانين
والواجبات . فانه اوسع نطاقا على صورة تفوق الوصف لا
بداية له ولا نهاية ، وكان لايفتأ يحس بآثاره دون ان يتقصى
اسبابه . فضلا عن ذلك فانه لم يلجأ اليه قط بل كان يكفيه
احساسه بوجوده من حوله ومن فوقه قادرا على كل شىء ومصدرا
لحياته ومبررا نهائيا لوجوده ، فى تلك السنوات كان ذلك الخير
فى نظره بمنزلة الشمس للعشب وزهر الحقول - فبضا من
الضوء سمرديا رغم ماقد يوصف به من عدم مبالاة . ولكنه - مع
عدم ابصاره - فلا نهاية لسخائه ، يملأ كل عمل من أعماله مهما
كان تافها ويعمر كل لحظة من لحظات حياته مهما كانت عابرة
نافثا فيها من دفئه وحيويته . عندئذ كان بحق عارفا لجميل
والديه دون ان يدرك ذلك لانجابهما اياه فى هذه الدنيا
ولبقائهما على قيد الحياة . وفى هذا اساسا كان خيرهما .

ولم يكن فى وسعه ان يقرر ما اذا كان تدهور يقينه بذلك
الكمال وقوامه الخير فحسب - يرجع الى حادث واحد محدد
مستقل او الى سلسلة من الوقائع الصغيرة الدقيقة التى تعذر

عليه ان يذكرها . كل ما كان يعلمه الآن علم اليقين هو انه لم يبق شيء من ذلك الكمال أو من ذلك الخشوع الذي كان يوليه اياه بعد ان كان في وقت من الأوقات يجهل ملامح والديه لأنها كانت تبدو لعينيه كالشمس التي يخسأ البصر دون التطلع اليها مباشرة في مواجهتها فكلها ضياء ولا شيء سواه كما يمكن تحديد محيطها الخارجي على وجه الدقة . . فكان يتطلع الى ملامحها دون أن يميزها ودون أن يرى شيئا سوى ذلك الضوء المنبعث من خيرهما الاريحي المعشى . . ولكنه اليوم - وكان ذلك الصباح المتألق قد اعقبه مساء مظلم كئيب استحالت فيه شمساهما الى قمرين ميتين باردين - اليوم امكنه ان يرى وجهيهما بوضوح وأن يميز فيهما أدق التفاصيل التي لشد ما خاب لها أمله . . رآهما في الواقع بدقة تامة في ضوء الحقيقة الذي لا يعرف الرحمة مثلما كان يرى وجوه زملائه أو مدرسيه . . ولكنه بدا له أنهما هبطا الى درجة أدنى للسبب الا لانه يراهما بوضوح شديد . . وبهبوطهما الى مستوى الاشياء التافهة تلاشى من حياته ذلك الدفء الذي كان مبعث حيويتها . . وقد أدرك ببديته في غموض دون أن يتعرف على ذلك في وضوح مطلق. أن ثورته على الدنيا قد بدأت بلا ريب في نفس اللحظة التي غاض فيها ذلك الدفء .

وثمة حادث اسهم في تثبيت الصورة النهائية للشخصية الجديدة التي اكتسبها والداه كما أسهم في تحديد شعوره الجديد نحوهما . . فقد كان من عادة والده عندما يعود المنزل في المساء ان يخرج من جيبه صحف المساء ويعطيه اياها ليقرأها ثم يستردها منه بعد ذلك عند النوم لانه كان - كما يعلم لوقا - يحب ان يقرأها في فراشه قبل ان ينام وكانت تلك احدى عاداته المألوفة التي يتكون منها سطح الحياة اليومية الدائم الاملس . . وحدث ذات مساء ان غادر لوقا غرفة الطعام وذهب الى فراشه حاملا معه الصحف وربما كان ذلك عن طريق السهو . . ولكنه ماكاد يلقي نظرة على الصور ويتصفح بعض المقالات حتى تذكر ان والده لم يأخذها منه وانه بلا ريب سوف يأسف لذلك أسفا شديدا . . وتلوننت في مخيلته تلك الصورة

بانعكاسات مثيرة للشفقة كان مصدرها ذلك الخير الابوى
السابق الذى كان رغم هبوطه الان الى مستوى الخير البشرى
فحسب لايزال محببا الى نفسه يحرك عواطفه . . فخيّل له ان
والده لم يأت فى طلب الصحف لانه لم يشأ ان يوقظه . .
وبدت له تلك التضحية دليلا اخر على محبة والده الرقيقة . .
وفضلا عن ذلك فانه كان يعلم ان والديه يظلان مستيقظين الى
ساعة متأخرة من الليل حتى بعد أن يأويا الى الفراش وهما يتحدثان
أو يقرآن . . فأخذ يقرب الامر على وجوهه ويزن ما له وما عليه
حتى قرر فى النهاية وبعد وقت طويل ان يحمل الصحف
ويذهب بها رأسا الى والده فى غرفته . . فوثب من فراشه وسار
فى الدهليز عارى القدمين حتى بلغ باب غرفة والديه حيث
وقف ينصت لحظة خيل له فيها انهما يتحدثان . . فدخل
الغرفة دون أن يطرق الباب فى عجلة مرجعها الحب والرغبة
فى علاج ما لحق والده من أذى .

وكانت الغرفة مضاءة كما توقع . . وقد شغل الفراش
مساحة كبيرة من الحائط المواجه للباب . . فوق بصره لاول
وهلة على الوسادة الخالية والملاء المطوية الى الخلف على جانبي
الفراش . . ولكن الفراش الخالى لم يسترع انتباهه أكثر من
لحظة . . فقد كان أبواه يقفان فى وضغ غريب فى الركن
القصى من الغرفة الى يمين الفراش . . وقد ارتدى والده
بيجامته ذات الخطوط العريضة التى تغضنت على جسمه البدين
. . وكانت أمه تقف عن كذب الى جانب والده وقد ظهرت
للعيان أطرافها النحيلة من خلال قميص النوم الشفاف . . وقد
ضم أبوه الى صدره بكلتا ذراعيه شيئا لم يلبث لوقا أن تبين فى
الحال انه حزمة من الاوراق المالية والسندات الصناعية . .
وكانت أمه تقف أمامه رافعة ذراعيها وهى تعبت بصورة كانت
معلقة على الحائط .

ولشد ما كان لوقا يعرف هذه الصورة فقد كانت نسخة من
صورة السيدة العذراء لرافاييل . . وفى أسفلها مصلى
Prié - dieu على طراز العصور الوسطى صنع من خشب داكن
اللون وكانت تعلوه وسادة حمراء مطرزة طالما جعلته أمه

يجثو عليها في طفولته ليتلو صلاة المساء .. كان يجثو شابكا يديه وشاخصا بعينيه الى الصورة وهو يردد في اذعان كلمات الصلاة التي تملئها عليه أمه .. كلمة كلمة في صوت هادئ وهي جالسة بجانبه في يسر رغم ما تبعثه في النفس من ملل لطيف محبب هو الغذاء الرئيسي للطفولة .. وثانيا لان صورة السيدة العذراء برقتها البالغة وهي تحمل طفلها بين ذراعيها متشحة بثياب اختلطت فيها الحمرة بالزرقة ومن خلفها منظر طبيعي صاف مضيء كانت تجذبه وتطلق العنان لخياله حتى أنه خيل له ذات مرة وقد بدأ يغالبه النعاس ان الصورة أومأت له برأسها وابتسمت له .. وكثيرا ما كان يتأمل ذلك التعبير المرتسم على وجه العذراء أو يتأمل تفاصيل ذلك المنظر الطبيعي الربيعي الجبلي الذي يمتد مكشوبا خلف كتفي صاحبة الصورة وهو يردد في آلية كلمات الصلاة .. وفي يوم من الايام وربما كان ذلك على أثر عودتهم من العطلة انقطع عن تلاوة الصلاة هناك كما يحدث دائما في مثل هذه الامور .. وظل فترة من الزمن يتلو صلاته وحده .. وأخيرا ألق نهائيا عن تلاوتها .

ربما فتح لوقا الباب دون ان يحدث ضجة .. وربما كان الباب مواربا .. وما كان عليه الا أن يدفعه .. وربما كان أبواه مستغرقين تماما فيما يفعلان حتى أنهما لم يسمعا عند دخوله الغرفة .. ومهما يكن الامر فقد طال وقوفه ساكنا عند الباب وهو يراقبهما دون ان يلحظا وجوده .. رأى أمه وهي تفتح ذراعيها لتمسك بالصورة من اطارها ثم ترفعها عن الحائط وتضعها على الارض بعناية شديدة وتسندها الى الحائط .. عندئذ أدرك ان الصورة كانت تخفى وراءها باب خزانة من الصلب لمع سطحه الرمادي المربع الى حد ما .. قال أبوه وهو واقف عن كذب خلف أمه .. أديرى باين وسينا واحدة .. فأدارت أمه أقرصا معينة في معدن الباب منفذة تعليمات زوجها ثم فتحتة في هدوء .. ورأى لوقا أنها كانت خزانة صغيرة تحوى على رفيها حزما اخرى كثيرة من الاوراق المالية ولفائف السندات .. وقال أبوه في صوته العاطفي الرقيق : ادفعي هذه الاوراق الى الداخل حتى يتسنى لنا أيضا ان نضع

هذه الحزم . . فأذعنت أمه ورآها لوقا وهي تدفع النقود والسندات الموجودة هناك الى داخل الخزانة بذراعيها النحيلتين لتفسيح مكانا للاوراق الجديدة . . وفجأة اندفع لوقا دون تفكير الى داخل الغرفة حيث ألقى بالصحف على الفراش قائلا : هاهي الصحف . . فرأى اباها يجفل في عنف كاللص عندما يضبط متلبسا بالسرقة كما رأى أمه تدير رأسها في دهشة وقد ارتسمت في عينيها نظرة قاسية . . ثم غادر الغرفة مهرولا . . وعندما بلغ غرفته الخاصة بدا له احساسه المضطرب بالجميل الذي أداه وقد اختلط تماما بمرارة الحيبة والاثم . . ولكنه كان يشعر بالخمول وما ان قلب في ذهنه من زوايا مختلفة تلك الصورة الجديدة المزعجة للخزانة المخبأة خلف الصورة المقدسة وتأمل منظر والديه وهما شبه عارين وقد حملت أذرعتهما النقود حتى استغرق في النوم .

وفي اليوم التالي كان على وشك ان ينسى الحادث أو الاخرى انه حاول ان يبعده من ذهنه . . ولكنهم ما كادوا يجلسون الى المائدة في المساء حتى انتهزت أمه لحظة غياب أبيه وقالت له في جفاء « تذكر في المستقبل أن غرف النوم لايدخلها الناس دون أن يظرقوا الابواب » فاحمر وجه لوقا خجلا وود لو أجابها قائلا « ولماذا جعلتني طوال هذهالسنين العديدة أتلو صلواتي جاثيا أمام نقودكما ؟ » طرأت على ذهنه هذه الملحوظة وكأنها تبلورت من تلقاء ذاتها أثناء النوم عن طريق التجمد كما يتكون الجليد في ليالى الشتاء . ولم يلبث أن أدرك في الحال أنها ملحوظة مناسبة للغاية كما أحس انها تحمل من المعاني مايفوق مراده بكثير . . ولكنه تمالك نفسه وطأطأ رأسه متظاهرا بالكمد . . وعندما عاود التفكير في الحادث فيما بعد خلص الى ان هذا الحادث ان لم يكن السبب الاصلى في التدهور المستمر في مكانة والديه فقد كان على أية حال العامل الرئيسى المباشر فيما حدث لهما حتى بلغا مستوى الاشياء الغريبة غير المحبوبة .

- ٤ -

ولكن اذا كان حبه لوالديه لم يعد يشده الى الحياة واذا كان لايجاد الان ما يدعوه لان يتجشم مشقة تحطيم هذا الحب

لاحتراقه وتحطمه من تلقاء ذاته ان جاز هذا التعبير فما زالت هناك اشياء اخرى شد ما بدت له حية ملحة .. وعلى هذا فقد كانت بالحق الطبيعي خليقة بأن تصير جزءا من لعبة التدمير التي لم يفتأ يطورها يوما بعد يوم دون ان يتخلى عنها .. ومثال ذلك ممتلكاته .. فقد كان لوقا منذ نعومة اظفاره يحس بالغيرة والاقتصار نحو كل ما يملكه من أشياء .. وكان أبواه كما يحدث عادة يشجعانه على ذلك ويقويان في نفسه ذلك الشعور بكل وسيلة ممكنة .. فمنذ طفولته المبكرة كانت اللعب لا تفتأ تهدي اليه مصحوبة بالعبارة التالية : أليست جميلة ؟ .. حاول ألا تكسرهما .. وهي عبارة ذات مغزى تتضمن رأيا كما تناشد في نفسه غريزة التملك . ثم جاءت بعد ذلك لعب أخرى أكثر تفننا وتعقيدا مثل المكانو (1) Meccano

ومسرح الدمى ومعها أولى كتب الاساطير وقصص الاطفال ، ولشد ما شغل لوقا بمسرحه الصغير وآثره على كل ماعداه .. وعندما لاحظ أبوه هذا الشغف أخذ ينميه فيه وذلك باهدائه أسبوعيا على الاقل دمىة أو اثنتين .. كان يقول له في اهمال متعمد دون أن يرفع عينيه عن الجريدة التي يقرأها : لم لا تذهب يا لوقا الى الردهة وتلقى نظرة على جيب معطفي ؟ أعتقد انه ربما كان هناك شيء لك .. فتمتليء نفسه بالفرحة كما يراوده في نفس الوقت احساس غريب مذل لاستسلامه لمثل ذلك الانفعال الذي يكاد يكون محرما وهو يركض الى داخل الردهة حيث يجد بالفعل معطف أبيه معلقا على حمالة الملابس وقد برزت من جيبه ربطة طويلة تمتد منها قطع صغيرة من السلك .. وعندما يفض الورقة بفارغ الصبر يظهر له اثنان من المحاربين وقد اتشحا بدرعين مصنوعين من ورق القصدير اللامع أو تظهر له سيده عظيمة ترتدى ثوبا من المخمل بلون السماء أو شيطان مسلح بشوكة وقد اختلط فيه السواد بالحمرة أو طاه يرتدى زيه الابيض .. فيعانق لوقا أباه ثم يركض الى غرفته الخاصة حيث يضع الدمى بجانب مثيلاتها مما يملكه فعلا في صندوق

١ - مكانو Meccano قطع صغيرة تتكون منها نماذج هندسية .

خشبي كبير مقسم الى أقسام ٠٠ وبهذه الطريقة صار يقتنى أكثر من مائة دمية ٠٠ وحاول في أول الامر ان يجعلها تؤدي على المسرح الصغير مشاهد مرتجلة بينما تمثل خلفيتها قصرا أو غابة أو سجنا ٠ ولكن شغفه بجمع الدمى لم يلبث ان تغلب على حبه للعب في حد ذاته وصار يقنع بصف عرائسه في الصندوق الكبير كما يكنز البخيل قطع النقود في قاع صندوق ٠٠ كان يحصيها مرارا وتكرارا ثم يقبلها ويربت عليها ويحملك فيها طويلا وهو جاث على الارض ثم يعيدها بعد ذلك الى الصندوق ٠٠ وهذا هو كل شيء ٠٠ ولشد ما كان يحس بالرضا وهو يفعل ذلك - ولكنه لم يفتأ يحس به وقد خالطه نوع من التبكيث الغامض ٠٠ ودام شغفه بمسرح العرائس فترة أطول مما استغرقتة أية هواية اخرى ٠٠ ولكن التبكيث تغلب في النهاية على شغفه فأحس نحو مجموعة الدمى بالشبع والنفور وتركها في قاع خزانة للملابس حيث علاها الغبار ٠٠ ولاحظ أبوه ذلك الاهمال من جانبه فامتنع عن اهدائه المزيد منها ٠

ثم جاء دور « المكانو » الذي علمه والده طريقة استخدامه بينما يزحف هو على الارض هنا وهناك جامعا تلك الالات الاولى البسيطة ٠٠ وأخيرا جاء في سن متأخرة دور قصص المغامرات الاولى وهواية جمع طوابع البريد وأطقم الادوات الرياضية ٠٠ وكان ذلك التطور نفسه لا يفتأ في كل مرة يأخذ مجراه في ذهنه فينتقل من حب اللهو في حد ذاته الى حب التملك الجامد الغيور ومن التعلق الى النفور ٠٠ ولكن هذا النفور لم يقو قط الى حد اقناعه بالتخلص نهائيا من تلك الاشياء ٠٠ التي لم تعد تثير اهتمامه ٠٠ فلشد ما استبد به حب التملك حتى نشأ بينه وبين تلك الاشياء التي شغف بها في وقت من الاوقات ثم اهملها الان رباط من الغيرة والخوف لم يستطع معه قط ان يقنع نفسه بالتنازل عنها أو بتحطيمها رغم توقفه تماما عن استخدامها أو الاستمتاع بها بل رغم نسيانه وجودها نفسه في بعض الاحيان ٠٠ كان يحتفظ بها حتى ولو كانت تالفة مشوهة ٠٠ وقد امتلأت أدراج خزانته بالبومات غريبة متقلصة تضم قصصه وبدمي نزعرت رؤوسها

أو سيقانها وبصناديق المكانو الناقصة . . أما الكتب التي لم يفتأ يحصل عليها ويقرأها فانها لم تمس بسوء وكذلك مجموعة الطوابع التي لم ينقطع عن اضافة نماذج جديدة اليها رغم قلة اهتمامه بها . .

وفيما بعد عندما لاحظ والده انه اصبح في سن مناسبة ختم تدريبه الطويل على التملك باعطائه منحة شهرية صغيرة كنفقات نثرية . وكان لوقا يتقاضى منحته في اليوم الأول من كل شهر بينما يتوقع منه والده وهو يناوله النقود ان يقبله على وجنته في مقابل ذلك عرفانا بالجميل . وما لبث ان اكتشف لوقا ان النقود كانت توقظ في نفسه احساسا بالتملك اكثر غموضا واشد استبدادا مما كانت توقظه في نفسه الدمى وغيرها من الأشياء . كان احساسا خاليا تماما من كل اثر لفكرة اللعب او اللهو كما كان في الواقع مستغلقا تماما على فهمه . ففي اول الأمر أخذ ينفق هذه المنحة على الحلوى والكتب . ولكنه عندما وجد انه يستطيع الحصول عليها من والديه دون ان يضطر الى اقتحام كنزه فقد عكف على اكتناز منحته وعدم انفاقها - وخطر له في غموض ان يدخر مبلغا يكفي للحصول على سلعة باهظة الثمن - ولكنه لم يدر ما هي . وفي الواقع فانه اخذ يستسلم لتلك الغريزة نفسها التي كانت تدفعه الى جمع الدمى غير انها كانت وقتئذ تنحصر في اشياء لا يهتم فيها الكم بقدر ما يهتمه الكيف والتنوع . اما الآن في حالة النقود التي تتألف من أوراق قبيحة متقلصة وقطع لا تختلف احداها عن الأخرى فلم تكن ثمة اهمية الا للكم وزيادته العددية المجردة كمحرك لحماسه في جمع النقود . وهكذا فقد انزلق رويدا رويدا من متعة التملك رغم ما فيها من غلظة وهو لا يكاد يلاحظ ذلك الى حب المال . ومع ذلك فان شغفه هذا كان بريئا ساذجا شأنه في ذلك شأن الطفل الذي لا يبالي بالركض عاريا على الشاطئ اذا ما سمحت له أمه بذلك . وقد بلغ من جهله بتلك الرذيلة أن أعلن يوما ما أمام والده بلهجة المنتصر انه يريد ان يدخر منحته الشهرية حتى تبلغ مدخراته الفليرة . فأجابه والده قائلا وهو يقبله: «حسنا تفعل . ولكن ينبغي في هذه الحال ان تودع نقودك بنك

الادخار . « وشرح له ان نقوده بهذه الطريقة لن تكون فى مأمن فحسب ادعى الى الطمأنينة مما لو وجدت فى الصندوق بل انها ستزيد بانتظام دون اية مشقة من جانبه تماما كما ينمو النبات ويؤتى ثماره . فرفض دفتر الادخار الذى عرضه عليه والده بحجة انه لا يملك من النقود ما يكفى لفتح حساب فى البنك . ومع ذلك فان شعوره بالخجل لم يلبث ان تلاشى فى الحال تقريبا . اذ انه لم يكن سوى بارقة مبتسرة من ضمير لم يستيقظ بعد . وظلت قطع النقود والاوراق المالية التى تتألف منها منحة الشهرية تتكدس فى درج مكتبه .

وتعذر عليه ان يضحى بممتلكاته ونقوده على الرغم من مشاعر النفور البشع التى كان يحس بها من قبل والتى صارت الآن نسيا منسيا وعلى الرغم من خجله الذى خيل له الآن فقط انه ادرك معناه العميق واهميته اكثر مما تعذرت عليه تضحيته بكبريائه المدرسية . فقد دعاه الى التهرب منها ما كان يراود جسده المرهق من صدود قبل دروسه . ولكنه احس انه ما كان يمكن أن يصل الى نبتة ممتلكاته لولا ماخالجه من حزن وحيرة مثلما يوحي به الحرمان القاسى الذى لا يجد ما يبرره على صورة واضحة . ومما لاشك فيه انه منذ اللحظة التى اكتشف فيها ان ممتلكاته ومدخراته كانت تشده الى الدنيا وترغمه على قبولها احس نحوها بنوع من الكراهية الحانقة . ولكنه ادرك ان كرهه اياها لم يكن مرجعه انها بغیضة فى حد ذاتها كدروسه بل لانه يحبها فحسب . فألقى نفسه موزعا كما لم يحدث له قط من قبل حتى النهاية ويجذبه من الناحية الاخرى احساسه المؤلم بنفسه تجذبه « لعبته » من ناحية ورغبته الغامضة المبهمة فى ممارستها الجسور من خلفه مما تستحيل معه العودة من تلك المجهل الخطرة التى كان يغامر بارتياحها . ولشد ما احب كتبه قبل كل شىء ومجموعات طوابعه واطقم ادواته الرياضية وكان كل قرش يدخره فى صندوقه يمثل فى نظره تضحيته بشىء كان فى امكانه ان يبتاعه كما يمثل امله فى شراء آخر يوما ما . لم تكن اشياؤه ونقوده مجرد اشياء ونقود فحسب بل خيوطا حية متماسكة نسج فى لحمتها وجوده . ولكنه لهذا السبب بالذات

اراد ان يقطع هذه الخيوط . اذ انها كانت تدل ايضا على اذعانه لمصيره الذى فرض عليه دون ان يستشار فى ذلك كما تدل على اذعانه للدنيا التى طالما سعى عبثا الى التمرد عليها . ولو انها كانت اشياء ميتة فعلا بعد ما انقطع عنها الحب الذى كان يحييها فى الماضى - كما حدث لأبويه مثلا من وجهة نظره - لما كانت هناك جدوى من تحطيمها . ولكن العكس كان صحيحا وكانت قواعد « لعبة » التمرد المريرة لا تبيح استثناء ما .

وطالما ماطل فى تنفيذ هذا العمل . ولكنه اخيرا عقد العزم ذات يوم وكان من بين زملائه فى المدرسة صبي دعى هادىء استقر فى ذهنه انه بلغ الكمال كطالب وكصبي وكان ظروف المدرسه والصبيا باقية مدى الحياة . كان يدعى « بولى » ويتميز برأس كبير حليق شديد الشبه بالقرع الذى نحتت عليه بسن مدية صغيرة ملامح وجه بشرى على صورة تقريبية للغاية . كما كان جسمه الضامر النحيل يؤكد صورة القرع لأنه يذكر الانسان بتلك السوق الرفيعة الهشة التى تحمل فى اعلاها الثمار الصفراء الضخمة بين خطوط المحراث فى الحقل او على قرميد السطح وتظل تنتفخ حتى يكتمل حجمها الطبيعى . وكان انجب طالب فى الفرقة . اما تفوقه الذى لم يهبط قط عن مستواه المرموق ولم يتجاوز احد مطلقا سواء فى الجبر أو فى اللغة اللاتينية أو الايطالية أو التاريخ دون أن يجد فى ذلك جهدا أو مشقة فقد بدا غامضا فى عينى لوقا وكأنه ثمرة نوع من السحر وليس وليد عقل كعقله معرض للنسيان والخطأ - ولقد دعا بولى لقضاء أمسية فى منزله وعلق بولى على ذلك فى الحال بقوله : « احذرك انى لم أفعل شيئا ان كان الامر يتعلق بمساعدتك فى واجباتك المنزلية » وأكد له لوقا فى مكر انه لاشأن له مطلقا بواجباته المنزلية .

وصل « بولى » الى منزل « لوقا » فى شىء من الحياء وبعد ان رحب به لوقا ببضع كلمات ابلغه انه ينوى اهداءه مجموعته من طوابع البريد . وما ان قال له ذلك حتى احضر المجموعة وكانت تتألف من أربعة « آلبومات » كبيرة شددت بوثاق من القماش ذى اللونين الاحمر والذهبي واطلعه عليها . فلم يصدق « بولى »

وارتاب في امره حتى ظن انه ينصب له فخا او يعرضه لخطر ما
واخيرا سألها قائلا - « ولكن لم اخترتني انا ؟ فنحن لسنا
صديقين . بل لا يكاد يعرف احدنا الآخر . »

فأجابه لوقا قائلا في هدوء - « اعتقد اننى راحل عن قريب
الى الخارج . ولما كنت شديد الشغف بهذه المجموعة فقد خيل
لى انه لن يحافظ عليها سواك . »

فأخذ « بولى » يقلب اوراق الآلبومات باصابع مترددة
مستجيبا للاغراء وكان من الواضح فى نفس الوقت انه لا يريد
ان يكشف عن ذلك . ثم قال - « سأعطيك شيئا فى مقابل
هذا . . . ولكنه بالطبع لن يكون بنفس القيمة . بل شيئا ما
فماذا تريد ؟ »

فأجابه لوقا قائلا - « انا لا اريد شيئا . »

ثم اخذ هو ايضا يقلب الاوراق بغية تغيير الموضوع متظاهرا
باطلاع « بولى » على اجمل طوابع المجموعة - كان فى الحقيقة
يريد أن يختبر نفسه ليرى ان كان أسفا للتخلص من مجموعته .
كانت الطوابع التى الصقت فى عناية بالصفحات السمكية ذات
الحاشية المذهبة تمر امام عينيه وقد كتب عناوينها باربع لغات .
كانت هناك طوابع لدول اوروبية مختلفة منذ الحرب تعلقو
رءوس الملوك فيها عناوين جمهورية تمده باحساس درامى لما
حدث فى تلك البلدان من اضطرابات سياسية . كما كانت
هناك طوابع اقدم منها واكثر قيمة وهى الطوابع البابوية وطوابع
الولايات الايطالية وطوابع اتحاد ألمانيا وجميعها طوابع بسيطة
وصغيرة بهتت الوانها الرقيقة . اما طوابع المستعمرات فقد
صورت مناظر الطبيعة الاستوائية ووجوه الوطنيين من أهلها . وهى
لم تكلفه كثيرا ولكنها كانت تجعله يحلم بتلك البلاد النائية . وثمة
طوابع أخرى صدرت لاهياء ذكرى رجل عظيم أو حدث عظيم كانت
تثير خياله ايضا . . . وكان يجد متعة فى الحصول عليها احادى
او فى مجموعات صغيرة من محال الادوات الكتابية وكذلك فى
الصاقها بالالبومات وفى التحقق من ثمنها وتاريخها فى الفهرس
الفرنسى كما كان يجد متعة فى الارقام التى تشير الى قيمتها
وتليها اسماء قطع النقود الاجنبية التى لم يرها قط فى حياته

وكذلك فى اختام البريد المستديرة التى تبطل استعمالها مرة
اخرى وقد ذكر بها تاريخ ارسالها واسم المكان الذى ارسلت
منه . ولكنه لشد ما شغف بتلك الطوابع التى تحمل خطوطا
متموجة تذكره بامواج البحار التى عبرتها بلا ريب تلك الرسائل
لتصل الى وجهاتها . وقد ادرك وهو يقرب صفحات الالبومات
انه يعانى من الم يختلف كل الاختلاف عما كان يتوقعه . فقد
كان يتوقع ان يعانى من حب الاقتناء فاذا به بدلا من ذلك يعانى
من رثائه لنفسه . ولم يسعه الا ان يرى انه غاضب من نفسه
حقا وكأنه منقسم الى شقين رقد احدهما على الأرض تعسا
مستسلما وهو يدافع عن نفسه فى ضعف بينما وقف فوقه
الشق الآخر يضربه بلارحمة . عندئذ اغلق الالبوم فى حدة
قائلا - « حسنا اذن فهل تريدها ام لا ؟ »

- « اريدها بالطبع . »

- « انتظر حتى احزمها لك فى جريدة . »

غادر الغرفة وذهب لياتى بجريدة من احدى الحزائن .
وفيما هو يبحث عنها فكر لحظة فى ان يعود الى « بولى »
ويعلنه بأن الامر كله دعابة . ولكن عملية التخلص من
المجموعة بدت له اقرب الى الحقيقة وأبعد عن الزيف من
الاحتفاظ بها فلم يعد يتردد . فأخذ الجريدة وعاد الى
الغرفة . وسرعان ما أغلق بولى الالبوم الذى كان يتأمل
طوابعه فى اعجاب حين اقبل لوقا وكأنه يخشى اذا ما بدا
عليه الفرحة ان يغير لوقا رأيه . وسأله لوقا قائلا :
« أليست لديك فعلا مجموعة طوابع ؟ »

فأجابه بولى قائلا وهو يتظاهر بالحكمة - « نعم . ولكنها
أقل من هذه بكثير . . . سأبيع الطوابع المكررة واشترى
بثمنها طوابع أخرى »

وما ان ذهب بولى حتى أخذ لوقا يفكر فى طريقة مثلى
للتخلص من كتبه . وكان يملك منها عددا كبيرا ويؤثرها
حتى على الطوابع . كانت معظمها قصص مغامرات وروايات
بوليسية وتاريخية . وكان لوقا يراوده احساسان مختلفان
تماما قبل تلك الكتب . فلقد أحب كل كتاب على حدة لما

يحتويه من موضوعات • ولشد ما شغف بها في نفس الوقت كمتلكات • وكان يخالط ذلك الشغف قدر كبير من حب الاقتناء الذي لا ينبع من طبيعة ما يملك بقدر ما ينبع من متعة الامتلاك • فقد استبدت به في لحظة من اللحظات رغبة قلقة في ملء الرفوف الثلاثة في مكتبته • ولما كان ما يملكه من الروايات لا يكفي لمثلها فقد ضم اليها بعض الكتب القديمة التي تلقاها كهدايا في أعياد ميلاده وكذلك كتبه المدرسية الاولى • فبلغت هذه المجموعة المختلطة بكل ما تحتويه حوالى ثلاثمائة كتاب • وقد راجع لوقا عددا مرارا فكان يلقي بنفسه على الارض ويحصى الكتب ويرتبها حسب احجامها • والآن كان من الصعب عليه ان يفرغ المكتبة خلسة دون أن يلاحظ ذلك والداه في حين كان من السهل عليه التخلص من آلبومات الطوابع التي كانت لا تشغل الا حيزا صغيرا • وبعد ما فكر طويلا في هذا الامر قرر ان يلجأ الى اختلاق أكذوبة مناسبة تتيح له ان يأتي على مكتبته دون ان يثير الشبهات • فذهب ذات يوم الى امه قائلا - « امه •• أريد أن أبيع كتبى جميعها • »

فقلت - « اتبيع كتبك جميعها ؟ ولماذا ؟ »

فأجابها لوقا قائلا - « قرأتها كلها وأعدت قراءتها مرارا • لذا فانى اريد ان ابيعها لاشتري حاكيا وبعض الاسطوانات • »

كانت أكذوبة مناسبة بالضبط • فما كان ليسمح له والداه قط بمثل هذا العمل الا اذا كان ذلك من أجل الحصول على شيء جديد • فلا جدوى من الممتلكات في نظرهما الا في الحصول على ممتلكات جديدة • وفضلا عن ذلك فقد كان لوقا يعلم ان أمه تهوى الموسيقى ولا يسعها الا أن تسر لهذه الرغبة الجديدة من جانبه • فما لبثت ان قالت - « ولكن ثمن الكتب لن يكفي •• »

وخشى لوقا لحظة ان تتأثر أمه بحبه للموسيقى فتقترح شراء الحاكى دون ان يضحى ابنها بكتبه رغم علمه بأن مثل هذا الكرم - بل اى كرم فى الواقع - كان لا يدخل ضمن نظرياتها التربوية • فأسرع باجابتها قائلا - « سأضيف

اليه مدخراتي . . وبهذا المبلغ مجتمعا يمكنني دفع الاقساط
الاولى من ثمن الحاكي وابتياح بعض الاسطوانات أيضا . «
وما ان حصل على موافقة والدته حتى طلب لوقا الى احد
باعة الكتب القديمة وكان يعرفه من قبل ان يحضر الى المنزل .
ودخل الكتبي الغرفة مرتديا معطفه وممسكا بقبعته في يده
وكان شابا قصير القامة يعلو وجهه تعبير ينبيء بالطمع ويعلو
رأسه شعر طويل مموج خلط بالدهون . وأخذ يفحص
الكتب التي كان يناوله اياها لوقا كل على حدة . وأخذ لوقا
يتساءل مرة اخرى أثناء هذا الفحص عما ان كان يعاني من
فراقه لكتبه الحبيبة الى نفسه كما فعل من قبل عندما اعطى
« بولى » مجموعة طوابعه . عندئذ ادرك ان ألمه كان أقل
بكثير كما ان احساسه اللاهى بانها لعبة وادراكه خداعه كانا
يوجدان بعض التوازن مع ما يحس به من ألم . وحاول
الكتبي الذي لم يقل اهتمامه عن اهتمام بولى ان يبخر قيمة
الكتب . فأخذ يردد قائلا وهو يلوى فاه ان المؤلفات كانت
تالفة للغاية كما كانت عادية لا جديد فيها . . وتظاهر لوقا
من جانبه بالغضب الشديد وهو يناقض ملحوظات الكتبي
الذي قال فى النهاية - « انها كلها اشياء عادية . . يمكنني
ان اعطيك شيئا فى مقابلها . . فى مقابل المجموعة بأسرها . »
فسأله لوقا قائلا - « كم تدفع ؟ »

فلوى الكتبي فمه ملقيا بنظرة احتقار الى كومة الكتب من
فوق ياقته المخملية . ثم ذكر رقما . فقال لوقا - « هذا ثمن
بخس . فلتضاعفه . »

فأجاب الكتبي قائلا - « ان الامر لا يستحق المناقشة .
وتناول قبعته التي كان قد وضعها على المنضدة .

فتردد لوقا ثم طرأت له فكرة ما وذلك ان يقترح على
الكتبي أن يبيعه الكتب والدمى واطقم الادوات الرياضية فى
صفقة واحدة . وهكذا يتخلص من كل ممتلكاته دفعة واحدة
فقال - « انتظر لحظة فسأضيف اليها بعض الاشياء الاخرى
وعندئذ يمكنك أن تعطينى المبلغ الذى طلبته . »
فقال - « اية أشياء ؟ »

فاتجه لوقا الى الركن القصى من الغرفة حيث فتح صوانا
داخل الحائط اودعت فيه كرة القدم وبعض كفوف الملاكمة
التي لم تستعمل بعد . كما اودع به قاربا شرعيا نشرت
أشعرته كلها . وكذلك مسرح العرائس والدمى . فقال الكتبي :
- « أنا لا ادير محلا للخردة . »

ولكن عينيه الصغيرتين الغائرتين لمعنا فجأة بنظرة تنبىء
بالجشع .

فقال لوقا - « هذه الكرة وحدها كلفتني أكثر مما تعرضه
على في مقابل كتبي جميعا . »

وفي النهاية قبل الكتبي الرقم الذي حدده لوقا ودفع
المبلغ . وفي نفس اليوم جاء حامل الكتب والاشياء الاخرى
في صندوق للنقل . وما ان خلا لوقا الى نفسه حتى بدا عليه
الرضا وهو ينظر الى الرفوف الخاوية . ولم يسعه الا ان
يتخيل نفسه وكأنه يستعد للسفر في رحلة طويلة تماما كما
قال لبولى . ولكن المتعة التي راودته في مواجهة الغرفة
الخواوية لم تكن متعة الرحيل بل الاخرى انها كانت المتعة
الحزينة الباردة التي تراود المرء عند وصوله الى بلد عار
مهجور يعلم أنه لا ينتظره فيه شيء . ويومئذ كان عمله أقل
مما تعود ان يفعل . فلم يفتأ يعود بذهنه الى كتبه والى
مجموعة طوابعه والى أطقم ادواته الرياضية . ولا يكاد يخطر
له أنه أمكنه التخلص منها جميعا حتى يراوده ذلك الرضا
الغامض الذي لا ينضب معينه والذي يكاد يكون شهوانيا .
وصور لنفسه كيف ان بولى يظن به الحمق بلا ريب وكيف ان
الكتبي يهنىء نفسه بلا شك بتلك الصفقة الرائعة . وسر
لاقتناع هذين الشخصين بأنهما قد خدعا . وراوده في
نفس الوقت احساس بالخفة والراحة كما لو كان يحمل
عبئا ثقيلًا مسافة طويلة ثم أحس فجأة بالتخلص منه .

ومع ذلك فقد بقيت مشكلة النقود . فكان عليه ان
يتخلص منها وان يبرر في نفس الوقت بطريقة أو اخرى عدم
حصوله على الحاكى . فانتهاز لوقا الفرصة أثناء العشاء وأعلن
في صوت هادىء حزين قائلا - « هناك أمر ما يجب ان

اخبركما به .. ولكنكما يجب ان تعداني بأنكما لن تغضبا
منى .. »

فنظر اليه والده فى انزعاج . واستطرد لوقا قائلا -
« هذا الصباح سرقت حافظتى فى الترام - أو ربما سقطت
من جيبى . وعلى اية حال فانى لم استطع العثور عليها منذ
ذلك الحين .. وكان بها كل ما املك من نقود .. النقود التى
كنت انوى ان ادفعها ثمنا للحاكي .. »
وبعد ما وجهت اليه الاسئلة المألوفة التالية - « كيف حدث
هذا بحق السماء ؟ لم تكن أكثر حرصا ؟ وأين كانت حافظتك
بالضبط ؟ ولم اودعتها كل نقودك ؟ » أعقبت ذلك مناقشة
أوشك فيها لوقا مرارا على اليأس التام من نجاح خطته . اذ
بدا والده وقد ملأته الشفقة عليه لهذه الكارثة القاسية التى
نزلت به - ميالا لان يرد له ما فقده من نقود . بينما غضبت
أمه للخسارة ولاهمال ولدها فعارضت فكرة تعويضه عنها
بحجة ان هذه الكارثة ستكون درسا فى المستقبل . ورأى لوقا
أنه اذا انتصرت حجة ابيه فسوف لايتجمع لديه فحسب ضعف
المبلغ الذى يملكه فعلا بل سيضطر ايضا الى شراء الحاكي متعرضا
فى ذلك لخطر التعلق لجذته وبهجته . فتتبع شخصية ابيه . وفى
الواقع فقد انتهت المناقشة بفوز وجهة نظر امه مع تحفظ واحد
هو ان والديه سيهديانه الحاكي وعددا مناسبا من الاسطوانات
اذا ما احضر اليهما تقريراً مرضياً فى نهاية الفصل الدراسى .
فابتسم لوقا فى ابتهاج لعلمه ان تقريره سيكون غاية فى
السوء .

- ٥ -

عندئذ كان الوقت فى بداية شهر ديسمبر . وخرج لوقا
ذات مساء حاملا فى جيوب معطفه كل ما يملكه من نقود على
صورة قطع فضية وأوراق مالية صغيرة . وكان المطر يومئذ
قد توقف بعد أن ظل يهطل فترة طويلة . فبدت السماء صافية
نظيفة ولكن ثمة لونا دخانيا متعادلا كان لايزال يظللها بشيء
من القتامة وكان زرقتها المألوفة لم يحل محلها لون السحب
الرمادى المختلط الذى يتلاشى بسقوط الامطار أو بمطاردة الريح
بل حل محلها لون مختلف أكثر استقرارا وأشد ظلمة كما

انه ثابت الى الابد لايتغير . وكان الهواء البارد الساكن يوحى
بالارهاق الذى يعقب العاصفة العنيفة . ولكن ثمة سر با من
الغربان كان يحوم قريبا من الأرض بدا وكأنه بصيحاته
المتفرقة ينذر الناس بمزيد من المطر . وشق لوقا طريقه صوب
الحدائق العامة غير بعيد من منزله وهو يتطلع الى السماء
ويقلب النقود فى جيبه . كان يعلم ان المكان مقفر فى تلك
الساعة من النهار وانه يمكن أن يعمل يحدوه يقين من انه بعيد
عن أعين الرقباء . مر من خلال البوابات الكبيرة وتوغل فى
أعماق الحدائق . كان يعرف وجهته بالضبط - فهو يقصد
مكانا ارتبط بذاكرته منذ أيام طفولته على ورقة ثابتة راسخة .
كان مكانا مكشوبا تحده من ثلاثة جوانب أشجار السنديان
الضخمة المورقة ومن الجانب الرابع سور للزينة مزخرف بالكوى
والأعمدة والنقوش الرومانية . وفى الناحية الاخرى من السور
كانت توجد حديقة الحيوان حيث يسمع غالبا زئير الوحوش
الجائعة . وكثيرا ما كان لوقا فى طفولته يأتى متنزها فى صحبة
مربياته الى هذا المكان الحزين المقفر الذى كانت حصباؤه
البيضاء تكتنفها أوراق السنديان البرونزية فتظللها . وبينما
تجلس المربية على تاج عمود ساقط وهى تقرأ فى كتاب كان
لوقا يتسلق المصبيعات الحديد فى نوافذ السور الحالية محاولا
أن يتطلع الى حديقة الحيوان الممتدة فيما وراء السور أو
يتجول خلال دغل السنديان عند حافة المكان المكشوف حيث
يتكاثف الظل وتكسو الارض طبقات عديدة من الاوراق الذابلة
التي جف سطحها ورطب باطنها فى لمعان . وكانت تنمو هنا
وهناك كتل من حشائش القريص بدت وكأن خضرتها اللامعة
تقتات من كل هذا العفن والذبول مما يملأ نفس لوقا بالنفور . وذات
يوم دار حديث فى منزله بين المربية والخادم حول جريمة
قتل . فقد لقي شاب مصرعه ولم يعثر على جثته . ولكن
بعض الملابس الملوثة بالدماء والمكان الذى اكتشفت فيه جعل
من المرجح أن تكون الجثة مدفونة فى احدى الحدائق العامة
الكثيرة فى البلدة . وأخذ لوقا ينصت طويلا الى تعليقات
المرأتين دون ان ينبس بكلمة وهو يتظاهر باللعب . وأخيرا

سأل الخادم قائلاً - « ولماذا قتلوه ؟ » فأجابته قائلة في مرارة مدعية الحكمة - « لانه كان وسيما خيرا . هذا هو السبب . . . ولانه لم يخلق لهذا العالم . » فصدمته هذه العبارة وسكت بعد ذلك عن سؤالها . ولكنه فيما بعد رسخ في ذهنه - وما كان في امكانه ان يفسر ذلك - ان جثة الشاب كانت مدفونة في نفس ذلك المكان المكشوف الذي طالما تردد عليه في نزواته مع مربيته . ولم يكن لهذا الفرض في الواقع أساس من الصحة أيا كان مخطئا او تافها . وربما كان ذلك هو السبب في انه بدا له قويا لا سبيل الى دحضه . وكان يسره وهو يتجول هنا وهناك في ذلك المكان المكشوف وقد امتلأ ذهنه بهذا السر المخيف الذي فتن به في نفس الوقت - ان ينظر في يقين الى تلك البقعة المحددة حيث كانت الجثة تتحلل تحت ارضها . وكانت تلك البقعة محصورة في الزاوية فيما بين السور والدغل عند أسفل شجرة السنديان الضخمة . وكثيرا ما كان لوقا يتوقف عند هذا المكان وهو يعبث بقدمه بين الاوراق الذابلة أو يثقب الارض الرخوة من حوله بعضا . كان يعلم أن جثة الرجل الميت راقدة هناك في أسفل . وما كان يمكن بحال من الاحوال ان يتنازل عن اعتقاده هذا . وفضلا عن ذلك فانه لكثرة تفكيره في هذا الموضوع فقد صور الجريمة في ذهنه من جديد على طريقته الخاصة بل أنشأ في ذهنه صورة للقتيل والقتلة . ومن الواضح ان القتل كان شابا وسيما خيرا كما قالت له الخادم ولكن وسامته وخيره كانا من نوع خاص لا يظهر مطلقا للعيان بل يخفى على معظم الناس ويظل سرا لا يعرفه أحد - اما الآخرون فلقد تمثلهم لوقا في صورة مماثلة تماما لكل من يلقاه في الطريق من المارة العاديين المجهولين - وربما قتلوه ليسلبوه نقوده كما قالت الصـحـف ولكن الحقيقة الخالصة كما قالت الخادم هي ان القتل كان بدافع الكراهية لوسامته وخيره ولابعاده عن العالم الذي لم يخلق له . وكان عندما يفكر في الشاب وفي مصرعه يحس نحوه بجاذبية مروعة وبالشفقة والحنان في نفس الوقت . ثم خيل له بمضى الزمن وهو لا يكاد يدرك

ذلك أنه هو نفسه القتييل وان جثته مدفونة أسفل شجرة السنديان . وقد بدا له هذا الازدواج النفسى الذى جاء نتيجة لشغف مخيلته بمظهر القتييل ومصيره طبيعيا للغاية . ولم تكن هذه أول سابقة من نوعها تحدث له . فقد كان يتراءى له فى مناسبات اخرى عندما يقرأ كتب المغامرات انه احدى الشخصيات البطولية الناجحة . ولكنه لم يسبق له ان لاستهواه مصير قاتم على هذه الصورة . وراوده شعور غامض بأن ازدواجه هذا على خلاف ما حدث له من قبل كان راجعا الى أسباب عميقة ، الى فكرة راسخة فى ذهنه تعبر عن رسالته كاملة فى الحياة . وكما يحدث عادة فان هذه الفكرة الراسخة تلاشت رويدا رويدا على مر السنين كالضباب الذى يتلاشى عند شروق الشمس ، واستحوالت الى ذكرى حزينة وأخيرا طواها النسيان .

ولكن اذا بها الآن تعاوده وهو فى طريقه الى البقعة المكشوفة فى الحدائق غير انها كانت فى صورة مختلفة . فقد كان يعلم عندئذ ان تلك البقعة لم يدفن بها احد ولكنها - وقد احتلت من خياله الى الابد مكانا مقدسا - فقد ظلت بقعة ينبغي ان تدفن بها جثة ما . وسوف يدفن نقوده فى نفس تلك البقعة التى خيل له فى وقت ما ان القتييل راقد فيها . وبدفنه النقود هناك يكون قد دفن نفسه أيضا فى صورة ما - او على الاقل ما ارتبط من نفسه بهذه النقود . كما اختلطت ايضا بهذه الامور الخطيرة على صورة غامضة ذكرياته عن كنز مدفون فى ظروف تكتنفها المغامرة جاءت صدى لقراءاته فى باكورة أيام شبابه .

وكانت فى ذهنه بالذات قصة « البقة الذهبية » The gold Bug لادجار آلان بو . ولكن ذلك كان نوعا من أدلة البراءة بغية ابعاد كل أثر لصفة الفاجعة عن شخصيته حتى تظل داخل حدود اللعبة . فضلا عن النقود فقد أحضر معه زجاجة دواء زرقاء اللون دس فى داخلها بطاقة تبين

Edgan Gillan Poe (١)

١٨٠٩ - ١٨٤٩ شاعر أمريكي وناقد وكاتب قصصى .

بالضبط المكان الذي سيدفن فيه كنزه الصغير . ولما كان
يجهل الشفرة تماما فقد اكتفى لوقا بكتابة الشرح بلغة طلابية
دارجة مضييفا الحرف « ف » الى كل مقطع . وصحت نيته
على ان يخفى هذه الزجاجة في تجويف احدى اشجار
السنديان المحيطة بالمكان تماما كما ورد في القصة .

سار عبر مرجة كبيرة مربعة وهو ينظر امامه مباشرة .
وكانت جذوع السنديان السوداء في الجانب القصى من المرجة
تتمايل هنا وهناك كحشد من الناس انتابهم الذعر فأخذوا
يتمايلون اقبالا وادبارا قبل ان ينفضوا هاربين . ومن خلال
اشجار السنديان ظهرت الحصباء ببياضها الشاحب واضحة
في الضوء فلمح لوقا البقعة المكشوفة ومن خلفها السور .
واقترح الدغل وهو يمشى بلذة مدركة على بساط منحدر من
الاوراق الذابلة . وفي وسط السكون المخيم تحت الاشجار
سمع صفير طائر . وما ان استدار حتى رأى الطائر نفسه
بحجمه الكبير ولونه الاسود يثب على الارض ثم يطير ويختفي
بين الاوراق . كما لاحظ ان ثمة احساسا بالحرية اخذ يراوده
وهو يشق طريقه خلال الغابة . ولشد ما بدا له العمل جميلا
رائعا حتى ولو كان من اجل تدمير حياته . وكان العمل
ينحصر في القيام بأعمال تطابق افكار المرء ولا تدفعه اليها
الضرورة فحسب .

كان المكان مقفرا من الناس . فتجول فيه قليلا عائدا
بذاكرته الى ذلك الوقت الذي كان مقتنعا فيه بأن الجثة مدفونة
هناك . وبدا له انه يكتشف من جديد احساسه الموحش
المشئوم الى حد ما دون ان يطرأ عليه تغيير ما - ذلك الاحساس
بالمكان الذي فتن به في طفولته . نظر الى السور بكواه الخاوية
ونقوشه المتقطعة وطنفه المتهدمة . نظر الى النوافذ وفي
اسفلها المقاعد والمصبعات الحديد . وتسلق احدى تلك
النوافذ حيث تطلع من خلالها الى الجانب الاخر في داخل
حديقة الحيوان . فأمكنه ان يرى فى سور من الغار أوراق
النباتات السميكة التى خيل له انه لمح بينها طائرا كبيرا غريبا
بريشه الذى اختلط فيه اللونان الاخضر والذهبي . وجفل

عند سماعه زئيرا بعيدا . فقد كانت الوحوش جائعة كما هو
حالتها دائما وكما كانت في الايام الخوالي . ثم هبط الى الارض
مرة اخرى واتجه صوب البقعة التي ينشدها . كانت شجرة
السنديان الهرمة نفسها لا تزال هناك وفي جذعها
شق اسود كبير وقد امتد فرعها الرئيسي تجاه المكان المكشوف
واستند الى متكأ من الطوب فبدا كذراع الكسيح المستندة الى
عكاز . وفي اسفل شجرة السنديان كانت الجثة مدفونة .
وما لبث ان عاوده في الحال احساسه بأنه هو نفسه المدفون
هناك وانه هو نفسه الذي قتل بلا رحمة بكل ما في ذلك
الاحساس من قسوة وشجن .

جنا تحت الشجرة وأخذ يشق حفرة بمديته . وكانت
التربة اسفل الاوراق الذابلة رطبة خفيفة ملئت بشظايا
متآكلة من لحاء الشجرة . ففتت التربة ثم جرف التراب
بيده الى الخارج وكدسه جانبا في كومة صغيرة . وعندما
فرغ من الحفر اخرج الاوراق المالية من جيبه في بطء وأخذ
يمزقها احداها تلو الاخرى فتساقطت قصاصاتها في الحفرة .
واكتشف ان ثمة شعورا عميقا بالكراهية كان يراوده قبل
نقوده - تلك الكراهية التي يحس بها المرء نحو طاغية تمرد
عليه . وكان مما زاد في كراهيته اعتقاده ان النقود موضع
احترام عميق للغاية عند والديه وانه هو نفسه قد مرت به
اعوام عدة وهو يتلو صلواته أمام خزانة مملوءة بالنقود دون
ان يدري ذلك . فأحس أثناء تمزيقه الاوراق انه ينتقم
لصلواته وانه يؤدي عملا يبغى منه اصلاح ما فات . غير ان
النقود ايضا كانت مقدسة - ولكن بطريقة تختلف تماما عن
قدس الصورة التي كانت تختفي خلفها اثناء صلاته . كانت
مقدسة بسبب ما عليها من صور ملكية ورموز تضمن قيمتها .
كما انها مقدسة لانها ربما كانت تعنى السعادة للكثيرين من
الناس - لذلك الرجل الفقير مثلا الذي كان في كل صباح يمد
له يده عند ناصية الشارع وهو في طريقه الى المدرسة ولكن
اعطاءه اياها لرجل فقير كان يعنى اساسا انه يحترمها
ويعترف بقيمتها في حين ان لوقا كان يريد بدلا من ذلك ان

يحطمها حقا لا رغبة منه في ان يفعل ذلك فحسب بل في الواقع والحقيقة - ولما كان يحس انها معبود بغيض لم يجد سبيلا الى تدنيسه كلية سوى تمزيقه اربا اربا كفرا به .
وعندما انتهى من تمزيق الاوراق خلط القصاصات معا ثم اخرج من جيبه ظرفا مليئا بالقطع الفضية ودفع به الى قاع الحفرة فوق الاوراق - أخذ يؤدي هذه الاعمال وقد راوده احساس بالقسوة كان رغم امتزاجه بالحزن المميت جادا مدركا . وعندئذ عاودته من جديد ذكرى الرجل الميت الذي قتل ودفن هناك فاجتاحه مرة اخرى ذلك الشعور الغريب بالرتاء لنفسه . وكان في تلك الاثناء يملأ الحفرة بالتراب .
وما ان فرغ من ذلك حتى سوى التربة وغطى كل شيء ببساط من الاوراق الذابلة .

نهض وهو ينفض التراب عن سراويله عند الركبتين وقد علاهما البذل والقدارة . ثم تذكر الزجاجاة الزرقاء وقصة ادجار آلان بو - ولكنه الآن كانت تعوزه الشجاعة لتنفيذ هذا الجزء من الخطة . فقد راوده شعور بالانقباض المذهول الحزين وأدرك ان الامر لم يكن لعبة قبل كل شيء . ووجد انه لم يكن ذلك القرصان الصلب الملوث بالدماء في ختام حياة الحرية والمغامرات . وان هذا المكان المكشوف لم يكن شاطئاً مهجوراً في بلاد همجية وان احداً لن يفرح في الواقع باكتشاف كنزه الصغير المسكين الذي يتألف من الاوراق المالية الممزقة وقطع النقود الصغيرة . وبدت له في الحال صورته العادية المألوفة التي لا يعزیه عنها شيء كما بدت له صورة المكان وصورة الكنز بطابعهما العادي خير دليل على جديته العنيدة فيما كان يقوم به وخير دليل على استحالة خداع نفسه باعتبار ما حدث لعبة فحسب . فأخرج الزجاجاة من جيبه وفضها ثم سحب منها القرطاس الصغير الملفوف ومزقه اربا . كما سحق الزجاجاة بعقبه . وبدا له عند رحيله انه تصرف كالمجنون . ومع ذلك فلا بد ان جنونه ينطوى على بعض المعنى . . ولكنه لم يمكنه بعد ان يكتشف ذلك .

- ٦ -

ومنذ ذلك اليوم فصاعداً بدا لوقا وكأنه قد استغرق في

سبات شبيه بالموت كما لو كان جسده - وقد حل به الانهاك بعد ما ابدى من دلائل قوة الارادة - أخذ يسترد نشاطه لبذل مجهود نهائى حاسم . فكثيرا ما كان يستغرق فى النوم اثناء أدائه الواجب المنزلى . وكثيرا ما كان يستسلم لنوبات الشرود فى المدرسة مما يجعل أصوات الاساتذة تبدو له وكأنها تدور من حوله فى سكون مستمر خاو كصوت حاك مكسور لا يفتأ يردد نفس العبارة الى ما لانهاية . ومالبث الشتاء أن عاد سيرته الاولى بعد بضعة أيام جميلة ولم يكد بعد ذلك ينقطع المطر الذى كان يبدو قاتما أسود اللون وهو يسقط من سماء حالكة الظلمة وكأنه قد خلط بالطين ناشرا الظلام فى كل مكان مما حجب الى لوقا ان ينطوى على نفسه ويستغرق فى النوم الى الأبد . وكان أحيانا اثناء أدائه دروسه يرفع عينيه تجاه النافذة حيث يخيل له ان السماء تصفو ويبدأ رويدا رويدا فيستغرق من جديد فى عمله وبعد مضي نصف الساعة يشخص اليها ببصره مرة اخرى فتأخذه الدهشة لمنظر المطر الرمادى الغزير وهو يتدفق فى موجات ساكنة على زجاج النافذه . كانت السماء أشبه بشخص يبكى من حزن عميق لا يكاد يبدو بين آونة واخرى أنه قد هدأ قليلا وصفا بعض الشئ حتى ينتابه الحزن من جديد وتنهمر الدموع من عينيه فى غزارة وعنق لم يسبق لهما مثيل . ولشد ما كان يحب تلك الساعة التى تفصل النهار عن الليل حين يروقه ان يجلس متكئا الى منضدته امام النافذه التى يتدفق عليها المطر فى خطوط وهو يكره نفسه على القراءة او الكتابة وسط الظلمة الزاحفة حتى تأتى فى أوائل الشتاء تلك اللحظة التى يسقط فيها ضوء الشفق على صفحة كتابه على شكل غبار غير محسوس عندئذ ينهض عن المائدة ويذهب ليرتمى على الفراش حيث لا يلبث أن ينلم فى الحال دون ان يتم واجبه .

حينئذ كان لوقا قد شرع فى تنفيذ آخر جزء من خطته - الموت الجسمانى . ولكنه بدأ تلك التجربة على غير وعى منه وعلى صورة غير مباشرة وذلك بملاحظة نهمه فى تناول الطعام لكى يصل بالتالى الى قرار بقمعه تماما كما قمع من قبل كبرياءه فى العمل بالمدرسة وتعلقه بممتلكاته . كان لا يفتأ يستمتع

بتناول الطعام وخاصة في وقت الغداء عند عودته من المدرسة .
فقد كان يبدو حينئذ وهو ينقض على الطعام في شراهة كأنه يقر
بكامل كيانه كل ما أداه من أعمال وكل ما كان عليه قبل جلوسه
الى المائدة . فضلا عن ذلك فقد كان بغض النظر عن الشهية
كما يحدث دائما يؤثر الوانا من الطعام بعينها كالحلوى والكعك
ولذا فانه عند تشغيل جهاز « لعبته » المعتادة حرص على
ألا يأكل سوى كمية صغيرة من ألوان الطعام العادية وأن يتجنب
تماما كل الالوان التي يؤثرها على غيرها . . . ففي أول الامر
أنقص من طعامه ربع الكمية التي يتناولها ثم خفضها الى النصف
وكان ينهض عن المائدة جائعا ولكن ذلك الاحساس كان لا يلبث
أن يختفى . . . حقا انه كان يعاوده مرة أخرى قرب المساء ولكنه
حينئذ كان يحاول أن ينام وينجح بذلك في اسكات جوعه . . .
وعلى أية حال فقد بدا له أنه كلما قلل من كمية طعامه صار
النوم أيسر منالا . . . وخيل له حينئذ أن الموت له قواعد شأنه
في ذلك شأن الحياة . . . فان كانت الحياة تعنى التحمس
لدروسه وحبه لوالديه وادخاره للنقود وتعلقه بممتلكاته وتناوله
الطعام فان الموت بالتالى يعنى بلا ريب الامتناع عن الطعام
والتخلص من كل حب للاشياء والناس كما كان يعنى النوم
قبل كل شىء .

ولم يبد أن والديه قد لاحظا فقدانه الغريب لشهيته . . . أو
الاحرى أنهما ربما لاحظاه فعلا - كما خيل له - ولكنهما لم
يعلقا عليه أهمية ما لتعودهما على تقلب أهوائه فيما يخص
الطعام وكثيرا ما كان يحدث ذلك . . . ومع هذا فان والدته قالت
له يوما ما فى لهجة صارمة - لم لاتأكل ؟ . . . ففي مثل سنك
يحتاج جسمك الى الغذاء . . . ينبغى ان ترغب نفسك على تناول
الطعام حتى وان كنت لاتشعر بالجوع . . . فان لم تأكل فكيف
يمكنك أن تؤدى دروسك ؟ . . . فحدث لوقا نفسه قائلا فى
سرور : نعم . . . كيف يمكننى أن أؤدى دروسى ؟ . . . كان يسر
لاعتقاده أن والديه لايدور بخلد هما قط أنه يمتنع عمدا عن
الطعام بغض النظر عن شهيته التي كانت لا تفتأ تحفزه على
تناول الغذاء . . . ولقد أدرك فى الحال أن من بين جميع أشكال

التمرد كان الامتناع عن الطعام اخطرها طرا وأكثرها أهمية . .
فلشد ما يدمر هذا التمرد السلطة الابوية . . اذ أن ابويه
ما وجدا الا ليطعماه . . فقد ارضعته أمه اللبن من ثديها . .
وكان أبوه فى كل صباح يغادر المنزل بحثا عن النقود التى
يعوله بها كما يفعل الصياد البدائي الذى يترك كهفه عند الفجر
مسلحا بقوس وسهم ليقتل حيوانا يطعم به أسرته . . انه يبلغ
الحد الاقصى للتمرد وأنه وصل الى جو قليل الكثافة تعسرت
فيه لعبته واشتدت خطورتها . . كان أبواه يريدان منه أن
يأكل حتى يقوى ويعيش . . أما هو فقد استحوذ عليه احساس
بالثورة العارمة فعاف الطعام ورجب فى الموت . . وكانت
اللعبة لاتزال مستمرة . . ولكنه كان عاجزا تماما عند التكهن
بمدى قدرته على متابعتها وذلك لان الموت لم يبد له بعد هدفا
محددا مع ان كل عمل من أعماله كان يؤدي اليه .

وذات يوم وضعه والده فى موقف حرج لا بمناشدة شهيته
بل بمناشدة شعور أعمق كان لا يدري أنه يكنه فى نفسه . .
وكانت قد مضت فترة وجيزة على انقاصه كمية الطعام التى
يتناولها . . ولكنه كان من الواضح أن والديه لا يعلقان أهمية
كبيرة على فقدانه الشهية . . يومئذ لاحظ لوقا وجود حزمة
بيضاء الى جانب صحيفة والده . . وعندما انتهى الغداء رأى والده
يتناول الحزمة ويحل وثاقها فى مهابة .

وكانت تحوى كعكة من ذلك الصنف الذى لشد ما كان يهواه
لوقا فى وقت من الاوقات . . ونحى أبوه الورقة والخيط جانبا
ثم وضع الكعكة على احدى الصحف قائلا بصوته البطيء الذى
ينبئ بالطيبة « لقد ابتعت كعكة . . كنت مارا بمحل الحلوى
فخرجت عليه واشتريتها . . لاريب انها ممتازة »
فقال الأم : ان كنت قد ابتعتها لى فأنت تعلم تماما اننى
لا أحب الكعك .

فقال الاب : الواقع اننى اشتريتها للوقا . . فانه كان يؤثرها
فى وقت من الاوقات . . ولكنه ربما - ثم غمز بعينه غمزة
مدركة ، وأردف قائلا : ربما تغيرت آراؤه الآن وقد كبر . .
وفيما هو يتكلم دفع الصفحة تجاه لوقا .

فقال لوقا خافضا عينه - لم أعد احس بالجوع .
فقال له أبوه : هيا . . لابد ان هناك حيزا صغيرا يتسع لها .
كان يتكلم دائما بلهجة متوسلة . . ولكن صوته الذى
لاتفارقه مطلقا نبرة التوسل بدا للوقا يومئذ وكأنه على علم
بشيء . . وأعاد لوقا كلامه قائلا :
- كلا حقا ، فأنا لست جائعا . .
فردد والده حديثه قائلا :
- هيا . . هيا . . هيا يالوقا . . خذ منها قطعة صغيرة . .
وأضاف قائلا فى لهجة مازحة :
- وعلى أية حال فلتأكل منها ما يكفى فقط لارضاء أبيك . .
ثم تحول نحو زوجته وهو يختتم حديثه قائلا :
- أتذكرين أنه ما كان عليك الا ان تقولى له هذا لياكل عندما
كان طفلا ؟ .
فقالت الام :

- دعه وشأنه . . فان لم يكن جائعا الان فسوف يأكلها هذا
المساء أو غدا . . فهى لاتفسد .
ولكن لوقا بدا له ان والده - وهو يتوسل اليه بهذه الطريقة
. . كان لايقول له كل . . بل . . عش . . وأحس فى الحال
بالحب له والرثاء لنفسه فى الوقت ذاته . . وخيل له أن والده
لاريب قد خمن سره لاعن طريق ذكائه الذى لم يكن معدا لمثل
هذه الامور بل عن طريق ما فى نفسه من الخير - ذلك الخير
نفسه الذى جعله فى وقت من الاوقات يبدو كاملا معبودا
والذى بدا لعينى لوقا على الرغم من الاحداث التى أزالته عنه
الوهم أنه ما برح يحتفظ ببعض اثاره . . واجتاحه اغراء قوى
بقبول الكعكة والتهامها وبقبول الحياة معها . . ولكنه ادرك فى
نفس اللحظة أن قبوله الحياة فى صورة قطعة من الكعك حتى
ولو كان أبوه هو الذى يقدمها اليه بما أوتى من خير يصير فى
نظره سقطة تعسة بعد ما حطم حياته المدرسية وبعد ما تخلص
من كل ما كانت تهواه نفسه . . فجز على نواجذه وطأطأ رأسه
فوق صحفته وسمع أباه يلح قائلا له :
- حسنا ؟ . . الا تريد شيئا منها حقا ؟

فردد لوقا قائلا : لست جائعا .
وجلس فى سكون تام حانى الرأس .
وساد الصمت لحظة . . ثم قال أبوه دون ان يظهر عليه ما اذا
كان رفض لوقا قد كدره فعلا : لقد ابتعتها خصيصا لك . .
ولذلك فسأضعها لك على البوفيه . . وعندما تهفو نفسك اليها
وتطمئن الى غيبة الرقباء فستأكلها أليس كذلك ؟ .
وأحس لوقا فى نفس اللحظة بلمسة من يده على وجنته . .
فسرت فى بدنه القشعريرة .
وترك هذا الحادث فى نفسه احساسا بالالم العميق . . اذن
فانه مازال موثوقا لابقىود لم يتخلص منها بعد بل بأشياء كان
يخيل له أنه قد حطمها الى الابد كحبه البنوى . . ومنذ ذلك
اليوم فصاعدا اشتدت فى نفسه اكثر من ذى قبل رغبته فى
اعتزال الحياة .

- V -

حينئذ مرضت احدى خالاته ولكى يوفر لها الهدوء التام
اتفقت الاسرتان على أن يقضى أطفالها نهارهم فى منزل خالتهم
وكانوا فتاتين توأمين وغلاما صغيرا يناهز الثامنة من عمره وفى
صحبتهم مربيتهم وهى امرأة عزب من أسرة طيبة كانت تعمل
من قبل مدرسة للغة الفرنسية . . وكانت تناهز الخامسة
والثلاثين من عمرها . . وربما زاد من ضآلة قوامها ذلك التفاوت
بين كتفيها الضامرتين وبين رأسها الكبير يعلوه عقيصة شعرها
. . لم تكن جميلة بل كانت عيناها البليدتان الخاليتان من كل
تعبير فى مستوى وجهها وكان السواد لايفتا يظللها فتبدوان
وكأنهما مكدومتان . . كما كان الزغب الاسود يظلل وجنتيها
المتقعتين المترهلتين الى حد ما وفمها البارز المسترخى . .
ولكن حيويتها الخارجة عن المألوف وشخصيتها المرححة كانتا
تعوضان الى حد ما عن مظهرها العليل وافتقارها الى الجاذبية
. . فلم يبد فقط أنها تؤدى فى اقبال تام واجبها الحقير الممل
كمربية للاطفال بل كانت باللهو مع تلاميذها الثلاثة تبدو
وكأنها هى نفسها طفلة مثلهم . . كما كانت بوضع نفسها على
قدم المساواة معهم تضى على ذلك العمل شيئا من حماسها

الهوائى حتى أنها كانت تتشاجر معهم احيانا أو تنخرط فعلا
فى نوبة من البكاء اذا ما تناول عليها أحدهم . . ولشد
ما تناقضت تلك الطفولة مع ما يبدو عليها من شهوانية مكبوتة
. . لا تناسب الا مع امرأة ناضجة بلا شك . . وتتضح هذه
الشهوانية فيما يعلو عينيها من ارهاق وفيما تتميز به يدها من
جمال مثير الى حد ما وفى رقة حقويها . . وكانت لاتنقطع عن
الثرثرة بصوت صارخ واضح تتخلله حدة شكسة . . وكثيرا
ما كانت تتخلل حديثها نوبات من الضحك ذى الرنين الفضى .
وقد خصصت لها وللاطفال غرفة الجلوس المجاورة لغرفة لوقا
عما أضاف الى خموله والى رؤاه العقيمة وسبيلة جديدة هى
ضوضاء الاطفال الثلاثة مع مربيتهم لتشتيت ذهنه عن
العمل .

وفى الصباح كانت المربية تصحب الاطفال فى نزهة الى
الحدائق العامة . . أما فى ساعات القيلولة فكانت تحتبس
معهم فى غرفة الجلوس الصغيرة . . ومنذ تلك اللحظة فصاعدا
لاتنقطع الضوضاء حتى المساء . . وكانت صرخات الاطفال
وهم يركضون هنا وهناك طيلة المساء تبلغ سمع لوقا من غرفة
الجلوس المجاورة وهو جالس الى منضدته يثقل رأسه خموله
المعهود كما يبلغ سمعه صياح المرأة وهى تجرى معهم فى
اضطراب وحيوية لانهاية لهما ولايتطرق اليهما التعب . .
ولشد ما كان سكونه يبدو كئيبا ثقيلًا لتناقضه مع مرحهم . .
وكان يجفل من حين لآخر عند سماعه الاصوات الغامضة لارتظام
الاشياء كانقلاب قطع الاثاث وسقوط الاجسام على الارض ثم
يعقب ذلك ضحك مرح مكتوم . . أو يسمع المربية وهى ترفع
صوتها عاليا بوضوح فى سطوة عابثة محذرة الأطفال من
الضوضاء التى لاتلبث بعد فترة صمت وجيزة ان تنفجر من
جديد أكثر دويا وتركيزا من اى وقت مضى . كان الأطفال
بطبيعتهم صاخبين وكانت المرأة الشابة تستثير صخبهم بسرعة
بديتها وحيوية مزاجها . وكانت المربية احيانا عندما تبلغ
الضجة ذروتها تفتح باب غرفة لوقا داسة رأسها الى الداخل
وهى تسأله بطريقة هى مزيج من الادراك والرياء عما ان كانوا

يزعجونه .. كان سؤالاً عقيماً لا معنى له وقد بدا انه لا يعدو أن يكون جزءاً من خطة عامة وضعت للحيلولة بينه وبين العمل .. فيجيبها لوقا دون أن يستدير نحوها بأن الامر لا يهم وانهم في حل من ان يحدثوا ما شاءوا من ضوضاء .. فلم يكن متحمساً قط للعمل .. وكان هذا النشاط الطفولي ذريعة اخرى لمتجنبه .

ولكنه كان احياناً تكاد تراوده الرغبة في مشاركتهم لهوهم الذي لشد ما تنوع ولشد ما اختلف عن « لعبته » الحزينة التي لم يكن يشاركه فيها أحد .. فينهض عن المنضدة ويفتح باب غرفة الجلوس حيث يتطلع الى الداخل . وعندئذ يقع بصره على مشهد من الفوضى والمرح الطفولي - فيرى مقاعد مقلوبة وموائد نحيت جانبا كما يرى المربية وهي نمشي على أربع فوق السجادة رقد اعلى ظهرها أحد الاطفال فيقف مشدوها في مدخل الباب وهو يراقبهم بينما يواصلون هم لهوهم وكأنه لا وجود له .. وبينما كانت المربية تدور هنا وهناك على الارض زاحفة على يديها وركبتيها وقد اعلى ظهرها الفارس الصغير اذ بها تتطلع اليه بوجه ضاحك من تحت شعرها الاشعث الذي تهدل فوق انفها وتساله بطريقتها المعهودة عما ان كانوا يزعجونه دون قصد .. فيجيبها لوقا قائلاً في ارتباك :

- كلا .. كلا .. استمروا .. اني ألقى نظرة فحسب ..
لملأ للراحة ..

ولكن المربية لم تعد تنصت اليه .. وبهزة قوية من جسدها تتخلص من فارسها الذي يتدحرج ضاحكاً على الارض .. ثم تنهض واقفة وقد تغضن ثوبها واضطرب هندامها معلنة في صوت ذي سطوة : «والآن فلتنصتوا جميعاً الى .. فسوف تبدأ لعبة مختلفة تماماً .. ولكن انصتوا الى فلن أعيد شرحها» . وأحس لوقا بميل نحو المربية لانها بدت شفقاً مرحة بسيطة .. ولشد ما كانت تختلف عن أمه التي ما كان يمكن قط ان تحلم باللهو مع الاطفال على هذه الصورة رغم امتلاء ذهنها بالنظريات التربوية الجامدة .. وجاء يوم أحس فيه لوقا بميله هذا وقد تعقد فجأة بشعور من نوع اخر .. فقد حدث ذات

مساءً أن لاحظ لوقا على الرغم منه بينما كان يراقبها وهي تدور عبر الغرفة تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار وقد اعتلى ظهرها الغلام الصغير استدارة أردافها التي ارتفعت في الهواء على صورة حيوانية . . وما إن أتت حركة وهي تستدير نحوه حتى شدت عينيه رغم إرادته تقريباً إلى صدرها الذي كان وهي في وضعها هذا واضحاً تماماً للعيان من خلال فتحة سترتها كما وضحت الحدود الخارجية الكاملة لتديها الرقيقين ببياضهما الناصع . وقد تدلى هذان الشديان تماماً كثنديي الحيوان وأخذاً يتأرجحان مع كل حركة تصدر منها . . ولم يستطع لوقا مطلقاً أن يحول عنهما بصره رغم أنه كان يحدث نفسه قائلاً إنه من التهور الشديد أن يركز عليها عينيه . . وعندئذ رفعت وجهها نحوه فالتفت عيناها بنظرته في صراحة وبحركة غريزية رفعت يدها إلى صدرها . . ولكن بدا أن خاطرهما طراً فجأة على ذهنها فأوقف حركتها الأولى التلقائية المتواضعة . . ولم تزد على أن أرقدت شعرها إلى الخلف ثم واصلت عرضها عبر الغرفة صائحة ضاحكة . . وما إن لاحظ لوقا هذه الحركة حتى تأكد أنها قد غيرت منها وعدلتها على سبيل الدلال فأحس في الحال بأضطراب عميق . . عندئذ كانت متجهة صوب ركن بعيد من الغرفة وهي مازالت تمشي على أربع بينما كان لوقا يراقبها وقد اعتلى ظهرها هذا الفارس الصغير ولأول مرة لم يسعه إلا أن يستنكر تصرف الصبي وهو يصفعها بيديه على أردافها معتلياً ظهرها تماماً كما يصفع الحصان على ثغره . . ولعلها لاحظت نظراته تلك فقد هزت أردافها فجأة على صورة بدت له مثيرة . . ولكن هذه الحركة جعلت الطفل يتدحرج على الأرض . . وارتطم رأسه بزاوية الخزانة فانفجر باكياً . . وسرعان ما تحولت على الفور من حيوان إلى امرأة فنهضت واقفة وأمسكت بيد الطفل ثم قادت إلى أسفل المصباح وهي تسأله عن موضع إصابته . . وعاد لوقا إلى غرفته .

وفي خلال الأيام التالية لاحظ أنه أكثر من نهوضه عن المنضدة متذرعاً بحجة أو أخرى أو بدون حجة على الإطلاق ليتجه إلى باب غرفة الجلوس حيث يتطلع إلى الداخل . . وكان

يتمنى لو اختلق الكذوبة يخفي بها حقيقة انجذابه - ارضاء
لنفسه قبل ان يكون ذلك ارضاء للمرأة التي خيل له أنها
مسرورة لفضوله . . ولكنه لما كان الكذب على نفسه ليس من
عاداته فلم يمكنه ان يفعل ذلك . . واعترف أمام نفسه في
صراحة تامة أنه كان يتطلع الى الداخل عند باب غرفة الجلوس
ليرى المربية . . وأنه عندئذ كان يأمل أن يراها مرة أخرى في
ذلك الوضع الحيواني نفسه وهي تزحف على اربع وقد ارتفع
ردفاها في الهواء وتدلى ثديها في اهتزاز . . ومع ذلك فقد
كان الاحساس بلذة ما في نظر لوقا وقتئذ معناه كراهيته اياه
في الحال . . ولذا فانه سرعان ما كرس جهوده لتحطيم هذا
القييد الجديد بنفس الحماس الذي راوده وهو يقوم بتضحيته
بكتبه ونقوده وبالقضاء على حياته المدرسية .

وحاول في أول الامر ان يسيطر على نفسه وينحى عنها الرغبة
. . ولكنه سرعان ما لاحظ بعد مقاومته اياها تسع مرات أنه
قضى على كل ما حققه من نجاح بنهايه في المرة العاشرة وتطلعه
الى الداخل عند باب غرفة الجلوس على طريقة أكثر وضوحا
وارتباكا مما تعود أن يفعل . . وعندئذ جرب بغريزته طريقة
أخرى . . فكان يذهب الى هناك ويتطلع الى الداخل ماشاء له
ذلك ولكنه سعى الى تغيير طبيعة متعته بمراقبة المرأة في دقة .
فقد كانت متعته في أول الامر أصيلة رغم اختلاسها - مرحلة
غير مبالية شأن من أوحى بها رغم تحريمها . . أما الان فكان
هدفه أن يدخل فيها نكهة جديدة وهي النفور البدني والادبي -
فاستغل على غير وعى منه نفس الدهاء الذي انتفع به في حالتي
النقود والكتب - ذلك أنه أحبهما وأفرط في حبهما حتى وفق
الى اكتشاف مرارة الشبع المقيتة والعبودية الضارة المؤذية في
أعماق هذا الحب الحلو اللذيذ . . ولشد ما ساعدته هذه المرارة
على التخلص منهما . . وهكذا فانه بتطلعه الى المرأة في غير ما تحفظ
- تحدوه قسوة أحس أنها لاتجد مطلقا ما يبررها وأنها أشد
بأسا منها في أى وقت مضى - انما كان يسعى الى الوقوف على
ما يشوب هذه المتعة الجديدة . . ولكنه على خلاف ما حدث في
حالاتي الكتب والنقود ما ان وقف عندئذ على ما يشوبها حتى

اكتشف لدهشته أن القيد بدلا من أن ينقسم زاد في الواقع
قوة ووثوقا .

وقد انحصرت هذه الشائبة بصفة رئيسية في طبيعة تأمله
المحرمة المختلصة غير المشروعة كما أحس بذلك منذ البداية
ولكنه لم يعلق عليها أهمية كبيرة . . غير أن المتعة التي كان
يستمدّها من تأمله ربما لم تزل أقوى مبرر لتصميمه على التخلي
عنها . . لم تكن جميلة كما أدرك ذلك على الفور . . وقد خيل
له في أول الامر ان تجردها من الجمال قد يخلصه بسهولة من
قيوده الجديدة - ذلك الجمال الذي لو وجد لكان من المحتمل
ان يخلق على صورة ما توازنا مع رغبته المكبوتة عن طريق
مجاهرته باعجابه البريء الخالي من الغرض . . فكيف يمكنه
في الواقع أن يعجب بساقيها القصيرتين البدينتين اللتين كانتا
عند ممارستها لعبة العدو في ارجاء الغرفة تبدوان للعيان حتى
فخذيها المضيئتين البيضاوين الباردتين فوق جوربيها المتدليين ؟
كيف يمكنه أن يعجب بثدييها الرقيقين المتدلين ؟ وأردافها
الكبيرة التي لا تتناسب مطلقا مع هيكلها . كما كانت عند وقوفها
تبدو منبعجة وكان ثيابها في هذا الوضع لا تستر جزءا من
جسدها بل صرة ثقيلة لاشكل لها ؟ . . وأحس بنوع من الراحة
لهذه الخواطر . . فقد كانت قبيجة المنظر حقا وقد فارقها
شبابها وأخذ جسدها يترهل فعلا . . وكان يأمل ان يضيف
قبحها وذبولها وترهلها عنصر النفور الى متعته وهو ما كان
يحدث بالفعل فينتهي الامر بكبح جماحها والوقوف دون تقدمها
. . ولكن هذا لم يدم طويلا . . فما كاد يتأملها لوقا مرة اخرى
وكان يخيل له عندئذ أنه يمكنه ان يفعل ذلك دون ان يراوده
الاضطراب حتى اكتشف أنها كانت تجذبه اليها بطريقة غامضة
لالسبب الا لترهلها وقبحها وعريها من الشباب . . لاشك ان
متعته كانت لا تزال تحتفظ بنكهة النفور المرير التي شاء عمدا
أن يضيفها اليها . . ولكنه لم يعد نفورا بل الاخرى انه اصبح
سببا جديدا اكثر اثارا من اسباب جاذبيتها . . ولم يسعه
الا أن يرى ان كل ذلك قد حدث دون ان يلاحظه بطريقة أشبه
بالتحول الكيميائي في أعماق أغوار الغريزة . . كما أدرك أيضا

أنه لو تمكن بمعجزة ما من أن يهبها الشباب والجمال لكان من المحتمل الا يحس نحوها بهذه الرغبة القوية . . وهكذا فقد أثبتت رغبة حواسه أنها أقوى من رغبته فى الموت . . أما وقد صار القبح جذابا فقد اعاده ذلك على الرغم منه الى الحياة التى لشد ما كان يرغب فى اعتزالها .

ودفعه هذا الاكتشاف الى اليأس . كما أدرك أن هذه النظرات المشتاقة الى أرداف المرأة وصدرها ان كانت خليقة بتقويض ذلك الصرح الشامخ الشاق الذى شيده تضحياته فأنها بالطبع لا تكفى لان تجعله يحيا على صورة ايجابية . وخيل له عندئذ أن الوقت قد فات وأنه قد فسم الخيوط التى كانت تشده الى الحياة . من المستحيل عليه الآن أن يبدأ الحياة من جديد . فكيف يمكن أن تكون الحياة بلا عواطف أو التزامات وألا يدعمها شيء سوى بضع لحظات من الشهوة المختلصة ؟

وعندئذ كانت المرأة نفسها هى البادئة وكأنها قد تكهنت بما كان يدور بخلده . فأصبحت الآن تقتحم غرفة لوقا ساحبة خلفها أحد الاطفال حيث تنهاوى الى الخلف على الفراش رافعة ساقها فى الهواء أثناء مبارياتهم المرححة المألوفة فى المصارعة . كما أصبحت تأتى مستطلعة عند باب غرفته لتعتذر عن ضوضائهم عندما تبلغ ذروتها . كانت تأتى هذه الاعمال فى وقاحة صاخبة ضاحكة مازحة ولكنها بدت فى نظر لوقا أنها لم تعد تلقائية كما كانت من قبل . ثم اخترعت « لعبة » جديدة كان يتحتم فيها أن يغادر أحد اللاعبين غرفة الجلوس فترة وجيزة . . وبدلا من أن تذهب الى الدهليز قصدت الى غرفة لوقا متعلقة ببرودة الدهليز . وتركت الباب مواربا واقتربت منه دون أن تحدث ضجة ما . وفجأة مالت فوق كتفه فتلامست وجنتاهما وقالت له :

— « ماذا تدرس ؟ اللاتينية ؟ »

— « كلا . الفرنسية . »

« كنت اقوم بتدريس الفرنسية .. دعنى أرى ماذا
تقرأ ... » « كورناى - Corneille ؟ »^(١)
وبدا صوتها فى أذنى لوقا خاليا من التعبير على صورة
غريبة على الرغم من مرحة . وعندما استدار قليلا ليجيبها
وجد وجهها يوشك أن يلامس وجهه كما وجد عينيها الكبيرتين
المستويتين تنعمان النظر اليه وقد ارتسمت فيهما ابتسامة .
ولاحظ لوقا أن وجنتيها كانتا غائرتين قليلا وقد علاهما شيء
من المسحوق الاحمر وأنهما كانتا تلمعان تحت ذرات المسحوق
كما لاحظ أيضا أن هذه السمة الدقيقة كانت كالعادة تروقه
لأنها تنفره . وربما أحست أن نظرتة كانت ثابتة على صورة
قاسية . إذ أنها قالت له ضاحكة - « استمر فى عملك ! » ثم
دارت على عقبها وانطلقت نحو الباب . وسمعتها تصيح
قائلة - « أيمكننى الدخول الآن ؟ » فصاح الأطفال مستجيبين
لطلبها ثم اختفت .

وفى اليوم التالى لم تكذ تأخذه سنة من النوم على الفراش
حتى أحس فجأة أثناء نعاسه المضطرب بثلاثة أجسام متحركة
مماسكة تسقط فوقه بعنف بغيض . لقد جاءت المريية
وتلاميذها الثلاثة وارتموا فوقه أثناء مطاردتهم بعضهم البعض
دون أن يخلو ذلك من بعض التعمد . وأخذ الأطفال الثلاثة
والمرأة يتصارعون معا ضاحكين صائحين كما أثيرت لوقا
أيضا فى هذا الصراع ليخلص نفسه . ولكنه لاحظ أنه كان على
الرغم منه تقريبا وقد اثبتت يداه فى هذا الصراع ينشد
بغريزته جسد المرأة كما بدا له أنها بدورها كانت تنشده هو
فى الوقت الذى أخذ فيه الأطفال يتصارعون بكل ما أوتوا من
عنف واندفاع كما أنها بدلا من أن تحاول تخليص نفسها بدت
راغبة فى اطالة العراك . وعندما أتت حركة لتخلص نفسها
من الاطفال وجد لوقا نفسه راقدًا هلى الفراش ، وقد امتدت
على وجهه احدى ساقها . وعندئذ تأكد لديه أنها فعلت ذلك
عمدا . كانت ريلة ساقها ترتفع ثم تهبط على فمه كهراوة
رشيقة من اللحم الخفيف اللين وكانت شفثاه تحسان عند كل
حركة من ساقها باختلاج عضلاتها التى شدتها حتى لاتصيبه

١ - كورناى (١٦٠٦ - ١٦٨٤) شاعر وكاتب مسرحى فرنسى .

بأذى . وأخيرا وثبت من الفراش صائحة - « انصتوا جميعا ! يكفى هذا الآن . . وقد فكرت الآن فى لعبة جديدة » .

فهذا الاطفال فى الحال وقالت المربية - « والآن هذه هى اللعبة . . سنطفىء جميع الأضواء ثم نجرى قرعة . . وسيختبىء الجميع عدا شخص واحد عليه أن يبحث عن الباقين فى الظلام ويتعرف عليهم . . ولكنه يجب أن يخمن من يكون الشخص الآخر فى الظلام عن طريق اللمس فقط . . دون أن يتحدث اليه » ثم اردفت قائلة وهى تستدير نحو لوقا « وبالطبع يجب أن نطفىء الضوء فى غرفتك انت أيضا . . كما أرجو اذا كنت لا تمل اللعب مع الأطفال أن تأتى وتلعب معنا هذه المرة فحسب » .

فقال لوقا وهو يسوى الى الخلف شعره الأشعث « حسنا » واختتمت المربية حديثها قائلة : اياكم ان يحتبس أحدكم فى مكان . . كما يحظر الاختفاء فى خزائن الملابس . فسألها الغلام الصغير قائلا : « وهل يمكننا أن نختبىء تحت الأسرة ؟ »

- « تحت الاسرة ؟ . . نعم لامانع من ذلك » .
وغادر الجميع غرفة لوقا عائدين الى غرفة الجلوس حيث دونت المربية أسماءهم على قصاصات صغيرة من الورق وخلطتها جميعا ثم أمرت احدى التوأمن بسحب القرعة . . وأعلنت قائلة وهى تفض الورقة - « لوقا ! » ورأى لوقا أطفال خالته ينظرون اليه فى حسد . ثم قالت المربية - « يجب أن تبقى هنا فى هذه الغرفة بينما نذهب نحن لنختبىء . » فأوما لوقا برأسه موافقا واتجه الى مقعد كبير جلس فيه بالقرب من المدفأة .

خرجت هى والأطفال بعد أن أطفأت ضوء غرفة الجلوس وضوء الدهليز أيضا . وكان لوقا ينصت بانتباه وهو جالس فى الظلام فأمكنه أن يسمع وقع خطى تغدو وتروح وأبوابا تفتح وهمسات وضحكات مكتومة وأصوات صرير وارتطام . ولشد ما استغرقت اللعبة انتباهه عندئذ فأخذ يحاول أن يتبين أين كان يختبىء الباقون . وبين الحين والحين كانت تمر

في الطريق سيارة ما فتلتقى على الحائط مستطيلا من خطوط الضوء كان يتجه في ببطء نحو السقف ثم يختفى . فيلمح برهة الغرفة بأسرها في ضوء الشفق المخطط بنور ساطع . وحدث في إحدى لحظات الاضاءة المتقطعة أن لمح شـبـحا واقفا باعتدال في أحد أركان الغرفة وكان ذلك في الفراغ الكائن بين رف الكتب وخزانة الخزف فأدرك أنه شبـح المربية . ولشد ما ظن بها الدهاء والمكر لاختفائها فعلا في غرفة الجلوس التي كانت آخر مكان يخطر بباله لا لسبب الا لانه اكثرها وضوحا ، ومالبت أن قرر بعد لحظة من التفكير أن يتظاهر بالبحث الدقيق عنها في الدهليز في حين أنه كان في الحقيقة لا يبحث عنها مطلقا . ثم يذهب رأسا بعد ذلك الى الركن الذي تختبئ فيه هاتفا باسمها في صوت عال . وقد سره هذا القرار . فهذه الطريقة سوف يظهر انه اكثر منها دهاء . وفي تلك الاثناء انبعث من الظلام صوت فضي لاحدى التوأمين معلنا . . « نحن على استعداد . . ويمكنك أن تبدأ »

فعبثا غرفة الجلوس وخرج الى الردهة وهو يتحسس طريقه في حرص ولكن في سرعة . . وهناك وقف منصتا ، لم يشأ ان يخاطر بالعثور على احد اطفال خالته . وبايثاره العثور على المربية أحس لأول مرة بنيتها التي لم يكن لها شأن باللعبة - فاتجه الى حمالة المظلات وتظاهر بالتفتيش بين العصى والمظلات . . وبلغ سمعه من بعيد صوت صبياني خافت يردد قائلا - « أنت بارد . . بارد . . » وابتعد لوقا بضعة خطوات متعثرا عن عمد بقائمة احد المقاعد ثم عاد الى غرفة الجلوس متجها بذراعيه الممدوتين صوب الركن الذي كانت تقف فيه المربية . كان في نيته ان يشب عليها ويمسك بها ثم يصيح قائلا في الحال - « السنيورينا » *The signorina* . ولكنه في اللحظة الاخيرة بدا له دون ان يخلو ذلك من بعض الرياء انه بهذا سوف ينهي اللعبة بأسرع مما ينبغي . وذلك لان ثمة جزءا غير قليل الاهمية من اللعبة كان ينحصر في أن يتحسس بعناية وجه الشخص الذي يمسك به قبل ان يتعرف عليه نهائيا . وعندئذ كان قد بلغ ذلك الركن من الغرفة فمد

يديه فى الفضاء وما لبثت اصابعه ان لامست فى الحال المعالم الخارجية لوجنتها . فلم تتحرك أو تتنفس ، مما دل على أنها كانت تقوم بدورها فى اللعبة . وجالت اصابعه حول وجنتها ثم هبطت الى ذقنها تجاه عنقها . ولكنه ما كاد يلمس عندئذ غمازة ذقنها حتى ادرك فجأة ان لعبة اخرى قد حلت محل الاولى وان هذه اللعبة لم تكن فى الحقيقة لعبة على الاطلاق بل تلك الرغبة المعهودة التى كانت تدفعه كل يوم الى مغادرة منضدته والتطلع الى داخل غرفة الجلوس . وما ان خطر له ذلك حتى تولاه شعور قوى بالاضطراب ذهب بأنفاسه وألهب وجهه . وفى نفس الوقت ظل يتحسس وجهها بأصابعه وكأنه يتعذر عليه ان يتعرف عليها . ولشد ما أحس عندئذ بنفاقه .

وكان يجد متعة فى دغدغة وجنتيها رغم ما يحسه فيها من الترهل الى حد ما . بل الواقع انه يجد المتعة لهذا السبب يعينه تماما كما كان يطيب له فضلا عن ذلك الشعور المشترك بالاثم الذى يضمهما معا رغم احساسه بما فيه من نذالة الى حد ما . . وهكذا فقد تذكر مرة اخرى ان النفور الذى كان يراوده نحوها لم يكن له من اثر الا تقوية رغبته وزيادة تعقيدها كالنار يغذيها الماء الذى ينبغى ان يطفئها . ثم تابع بأصابعه الشكل الخارجى لعمها فكان تارة يحس تحت انامله بذلك الزغب الذى يظلل شفثيها وهو يقاوم اصابعه فى رقة وتارة بما فى مساحيق زينتها الشحمة من لزوجة . كما كان هذا التلامس محببا وبغيضا فى نفس الوقت . ثم هبطت اصابعه عن وجهها الى عنقها وتذكر لوقا ان ثمة طيات ثلاثا صغيرة كالقلائد كانت تعلو عنقها مما جعله يبدو ضامرا هزيلا . ولم تتحرك فانتقل لوقا من عنقها الى اعلى صدرها . عندئذ ربما ضاقت المربية بدغدغته التى لشد ما تردد فيها ولشد ما حرص فيها على ما تتميز به اللعبة من طبيعة غامضة رغم الظلام ورغم سكوتها المشجع . فأمسكت بيده ووضعتها على صدرها . فأحس لوقا بثديها اللين المستدير الذى بدا تحت ضغطه وكأنه قد تغير شكله كما بدا وكأنه يحاول الافلات من يده التى ضمتها المربية الى صدرها فى جنون . وعندئذ اذا به يهتف قائلا

بحماس فجائى كان وليد احتجاجه الذى طال كبته -
« السنيورينا ! » فأسقطت يده فى الحال . . . وحدثت ضجة
شديدة وأضيئت الانوار كما اوحد مصباح غرفة الجلوس مرة
اخرى وعاد أطفال خالته الثلاثة فقالت المربية وهى تخرج من
ركنها - « حسنا فعلت يا لوقا ! لقد عثر على فى الحال
تقريبا » . . . فخاب رجاء الاطفال وأخذوا يتفخرون بالاماكن
العجيبة التى اختبأوا فيها وذلك لكى يعزوا انفسهم عن عدم
العثور عليهم . فقال أصغرهم - « لقد اختبأت فى الصوان
حيث اودعت الكانس . . . ولكن رائحة الشمع كانت تفوح
هناك حتى اوشكت على العطس . » فأندرتهم المربية قائلة فى
لهجة صارمة « والان لا تخبرونا بالاماكن التى اختبأتم فيها
والا انتهت اللعبة فى الحال . »

ولبثوا يتحدثون قليلا عن مفاجآت اللعبة . ثم اعلنت المربية
قائلة - « والآن جاء دورى . . . ولكن حذار . فلتخفوا انفسكم
تماما . . . وذلك لأننى اعرفكم وسأعثر عليكم فى الحال . »
كانت تبدو كعادتها شديدة المرح غير مبالية وقد استغرقت
اللعبة انتباهها تماما . ولم يسع لوقا وهو ينظر اليها الا أن
يعجب لازدواج شخصيتها الذى بدا وكأنه لا يقتصر على موقفها
منه فحسب بل شمل ملابسها - سترتها الحريرية البيضاء
التي جعلته من خلالها يتحسس ثديها ومع ذلك فلم يبد عليها
اقل اثر للتغضن من جراء ذلك العناق العنيف . وازافت
قائلة وهى تتجه نحو مفتاح النور - « انى ذاهبة الآن لاطفاء
الضوء . . . فلتركزوا الآن بسرعة ولتخفوا . »

وساد الظلام مرة اخرى . وتردد لوقا لحظة بين اللعبتين .
فاما ان يختبئ فى جد كأطفال خالته - وهذه هى اللعبة الاولى
واما ان ينتظر فى الركن بين رف الكتب وخزانة الخزف الى ان
تعثر عليه - وهذه هى اللعبة الثانية التى لشد ما انجذب
نحوها لأنها كانت تتألف كلها من أشياء بغيضة . وكانت
اللعبة الاولى تتلاءم مع لعبته الخاصة الدائمة وتتضمن نبد هذا
القيد الاخير وهو احساسه بالانجذاب وبالنفور البدنى معا مما
يشده الى الحياة . أما الثانية فكانت تتضمن قبوله هذا القيد

وبحركة آلية تقريبا انطلق يمشى على أطراف أصابعه صوب
الركن الكائن بالقرب من رف الكتب . ومرت بسيارة أخرى
فى الطريق فخطت الجدران والسقف بأشرطة متحركة من
الضياء . وتأكد لديه ان المربية لاريب قد رأته اذ انها لم
تكن قد غادرت الغرفة بعد .

وخذت حذوه بالضبط ، فخرجت الى الدهليز وتظاهرت
بالهرولة هنا وهناك والتفتيش فى كل مكان ثم عادت الى غرفة
الجلوس حيث عرف لوقا انها قادمة نحوه من الطرف المتوهج
للدخينة التى كانت تضعها بين شفتيها . واخذت هذه النقطة
الحمراء ككوكب المريخ فى سماء الشتاء القاتمة تدنو منه رويدا
رويدا وهى تتمايل معلقة فى فمها على ارتفاع محاذ لمستوى
وجهها . وعندما اقتربت منه تماما تحرك الى اليسار ذلك النجم
الصغير الاحمر بلون الدم بحركة فجائية دلت على انها تخرج
الدخينة من فمها . فتابعها لوقا بعينيه ورآها تهبط مسافة
كبيرة . فقد اسقطت المربية ذراعها الى جانبها . ولكن ثمة يدا
تسللت فى نفس الوقت الى خلف عنقه بحركة بطيئة هادئة كالحية
فى تمددها . ثم شعر بنفس دافئ على وجهه اختلطت فيه
رائحة التبغ بعطر أحمر الشفاه . وما لبث بعد ذلك ان احس
فى الحال بشفتين تعصران شفتيه .

حتى فى تلك القبلة - وهى أول قبلة يتلقاها فى حياته -
بدا وكأنه يحس بشيء غامض كان محببا وبغيضا فى نفس
الوقت . فقد تمددت شفتا المرأة الغليظتان الرقيقتان على شفتيه
بحركة دائرية مطوقة لم تشمل فاه فحسب بل أيضا ذقنه
واسفل منخريه وكأنهما تبغيان السيطرة عليهما . وقد بدت
هاتان الشفتان جامدتين عديمتى الحياة كسفرى جرح عميق
أرغما على التمدد لا بحركة ارادية بل بضغط الوجهين احدهما
على الآخر . ولكن اذا بشيء عضلى مدبب عظيم القوة ينبعث من
اعماق ما خلف الشفتين ويندفع بين اسنان لوقا فارجا ما
بينهما وناظدا فى عنف الى داخل فمه . أخذت تقبض لسانها
وتبسطة وكأنها بذلك لا تبغى ان تستكشف فم لوقا بكل
مجاهله وتعقيداته فحسب بل جسده بأجمعه ولم يمنعها من

ذلك سوى قصر الأداة التي تستخدمها . وذكرته خشونة لسانها المبلل بلمس قوقعة ضخمة تبرز من محارتها . وما ان عاود التفكير فيه حتى قرر انه كذلك فعلا . نعم . قوقعة ولكنها قوقعة جن جنونها وكانت على الرغم من عشاها لا تعرف التعب . كما انها اوتيت حيوية مختلفة ذاتية الارادة كتلك التي يؤتاها الحيوان دون سواه . وفي تلك الاثناء بينما اتصلت قبلتهما انبعث اللعاب من فميهما المختلطين وأخذ يتساقط على ذقنه في قطرات .

كان لوقا يتوقع منها ان تنادى اسمه كما نادى هو اسمها وهكذا تنتهى اللعبة والقبلة معا . ولكنها دون ان ترفع فمها عن فمه تقدمت مقتربة منه بحركة نشطة من جسدها كله فأدرك انها كانت تنوى ان تواصل التقبيل رغم بلوغه الحد الذى تمنى عنده وقد غلبه الارتباك لوتوقف عنه . وعندئذ بلغ سمعه من الطرف الآخر للشقة صوت ابن خالته الحاد وهو يصيح قائلا - « انك لا تبحثين عنا . . فقد تواطأت مع لوقا . وليس هذا من العدل . ليس هذا من العدل . » وخيل له أنه يسمع فى هذه الصيحة صوت براءته فى نفس اللحظة التى صارت فيها هشيما لنيران الشهوانية . عندئذ تركته المربية فجأة وسارت تتعثر فى خطاها عبر الغرفة وهى تقول فى صوت مرح - « ولم ليس من العدل ؟ فأنا ما زلت أبحث . » وأخرج لوقا منديله من جيبه وهو ما زال يلهث ثم مسح ذقنه المبلل . ولم يطل بحث المربية عن الأطفال . فما لبث لوقا ان سمع قعقة مرحة فأدرك انها قد عثرت على احد الأطفال . ثم أضيئت الانوار مرة أخرى كما حدث من قبل وعادت المرأة والاطفال الثلاثة الى غرفة الجلوس . . ولشد ما حار لوقا عندئذ بين احساساته المتنافرة . ففى اثناء القبلة كان احساسه بالنفور بعينه هو الذى اشعل فى دمائه لهيب الرغبة الدنسه المحرقة . فأحس انه يريد تقبيلها من جديد حتى سار بثبات الى خارج غرفة الجلوس فى تلقائية اثارته دهشة . وذهب ليختبئ فى المطبخ خلف الموقد .

ومن هناك امكنه ان يسمع خطي في الدهليز لأكثر من شخص واحد . فلا ريب ان المربية كانت تبحث عنه فضلا عن انشغال احدى الفتاتين بالبحث عن المختفين . وأحس بألم حاد وكأنه تولد عن تحطيم شيء حتى محبب الى نفسه كان يعتز به اكثر من الحياة ذاتها . ومضى الوقت دون ان ينقطع الاضطراب في الدهليز . فقد اخذت تبحث عنه بينما اختبأ هو خلف الموقد تراوده رغبة عارمة في أن يذهب اليها ويضمها بين ذراعيه . وفتح باب المطبخ فامتلات نفسه بالفرحة حتى خيل له وكأنه أحس فعلا بيدها على وجنته . ولكن اذا بتلك القعقة المرححة المعهودة تنفجر في نفس اللحظة . فقد عثرت الفتاة الصغيرة على أخيها وقالت المربية وهي تشعل الضوء ، « آه لقد اختبأت هنا . » ثم نظرت اليه من المدخل يعلو وجهها تعبير جمع بين المكر وخيبة الامل في نفس الوقت .

ومع ذلك ففي هذه المرة انتهت اللعبة على صورة غير متوقعة كما تنتهي عادة العاب الاطفال في ملل واضطراب فجائين . . كان الغلام الصغير يشكو من ارتطام رأسه باحدى الخزائن ونشب شجار بين التوأمن فانفجرت احدهما باكية . ولبث لوقا فترة وجيزة يراقب المربية التي كانت رغم تجاهلها اياه مرحلة نشطة طيلة الوقت تناشد تلاميذها النظام والهدوء . وعندما رأى ان اللعبة قد انتهت حقا ذهب الى غرفته وارتمى على فراشه في الظلام .

وظل يسمعهم فترة وجيزة وهم يتضحكون ويتراكضون ويحركون قطع الأثاث في غرفة الجلوس . وفي النهاية استغرق في النوم . ولكن ما ان ساد الصمت فجأة حتى استيقظ مرة أخرى ورأى الباب يفتح ويتسلل من خلاله خيط من الضوء . ثم دلفت المربية الى داخل الغرفة بينما ظل الأطفال في غرفة الجلوس يتحدثون في هدوء مما دل على انهم كانوا يرتدون ملابسهم استعدادا للرحيل . واقبلت المرأة نحو الفراش ثم مالت فوقه قائلة - « اكنت نائما ؟ »

فأجابها لوقا قائلا وهو ينهض قليلا - « نعم » .

فأردفت تقول فى صوت خافت - « لم لا تأتى لزيارتى فى منزلى ؟ فأنا لا أذهب يوم الأحد الى منزل خالتك . . فلتأت لزيارتى يوم الأحد القادم . »
فسألها لوقا قائلاً فى آلية : « وأين منزلك ؟ »

فأدلت اليه بعنوانها فى هدوء وبصوت هامس لم يبق فيه اثر لمرحها المعهود . ثم انحنى فوقه لحظة وسرعان ما تلامست الشفاه فعاودت لوقا جميع الاحساسات التى صاحبت تلك القبلة الطويلة السابقة . وهتفت قائلة وهى تندفع نحو الباب « انى قادمة - انى قادمة . » وتهاوى لوقا الى الخلف فوق الفراش .

- ٨ -

كان ذلك فى يوم الخميس . وظل لوقا خلال الايام الثلاثة التالية يقرر الذهاب ثم يعدل عن قراره اكثر من مرة فى اليوم الواحد - ويقرر الاستسلام للحب ثم يعود فينبذه . وثمة أسباب كثيرة - بل كل الاسباب فى الواقع كانت تحبذ قبوله اياه . ولم يكن هناك من سبب على الاطلاق يحبذ نبذه اياه سوى رغبته اليائسة فى تحطيم كل ما يشده الى الحياة ، ولكن هذا لم يكن سببا بقدر ما كاد ان يكون امرا يتعلق بالشرف استبطن اعماق روحه التى لشدها كانت سرية خفية حيث نشأ وترعرع فى غموض . . ومع ذلك فقد لاحظ ان المربية بحبها اياه كانت تريد ان يحيا بقدر ما كان يريد والداه عندما يغدقان عليه الهدايا ومدرسه عندما يكلفونه بالواجبات . وكان هذا الحب يرضى حواسه كما كانت هدايا والديه ترضى طعمه وواجبات مدرسيه ترضى طموحه . كانوا جميعا فى مستوى واحد - أمه وأبوه ومدرسه والمربية - كانوا جميعا يحاولون شده الى معترك الحياة وفرضها عليه والتوفيق بينه وبينها . ولا يهم ان اختلفت السبل وان استنكر ابواه ومدرسه اساليب المربية .

ولشده ما ثار غضبه ان يقوض جوع حواسه بكل هذه السهولة رغبته فى التحرر والموت . وحينئذ كان قفا المنزل وهما ذكر وانثى يمران بموسم الحب . وقد حدث هذا من قبل

ولكن لوقا بغض النظر عن التلهي بمراقبتهم لم يعرهما انتباها كبيرا . ولكنه خيل له عندئذ بعد ما حدث بينه وبين المربية أنه قد تعرف على نفسه في الذكر وعليها في الانثى . فتماما كما كان هذان الحيوانان يتعقب احدهما الآخر هنا وهناك ويتشمم كلاهما الآخر اسفل ذيله ثم يشب احدهما على الآخر ويطبق الذكر بأسنانه على عنق الانثى التي تخر على وجهها تحت الذكر ، كذلك كان سلوكه نحو المرأة مستجيبا لما تمليه عليه غريزته على غير وعي منه . فماذا كان كل هذا الغدو والرواح فيما بين غرفته الخاصة وغرفة الجلوس وكل هذا التلامس واختلاق المعاذير التي تؤدي اليه ؟ ماذا كانت كلها سوى تلك المطاردة المتبادلة بين حيوانين اثارتهما فيهما الرغبة اضطرابا غامضا ؟ بفارق واحد هو ان القطين لا يمكنهما ان يتمردا على الطبيعة اذ انهما من صنع الطبيعة وحدها ، في حين أنه هو نفسه كان يبغض الاذعان للطبيعة ويعده سلبية مذلة . . كما كان يعد القوة التي تفرضه عليه بغيا وطغيانا . . فضلا عن ذلك فلو انه انصاع لحواسه فماذا يمكن ان تكون حجته في اهماله دروسه ونبذه متع التملك والزهو ، وفي انكاره العاطفة بل عدم استقرار رأيه في الواقع بصفة نهائية على القيام بدور في ذلك العالم المعد الذي ادخلته فيه أمه بانجابها اياه ؟ .

وعندما جاء يوم الأحد كان لا يزال مترددا . فقد قرر لوقا في الصباح الا يزور المربية . ولكنه ما ان انتهى من تناوله الغذاء حتى عدل عن قراره . واعلن أمه بأنه ذاهب الى السينما ثم غادر المنزل وهو يحس بشعور غامض من احتقار الذات ولكنه ما لبث ان ادرك بعد بضع خطوات ان ساقيه تحملانه في الاتجاه الخاطئ . فعلى قارعة الطريق كانت تقوم بوابة الحدائق العامة ذات النقوش الزخرفية ومن خلفها الأشجار وكانت تختال في اتجاهها أول أفواج المنتزهين يوم الأحد في ضوء الأصيل الرقيق في بواكير الشتاء . فانقاد على الرغم من لارادته لمنظر البوابة ودخل الحديقة .

لم يقصد ذلك المكان منذ اليوم الذي دفن فيه النقود . وقد مر شهر تقريبا على هذا الحادث . وكان عرى الشتاء وسكونه قد استبدا بالمكان تماما . فلم يكن يحتفظ بورقه ذى الحضرة الداكنة والملمس البارد سوى شجر السنديان مما يذكر الانسان بالمعدن القديم . اما الاشجار الاخرى جميعا فكانت ترتفع منها نحو السماء شواش من الفروع الرمادية المستقيمة الشبيهة بالمكانس . ولم يكن يرى بها سوى قليل من الاوراق الصغيرة الصفراء المتناثرة هنا وهناك وقد بقيت معلقة على الاشجار بقوة الجمود فحسب . كما تعرت المروج واشتد جفافها فلم تبق عليها ورقة واحدة من العشب واقفرت المقاعد وامتصت تماثيل الرخام مياه المطر فكشفت الرطوبة القاتمة عن المفاصل التى تربط بين قطعها المتعددة . وثمة طفح اخضر كان يكسو صفحة الماء فى احواض النافورات التى لم تعد تشقها قوارب الاطفال الصغيرة . سار لوقا فى احد ممرات الحديقة فوق الحصباء الترابية التى لم تعد تصر تحت قدمية . ثم عبر المرجة الكبيرة وكانت تغمرها عندئذ الى حد ما برك واسعة من الماء انعكست السماء على صفحاتها . ثم اخترق دغلا من الاشجار أفضى الى الساحة المكشوفة . وهناك وقع بصره مرة أخرى على الحائط المزخرف بكواه واعمدته ونقوشه . كما وقع بصره على البقعة الظليلة حيث دفن نقوده وقد لمعت بأوراق الشجر الذابلة . وجلس على تاج عمود مقلوب ثم نظر حوله .

واحس بنفسه فريسة للقلق والضيق ولكنه لم يؤسفه ذلك الشعور اذ خيل له انه يحول بينه وبين التفكير فى المربية ويصد عنه اغراء الذهب لرؤيتها . كان قلقه وهميا وليد التردد وهو يغالى فى تجسيم وجوه الخيار للمشكلة ولكنه يجعلها فى نفس الوقت تبدو غامضة لا يمكن تحقيقها دون ان يزيد فى ذلك على تصويرها فحسب حتى يبدو وكأنه يكتفى بجمود لا شأن له بالخيار . لا شك انه كان يبغى الذهب لرؤية المربية ولاشك أيضا انه كان لايبغى ذلك . ولكنه لم يحس بالرضا عن كلا الوجهين بل لشد ما كان يرضيه الحل الوسط بينهما ، ألا وهو هذا السكون وتلك البلادة وذلك الهدوء المعتم

الخفى . كان يعلم انه لو واجه الاغراء فى صراحة وايجابية فانه سوف يستغل قدرته نفسها على المقاومة ويحولها لمصلحته الخاصة . ولذا فلم يكن أمامه سوى تهدئة أى صراع ممكن ليظل خامدا .

ولكنه كان يعلم ماذا دعاه الى العودة الى تلك البقعة المكشوفة فى الحدائق . فكما يعود المؤمن الى معبد ديانتته ليقوى ايمانه كذلك اراد بعودته الى زيارة المكان الذى ادى فيه اقدس تضحياته ان يقنع نفسه باستحالة النكوص عن تلك التضحية ، وكانت تلك البقعة المكشوفة التى تقدست بتضحيته بل ذلك المعبد الطبيعى لعقيدة لا يؤمن بها سواه دون ان يعرف عنها شيئا - كانت تلك البقعة بلا ريب ذات تأثير على ذهنه . وفى الواقع فانه بعد فترة صمت طويلة خيل له على صورة غامضة أنه يرى شبح المربية يبدو له عن بعد وكأنه محطة للاستراحة خلفها حينئذ وراءه على مسافة بعيدة فى طريق واضح للعيان . كيف يمكنه على الاطلاق من أجل قبلة أو اثنتين ان يخاطر بكل مكونات مبدئه اليأس فى تلك الفترة الأخيرة من حياته ؟ ثم فكر فى نقوده ولشده ما احس بالنفور عندما خطر له امكان الذهاب اليها واستخراجها من الارض فى جشع ثم وضعها فى جيبه مرة أخرى وانفاقها فى شراء حلوى أو سجائر . ولكنه لو ذهب لرؤية المرأة لارتكب هذه الخيانة بذاتها فى حق نفسه فقد كانت تنتظره فى منزلها كما ينتظره ابواه فى مواعيد الوجبات وكما ينتظره زملاؤه ومدرسه فى المدرسة . كانوا جميعا يتآمرون على نصرة ضعفه . فماذا بقى له سوى تخيب رجائهم ان كان عليه ان يحتفظ بنزاهته؟

وفى تلك الأثناء كان الوقت يمضى . وقد لاحظ ذلك حين بدا الضوء يخبو بصورة محسوسة . وعندئذ بلغ سمعه من خلال نوافذ الحائط خلف ظهره زئير بعيد تردد صداه مرتين أو ثلاثا فتذكر انه كان موعد اطعام الاسود . وخيل له على صوت هذا الزئير انه يمكنه ان يرى اقفاص الاسمنت الرمادية بقضبانها السوداء المتقاربة نظيفة ولكنها كريهة الرائحة على صورة غريبة ومن خلفها ترقد الاسود فى تحفز كأنها كتل

ضخمة خشنة الفراء شعناؤه • كما تراءى له الباب الصغير مفتوحا في نهاية الدهليز الطويل بجانب القفص وتراءى له الحارس في زيه الرمادي المخطط وهو يدخل من خلاله دافعا امامه عربة صغيرة من مقبضيتها وقد ملئت بشرائح ضخمة من اللحم الدامي • فيرفع احدها بخطاف في طرف عمود طويل ثم يلقي بها من فوق السياج الى الوحش الذي يكون في أثناء ذلك قد نهض واقفا على ارجله وهو يزأر • وتسقط الجيفة الحمراء على ارض القفص فينقض عليها الأسد في الحال قابضا عليها بمخالبه • ثم يمزقها اربا وهو يقرش العظام بأسنانه متوقفا بين آونة واخرى اثناء وجبته ليلعق الجيفة في عشق يلسانه المبردى وكأنه يقبلها • واقشعر بدنه عندما خطر له ان تلك القطعة من اللحم التي صارت الآن كتلة ميتة لاشكل لها كانت في وقت من الاوقات جزءا من حيوان حي ، ثم تذكر كيف قيل له ذات مرة ان الموت بين فكى وحش مفترس لا يكاد يحس له الم بسبب تلك الشفقة الغريبة غير الواعية من جانب الوحش نفسه الذي يحرص على كسر العمود الفقري للفريسة وخيل له انه يود لو مات بهذه الطريقة - حيث يمسك به ثم يقتل ويلتهم • وقد أعجب بهذه الميتة التي تتم في براءة وبلا وعى لأنها تتميز عن اية ميتة اخرى على يدى انسان بوحشية تامة فاتنة • كما يتحول فيها الانسان الى شىء آخر • اذ يصير طعاما يقتات به وحش جائع • وهذا الجوع الأعمى المجهول قبر يليق بجسد منبوذ • قبر لا تربطه بالعالم أو الجنس البشرى صلة ما ولا حتى من خلال الشفقة التي ترين على لحد بللته الدموع •

ولكنه لشد ما سرتة قبل كل شىء فكرة تحقير الكرامة البشرية بجعل الجسم البشرى طعاما يقتات به • وتذكر ان اطعام الاسود في حديقة الحيوان لم يفتأ يرتبط في خياله بذلك الشعور المضطرب الذي توحى به في نفسه قراءة روايات معينة تدور حول موضوع الاستشهاد وعلى الأخص « فابيولا Fabiola وكوفاديس Qus Vadis وليس أشد انكارا لهذه الكرامة البشرية التي تتألف كلها من امجاد تافهة

وواجبات منفرة كان يبغضها كل البغض من وضع الجسم
البشرى فى مستوى اللحم عند القصاب . وتذكر تلك العذراء
الشابة ذات الحسن والجمال والمحتد النبيل التى قرأ عنها فى
احدى هذه الروايات وكيف تعرضت عارية للوحوش المفترسة
وبعد ان بقيت بمعجزة من السماء فترة طويلة دون ان يلحقها
اذى هاجمها احد الأسود وبضربة واحدة من مخالفه مزق ذراعها
ثم التهمتها الوحوش الجائعة وهى ما زالت حية . وعندئذ
عاوده شعوره بالشفقة الذى سبق ان راوده عند قراءة هذه
القصة . ولكن اشفاقه حينئذ كان منصبا على نفسه وقد القى
به على الأرض بدلا من المرأة الشابة ومزق اربا . انه نفس
الشغور بالشفقة الذى حرك عواطفه عندما تخيل نفسه قتيلا
دفن فى الحدائق العامة . وبالإيحاء له بهذه الصورة الجديدة
لموته وضحت له تلك القصة معناها وأكدته - فبدت وكأنها
تضحية طقسية مقدسة ضرورية ولا محيص عنها .

وما أن رأى أن الليل قد خيم فعلا حتى جفل . وأحس أنه
تجمد من البرد من أعلى رأسه الى أخمص قدمه . كما أحس
فجأة أنه لا يعدو فى الحقيقة أن يكون صبيا تأخر به الوقت عن
موعد المعتاد فى خارج الدار . وبينما كان يسير تحت الاشجار
فى ممرات الحديقة المعتمة فى ضوء الشفق بلغ سمعه صياح
الحارس وهو يردد قائلا - « موعد الاغلاق . . . موعد الاغلاق »
بدت له هذه الصيحة فى نغمتها الحزينة الخافتة وكأنها اخطار
بالعودة الى عالم بيته ومدرسته الذى لشد ما كان يمقتة .
وفكر لحظة فى البقاء هناك وانفاق الليل فى البقعة المكشوفة
حيث يخلو الى نفسه والى ظلال الشجر . ولكن خائنه شجاعته
وغادر الحديقة من خلال البوابة . ومع ذلك فانه كان يخشى
عندئذ ألا يمكنه مقاومة اغراء المربية فى اليوم التالى عندما
يراهم مرة أخرى فتستثيره بحيلها من جديد .

- ٩ -

ولكن المربية لم تأت فى اليوم التالى لان خالته كما علم من
أمه فى ذلك المساء نفسه كانت قد استردت صحتها ولم يعد
هناك داع لإبعاد الأطفال عن المنزل . وأحس لوقا بشيء من

خيبة الرجاء عزاه في أول الامر الى المفاجأة - المفاجأة التي يتلقاها رجل أعد نفسه لخوض المعركة ثم وجد في اللحظة الاخيرة أنه لن تكون هناك معركة قبل كل شيء . ولكنه أدرك فيما بعد ان خيبة الرجاء التي اصابته كانت ذات طابع مختلف وأنه كان في الحقيقة يبغى أن يراها مرة أخرى . وقد أفرغته تلك الرغبة لانها أثبتت له بطريقة بسيطة مباشرة كالشهية الطبيعية أنه مازال متشبثا بالحياة وبهباتها المرعبة .

وبعد ما أبلغته أمه النبأ مرت خمسة أيام كان يأمل في أثنائها أن ينسى المربية . ولكنه في صباح يوم الاحد أثناء مروره بالتليفون توقف وأدار رقمها فيما يشبه الآلية . فردت عليه في الحال وكأنها كانت في انتظاره كل هذه الايام على الطرف الآخر من سلك التليفون . قالت له - « انك لم تأت يوم الأحد الماضي . »

فأجابها لوقا قائلا - « لم يمكني ذلك . هل انتظرتني ؟ »
- « نعم . ولكني لم انتظر طويلا . »
وبدا له ان صوتها لم يكن مرحا كالعادة . وعندئذ لم يعد يفكر في مقاومة الاغراء . فسألها قائلا في صوت خافت - « هل يمكنني المجيء اليوم ؟ »
فبدت وكأنها تفكر لحظة ثم أجابت قائلة - « لا . ليس اليوم فأنا لست مطلقا على مايرام . »

فقال لوقا بلهجة غاضبة غير مصدقة - « لقد فهمت . »
فلم تلبث أن أردفت قائلة في الحال وكأنها مذعورة - « اني أصدقك القول تماما . . فأنا لست بخير . . ولكن فلتأت يوم الأحد القادم - هل يمكنك ذلك ؟ »
فقال لوقا - « نعم . »

- « حسنا . الى اللقاء يوم الاحد القادم اذن . »
وظل لوقا طوال الاسبوع منجيا عن نفسه تماما كل ميل لمقاومة الاغراء واعتزال الحياة . ولم يكن له من هم سوى التفكير في المربية . أخذ يفكر فيها باضطراب عميق اختلطت فيه رغبة حواسه الحادة بالحيرة الغاضبة من أثر الهزيمة . لاشك أنه لم يعد يفكر في الموت ، أو حتى في الحياة اللهم الا

اذا كانت الحياة هي هذه الحال من السخط والعذاب . كانت شهوته تحذيرا بعيدا عن قراراته السابقة كما يحول السيل الموحد الدوام دون السباحة أو الوقوف على أرض جافة . كان كل شيء يبدو له وكأنه قد فقد مادته وأهميته فيما عدا المرأة التي لم يفتأ خياله يعرضها أمامه في ألوان شتى لا نهاية لها من المظاهر المثيرة المتملقة . وكان ما يحدث الآن هو أخشى ما يخشاه وذلك أن يعود اهتمامه بالحياة من جديد . ولكن الحياة في هذه الحال بعد كل ما حدث من تقويض لن تكون سوى لدغة من الشهوة بلا أمل في التطور الى شعور أرحب وأكثر ايجابية . فقد أدرك أنه لم يكن يحب تلك المرأة ولن يحبها لعلمه ان الغريزة الحيوانية الخالصة وحدها بنطاقها المحدود هي مبعث رغبته فيها . ولشد ما كان عندئذ في معزل عن وضوح الرؤية الذي اتيح له أثناء زيارته الاخيرة للبقعة المكشوفة في الحدائق ! أخذ ينتظر بصبر نافذ مرور تلك الايام السبعة مهملا عمله فاني النفس مضطرب الحواس على صورة دائمة لا يحظى من الطعام أو النوم الا بالنزر اليسير . . وفي يوم الاحد غادر المنزل في ساعة مبكرة بعد ما أبلغ أمه كذبا كالعادة أنه ذاهب الى السينما .

كانت المربية تقيم في حي قديم من البلدة يقع بين المحطة والثكنات . فكانت ترى في نهايات الشوارع الطويلة مظلات سوداء وبيضاء للحراس وبوابات حديدية لمشمتملات الثكنات وفيما وراء تلك البوابات كانت ترى ساحات فسيحة تكتنفها أشجار الكافور المغبرة ومن فوقها تمتد السماء البيضاء . وثمة أبواب بعيدة محزنة كانت تدوى داعية الى تناول الطعام دون أن يكون لها صدى ملحوظ . ومن خلال البوابات الحديدية كان ينتشر نحو الخارج هواء مثقل بالملل المطلق ثم يرتفع كالضباب فوق الشوارع المقفرة التي تتقاطع في زوايا قائمة وبينما كان يهرول خلال هذه الشوارع بحذاء المباني الشاهقة التي تحدها من الجانبين أحس بساقيه تنوءان بحمله وكره تلك الرغبة التي دفعته الى القيام بتلك الزيارة . وبدا له هذا الحي الذي تقوم به مساكن الموظفين وقد ساده دفعة واحدة جو من

النفاق • فكم من امرأة أخرى كانت تختفى خلف هذه الواجهات المزخرفة المغبرة في انتظار عشيقها أو تمسك به في قوة وهي تضمه بين ذراعيها ؟ لقد أحس على الرغم من اضطرابه أنه يذهابه لرؤية المربية كان يقوم بعمل طبيعي للغاية ، نفس العمل في الواقع الذي خيل له أن هذا الحى ذا المظهر الوقور الزائف كان يوحى به اليه وأن هزيمته بأسرها كانت تنحصر في قبوله القيام بهذا العمل الطبيعي الحقيير • وخطر له أنه كان من الطبيعي أن يحفظ دروسه وأن يدخر بعض النقود وأن يقتنى مجموعة من الطوابع وأخيرا أن يذهب لزيارة خليلته في حى كهذا عند بلوغه السن المناسبة ثم عثر على المنزل الذي كان يبحث عنه غير بعيد من بوابات الثكنات • كان الباب الرئيسى مفتوحا وقد قامت في الطرف القصى من ردهة المدخل نافذة زجاجية ملونة على الطراز القديم تعلوها مربعات من اللونين الأحمر والأزرق • أخذ يصعد الدرج وقد غثت نفسه بالنفور وارتعدت فرائصه •

وصعد الى الطابق الثانى ثم الثالث ثم الرابع وهو يتوقف عند كل بسطة من الدرج ليفحص لوحات الاسماء • وكان كلما فكر فى منزل المربية وقد تذكر أن أباهما الذى مات منذ سنين كان موظفا رسميا ذا حيشية - لايفتأ يتصور أن منزلها يتألف من سلسلة من الغرف الصغيرة الضيقة المزدحمة بقطع الاثاث الخفيفة الأنيقة حيث تستدرجه المرأة الى أريكة رثة فى ركن بعيد من احدى هذه الغرف الصغيرة • فيذكره لسانها الذى لا يكل ولا يمل بالقوقعة الهائجة عند قبلتها الاولى • ثم يتلقى الحلوى والسجائر والنظرات المسترخية والفكاهات • وأخيرا برقد فوقها بينما يخالجه فى نفس الوقت صدود وارتباك وقد ألقىت ملابسها جانبا فى فوضى كزبد الماء المضطرب الذى يشير الى غرق السفينة • ثم تودعه بقبلة أخيرة فى ظلام الردهة الضيقة حيث تكدست المعاطف • وبعد ذلك يعود الى المنزل خائنا مخونا • وقد ملأه كل ذلك بالنفور ولكنه كان يجذبه كالمعتاد لا لسبب الا لانه ينفره •

وما ان فتحت الخادم الباب حتى دهش لتلك الرائحة

اللاذعة الحانقة التي هبت من الردهة في عنف على وجهه كالنفحة الساخنة - وأدخلته الخادم ثم تركته واقفا هناك وفي الطرف القصى من الردهة انبعث ضوء مائل الى الحمرة من مصباح بدا له ملفوفا في قماش بنفسس اللون . وكان الدهليز الذى تفضى اليه الردهة من الناحية الاخرى غارقا فى الظلام . وخيل له أنه يسمع شهقات مكتومة منبعثة من ذلك الاتجاه . وبدا المنزل كله وقد شاع فيه اضطراب حزين لا يدري كنهه - فبلغت سمعه خطى مهرولة وأنات وحفيف ثياب وصرير أبواب . بل أمكنه أيضا أن يميز عن بعد صوتا رتيبا يرتل الصلاة . أما تلك الرائحة التى لشد ما كانت لاذعة فى منخرية فكانت رائحة المطهرات والنوم والعرق . فقد تذكر تلك الرائحة نفسها التى كانت منذ سنين تملأ غرفة أمه اثناء مرضها . وجفل فجأة عند سماعه صوتا باكيا قريبا منه يقول له - « من أنت ؟ وماذا تريد ؟ »

وقفت أمامه فى الظلام عجوز بدينة متشحة بالسواد وقد انعكست على وجهها وصدرها من ضوء المصباح لمعة حمراء بلون الدم . وارتفعت فوق جبهتها خصلة كبيرة من الشعر الابيض أشبه بالريشة الكبيرة مما أضفى عليها مظهرا يكاد يكون مضحكا . وأنعم لوقا النظر اليها فوجد ان وجهها بأجمعه كان يبدو حتى تحت لمعة المصباح الحمراء محتقنا بحمرة أخرى أكثر توهجا . أعادت سؤالها مرة أخرى وهى تتقدم خطوة الى خارج دائرة الضوء المنبعث من المصباح . فرأى لوقا فى ذلك الضوء الخافت المريب أن وجهها لم تزل تعلوه تلك الحمرة فأدرك أنها من أثر الدموع التى ذرفت فى يأس وانتشرت على وجهها كله من مندبل صغير شديد البلبل .

فنطق باسمه وقد ماتت رغبته ثم أسرع يكذب قائلا انه انما جاء ليستطلع الانباء . فتمتت العجوز باجابة لم يفهمها لوقا ختمتها بقولها - « انها مريضة - مريضة للغاية . » ثم هزت رأسها واختفت فى الظلام الذى جاءت منه . ولأول مرة لاحظ لوقا خلف العجوز شبحا أبيض بدا أنه كان يعاونها على السير - انها الممرضة . وجذب الباب خلفه دون أن يغلقه ثم خرج الى بسطة الدرج .

وهرول عائدا الى المنزل حيث ركض الى غرفته وارتمى على الفراش . لم يكن شعوره عندئذ شفقة على المربية التي لم يحس نحوها بالحب والتي لم تزد على أن تكون المحركة لرغبته بقدر ما كان احساسا بالكراهية نحو نفسه وعلى الاقل نحو ذلك الجزء من نفسه الذي ألحق به المهانة عن طريق تلك المطاردة الشائنة عبر البلدة والتي انتهت على صورة لشد ما كانت مهينة مذلة فقد وجد حالة احتضار حيث كان يتوقع لقاء عاشقين وهكذا فانه لم يسعه الا أن يرى أن هذا هو ما كانت تعنيه الحياة ومواصلة الحياة - أن يأتي المرء في حماس وعزم أعمالا سخيفة لا معنى لها يستحيل عليه أن يجد لها مبررا ما وهي لا تفتأ تجعله في حال العبودية والتبكيك والنفاق . وعندئذ أدرك حكمة تفكيره قبل ذلك بأسبوعين عند تواجده في البقعة المكشوفة في الحدائق . ولعلها كانت حكمة يائسة ولكن لم يكن في الامكان سواها . ففيما خلا تلك الحكمة التي تطالبه بالتضحية بحياته كان كل شيء غامضا متناقضا .

أحس عندئذ أن حقائق الحياة قد لقنته في صمت درسا ما ووجهته مرة اخرى الى الطريق الصحيح الذي أضلته عنه رغائبه . كان مشهد الاضطراب والموت في منزل المربية أشبه بالقطعة الموسيقية بل بموضوع لحن قطعتة لفترة وجيزة أصوات متضادة ثم ما لبث أن عاد بعد ذلك في مزيد من العنف بنغمة أعلى وأقوى . كان هو نفس الموضوع الذي يرن في أذنيه زمنا طويلا والذي أخطأ بنسيانه . كان موضوعا عميقا رخيما جنازيا مترعا بالحزن ولكنه خلاب في نفس الوقت وخاص به على صورة غريبة مميزة .

وتساءل قائلا في فضول تجريبي - « ولنفرض أن المربية لم تمت ؟ » . وما أن لاحظ يقظة حواسه من جديد لمجرد ذكره مثل هذا الرجاء حتى انتابته مرة أخرى كراهيته لنفسه على صورة أقوى من أي وقت مضى . فانه لم يجد في نفسه القدرة على طلب الحياة للمربية من أجلها . بل ينبغي أن تحيا وتموت من أجله هو وحده . وخطر له أن هذا أيضا هو ما كانت تعنيه

الحياة وبهذه الصورة كان أبواه ومدرسوه وجميع الناس يفهمون الحياة • وإذا به يحس فجأة أنه يريد لها أن تموت • ولم يمكنه أن يحس بهذا الشعور الا على أساس رغبته هو في الموت على صورة أشد الحاحا •

- ١٠ -

وبعد مضي يومين على زيارته لمنزل المربية أبلغ لوقا نبأ وفاتها بعبارات الشفقة التقليدية أثناء حديث عارض بين أبويه وهما جالسان الى المائدة • فقد قالت أمه - « كانت مخلوقة طيبة شديدة المرح • • من كان يتصور هذا ؟ » وأمن والده أيضا على حديثها قائلا انه ما كان يتخيل قط ان شخصا في مثل حيويتها يمكن أن تعاجله المنية في وقت مبكر • وما لبث الحديث أن انتقل الى موضوع آخر بعد بضعة تعليقات أخرى على نفس النمط •

وكان لوقا يأمل أن موتها ان لم يوح اليه بالشفقة فسوف يشعره على الأقل بالتححرر • ولكنه اكتشف بدلا من ذلك أنه مازال يفكر فيها برغبة وحنين تماما كما كان يفعل أثناء حياتها وبقدر فهمه للامور بدا له أن احساساته التي أثارته تلك المرأة قد ادخرتها ذاكرته الحسية في نهم حتى يمكنها عندما يستعيد ذكرياته شيئا فشيئا أن تتصدق بها عليه في تقدير شديد الى أن تحل في قلبه امرأة أخرى على أية حال محل المرأة الميتة • ثم تذكر كيف أنه ذات مرة في طفولته قد حبس عظاية حية في صندوق ولكنها ماتت فأصر على الاحتفاظ بجثتها عدة أيام حتى غثت أمه من الرائحة فأخذتها منه وقذفت بها بعيدا مما أثار نفوره الشديد لاعتقاده أنه كان يملك كنزا عجيبا • وهكذا احتفظت ذاكرته بنفس ذلك الحرص الغيور الضنين بما خلفته له المربية من أحاسيس غرامية لا تتجاوز اثنين أو ثلاثة صارت تفوح منها عندئذ رائحة الموت • وهكذا فقد أضيف الآن الى اللون الجنائزي الكئيب الذي يصبغ حياته بأسرها ذلك الظل الأسود لحب الموتى • ولم يكن ثمة

سبيل الى مقاومته . ومما جعل حبه للمربية أسوأ من غيره من ألوان حب الموتى المماثلة له أنه لم يكن يتمثل جسدها بأكملها في حبه الخيالي بل كان يتمثل بطريقة حسية جزءا معيناً بالذات فحسب من جسدها - ذلك الجزء الذي كان وحده في نظره حيا فعلا - ألا وهو فمها الذي بات عندئذ كما كان يتخيله أحيانا وقد ملأه التراب بلا ريب كما لم يعد هناك وجه للشبه بينه وبين الفم . وفي الواقع فانه لم يكن يذكر شيئا أو يدري شيئا عنها فيما خلا تلك القبلة التي تلقاها منها ، وكانت كالرائحة أو المذاق تبعث الى الحياة من جديد لاقبل دعوة من ذاكرته ففي كل لحظة كانت لا تفتأ تعاوده لا كفكرة ثابتة تجثم على ذهنه بقدر ما كانت شيئا تعاوده فعلا في انتظام خبيث يتميز به أشد أنواع التفكير آلية . كانت كنزا تعسا كثيرا ولكنه أخذ يتهيا لأن يعيش أعواما على دخله منه . فكان أحيانا يستيقظ فجأة من نومه أثناء الليل يراوده احساس بأن فاهما كان يبرز له من وسادته في بطء ولكن في ثقة كما تنبت الزهرة من بطن الأرض وقد استحال الكتان الى لحم بشرى بينما احتفظ اللحم مع ذلك بخصائص القماش على نحو ما . فكان يعض وسادته في قسوة ويظل مطبقا بأسنانه على القماش البارد المبلل باللعب ومتشبثا بكل قواه بتلك الرؤية التي كانت في نفس الوقت رغم بعد احتمالها على نحو لا أمل فيه ملموسة محسوسة على صورة عنيفة . ويظل كذلك الى أن يفيق من نومه تماما . وهكذا فقد استمر احساسه القديم المزدوج بالنفور والرضا . ومع ذلك فان نفوره عندئذ لم يعد مبعثه حب دنس مختلس بل كانت تبرره الى حد ما المشاركة الحماسية من جانب المرأة . كان مبعثه تعلقه الكئيب ببقايا ذكريات بالية لم يلبث أن قطعها الموت . وقد ملأت تلك الذكري خواطره جميعا بفتور موحش كئيب كما أصابت في نفس الوقت حواسه التي لم تفتأ تتذبذب بانحراف تدريجي بين الرغبة والنفور . وصار احساسه بالقبلة مختلطا بفكرة الموت وممزوجا بها في انفعال واحد غامض بدا أنه يستمد قوته من ظلام الاستحالة والتدنيس .

وهكذا استمر صراعه مع الأشياء التي كانت تشده الى الحياة . وعندئذ شاءت الصدفة أن تصير هذه الاشياء ذكرى متراء شوهاء لشخص قضى نحبه . وكان يخيل له أحيانا أن هذه الذكرى سوف تمر بمضى الزمن بعملية التحلل شأن البدن الذي أوجدها . وهكذا فانها سوف تتحول في ذهنه ببطء شديد للغاية الى رواسب موحلة شديدة السواد كما يحدث للبدن في الارض التي دفن فيها . ولكن ذلك لم يتم قبل أن يغذى حياته بتلك الذكرى عدة سنوات فيستحضرها ويتلذذ بها مرارا وتكرارا مادام ذلك في امكانه . ولكي يفصم ذلك الرباط ويخرج نفسه الى الابد من فلك تلك الذكرى فقد استقل الترام ذات صباح واتجه الى المقابر بدلا من ذهابه الى المدرسة .

وفكر في غموض أن يشتري بعض الزهور لينثرها على قبر المربية ، بغية استرضائها حتى تتركه نهائيا ليعيش في هدوء ولكنه ما ان رأى أشجار السرو ترتفع فوق السور الرمادي للمقابر في ذلك الصباح البارد المضرب حتى أحس على الفور أنه مكان تقاليد ومظاهر ينتقص منه مقدما كل سر وغموض وقد فتحت البوابات الحديدية المؤدية الى داخل المقبرة عن طريق أرض فضاء محاطة بأكشاك الزهور . وفيما وراء البوابات بدت أرض المدافن كحديقة عامة زرعت بها الصلبان بدلا من الزهور على سبيل السخرية . وقد بدت له تلك الصلبان عندما تأملها حالما من الارض الفضاء في خارج البوابات وكأنها تتحرك مختلطة في زخرف هندسى دوار لا أثر فيه لفكرة الموت . ومن حوله كان الناس يهبطون من عربات الترام المزدحمة متجهين في حشود صوب الارض الفضاء حيث يشترون الزهور ثم يسرون الهوينى في خطي وئيدة تجاه البوابات . كما بدت له كنيسة المدافن الصغيرة التي تقوم الى جانب المقبرة على صورة مناسبة وقد بنى مقصها ومظلتها من الفسيفساء الملونة وكأنها تدعو الناس الى اتيان اشارات تنبئ بتقى خلا من الغموض وأعد لتلك المناسبة . ولم يسعه الا أن يرى أن ذلك المكان ليس مكانا

للموتى بقدر ما هو مكان للأحياء يؤدون فيه شعائرهم في سهولة ولياقة متكلفة . ثم لاحظ أن الأرض أسفل السور كانت تنحدر في وعورة وقد تشققت واصفر لونها في سمرة . كما لاحظ في أعلى هذا المنحدر وجود ثلاثة من الأفاقين تجمعوا حول نار مشتعلة طلبا للدفع — فخيّل له في الحال لسبب ما أن النار مشتعلة في نفاية المقابر من بقايا العظام وخرق الثياب العطنة وشظايا التوابيت . وكانت ألسنة اللهب ترتعش حمراء في الهواء البارد المضرب ويرتفع من وسطها إلى أعلى السور عمود من الدخان ذو لوانب صفراء يبلغ أعالي أشجار السرو المائلة الساكنة . كما بدا ذلك الدخان ذا رائحة خبيثة

نفاذة . وما إن رأى ذلك اللهب حتى عاودته فكرة الموت مجردة من الشعائر والرتاء — كألوان الموت التي تمثلها ذات مرة على يدي قاتل سفاح أو بين فكى وحش مفترس — فأخذ يفكر في ميتة تصلح لتدفئة أيدي ثلاثة من الشحاذين المعدمين على مرأى من مساكن الضواحي وبجانب خطوط الترام . وأدرك أنه من العبث دخول المقابر فإن المرأة لم تكن تحت الرخامة التي تحمل اسمها بل في ذاكرته وحواسه . ولو أنه واجه تلك اللوحة الحجرية التذكارية لأتى بإشارات جوفاء لا معنى لها كما يفعل غيره من الناس أو لكان عليه من الناحية الأخرى أن يستحضر في ذهنه نفس الذكريات التي يبغى طردها . ورأى من ركن عينه تراما يظهر له في الطرف القصى من الممر فركض بأقصى سرعة نحو رصيف المحطة . وما هي إلا بضع دقائق حتى كان في المنزل .

وتهاوى في غرفته على الفراش لينام كعادته ولكنه مالبث أن استيقظ فجأة في جنول عنيف أعاد إلى ذاكرته صدمة أخرى مماثلة أصابته بها المربية عندما سقطت فوقه في عمد أثناء تظاهرها باللعب مع تلاميذها . كانت هي بلاشك . . وفي الواقع فإن احساسه بتلك القبلة بدا وكأنه يبرز له من قماش الوسادة في عنف أشد منه في أي وقت مضى . بدا له أن الليل بأسره الذي احتواه كان يعبر عن فمها . وأن الظلام كان يصنع من نفسه شفتين ولسانا وسط سكون خانق تقطعه

أصوات خافتة متفرقة ويملؤه وجود لا سبيل الى الهرب منه .
ان ثمة احتقارا خبيثا قد شاب عودة المربية عقب رحلته
الفائسلة الى المقابر . فبدت وكأنها تريد ان تبلغه بكل ما أوتيت
اثناء حياتها من مرح وصخب أنه لا جدوى من محاولاته
للتنخلص منها . بدت وكأنها تبغى أن تقول له بأسلوبها المرح
وهى تسقط فوقه مقبلة اياه — « لقد خلتنى ميتة .. ولكن
هيهات .. فأنا أكثر حياة مما كنت في أى وقت مضى .. وعليك
أن تحيا — من أجلى ! » فنهض متكئا على مرفقه مستمتعا
بنكهة ذلك الاحساس يراوده تفكير عميق . وبدا له في وضوح
أنه منذ تلك اللحظة فصاعدا لن يفتأ يفوص كل يوم في أعماق
ظلام لا مهرب منه . ولكنه أدرك أن ذلك لم يكن يفضبه في
شيء . فقد كانت كل خطوة فى الواقع تحمله نحو التضحية
الطقسية بنفسه — تلك التضحية التى راوده بها احساس
داخلى اثناء وجوده فى البقعة المكشوفة بين أشجار السنديان
فى يوم الاحد الذى لشد ما بعد به العهد . بهذه التضحية التى
تعبر عن عقيدته التلقائية الغامضة فى الحياة يتحرر من قيوده
وليس ببضع زهور تنثر فوق قبرها وانحنائه فى خشوع
وصلاته فى طقس دينى مبتذل . عندئذ كان كل شيء على أهبة
الاستعداد . وما كان عليه الا انتظار الفرصة التى تمده
بلاريب بالظروف الملائمة والنضوج الروحى الذى تقتضيه
تلك التضحية .

- ١١ -

وذات صباح بينما كان يهرول خارجا من المنزل فى طريقه
الى المدرسة بدا له أنه يكتشف فى نفسه احساسا داخليا بأن
مصيبة ما كانت وشيكة الوقوع . واتخذ ذلك الاحساس شكل
توقف فى مجرى تفكيره واستنتاجاته المضيئة كما اتخذ شكل
التوجس القلق من حدث ما كان يواجهه بالفعل ومع أنه لم
يكن قد وقع بعد فقد كان ثابتا مستقرا ولا سبيل الى تجنبه ،
وكان يخالجه انفعال مرضى طفيف . فقد أحس وكأنه لم يعد

موحدا غير قابل للتجزئة بل مقسما الى أجزاء طافية هنا وهناك لم تفتأ تهبط وترتفع بعضها الى جانب بعض وقد تجمعت كلها في سكون خامد كحطام السفينة أثناء الهدوء الذي يعقب العاصفة . ولاحظ أنه بات يرى الأشياء بعينين اختلفت طبيعتهما ، أو الأخرى أنه كان لا يراها بل يسيطر عليها عن طريق حاسة جديدة تماما بدت موزعة على جميع أجزاء جسده . . ولم يمكنه أن يحدد مكانها . ومع ذلك فقد أحس في نفس الوقت بحزن مرير ولكنه معقول — حزن الاستسلام الذي جعل كل عمل من أعماله جهيدا مدركا كما لو كان كل منها خطوة لا سبيل الى التراجع فيها في طريق مهلك مشؤم .

كان الطقس رديئا ولكنه لم يزل متقلبا لا يستقر على حال . فلقد اكفهرت السماء وتلبدت بالغيوم ولكنها لا تسقط المطر الذي يثقل كاهلها . وثمة ريح رطبة كانت تهب بين آن وآخر فتثير الهواء الساكن اللطيف . وعندئذ يرى لوقا أوراق الشجر في الحدائق وهي تتقلب كلها في نفس الوقت وقد انبعث منها وميض فضي . بينما ترتفع من أحجار الارصفة الجافة حوايا من الغبار الرمادي فيسمع لها فحيح على نواصي الطريق . ولكن الريح لا تلبث أن تهدأ مرة أخرى في الحال . وتظل أحجار الرصف على جفافها . كانت حالة الطقس تشببه حالته النفسية . وبدا له أن الحالتين متماثلتان تماما فيما يخص انتظارهما حدثا ما . فربما أمطرت السماء في النهاية وربما وصل هو أخيرا الى قرار . ولكنه خيل له أن من أجله تلبدت السماء بالغيوم على هذه الصورة المنذرة المهددة وأنه ينبغي أن يرقبها كما يرقب الممثل زميله حتى لا تفوته اللحظة التي يجب أن يظهر فيها على المسرح .

ولشد ما استلقت نظره ذلك الشعور الجديد الذي كانت تبثه في نفسه أبسط فعالة المألوفة مثل السير في الطرقات ودفن ثمن بطاقة الترام وهبوطه منه . انها نفس الفعال التي ظل سنين عديدة يؤديها كل صباح وهو في طريقه الى المدرسة غير انه كان في الماضي يؤديها دون أن يلاحظها ، وكان لا يفتأ يحمله أثناء ادائها تيار لا ينقطع من المشاغل والخواطر

المختلفة في حين انه اليوم وقد تجردت حياته تماما من كل شيء صار يركز عليها وعيه كله لاقتاده الى غيرها من الاشياء . وخیل له أن في طبيعتها العادية غرابة سخيفة مستبدة . وكان هذا الوعي لا يهيمه الهدف النهائي من تلك الفعال — كالذهاب الى المدرسة مثلا وقد بدا له ذلك سخيفا منذ امد بعيد — بقدر ما تهمة الفعال نفسها كل على حدة . وكان هذا هو الجديد في الامر . لماذا يحرك ساقيه ؟ ولماذا يتجنب أن تصدمه مركبة الاتوبيس ؟ ولماذا يتوقف عن السير ليرتب من جديد حزمة الكتب التي يضعها تحت ذراعه ؟ ولماذا يجذب قبعته فوق جبهته ؟ كان يخیل له عندئذ وكأن حياته المألوفة قد صارت بعد اختزالها غلافا رقيقا من العادات التي أضحت آلية . ولشد ما باتت مملة لهذا السبب بالذات — كان يخیل له وكأن حياته هذه كادت أن تفلت منه الى غير عودة كما تنضو الحية جلدها في فصل الربيع . ولقد لاحظ عن طريق هذا الاحساس بالسخف الشامل لكل ما لم يكن سخيفا قط حتى ذلك الوقت أن أزمته الطويلة أخذت تدنو من نهايتها وانه لم يبق أمامه الآن سوى أن ينفذ عن نفسه بهزة طفيفة ذلك الغلاف الممل فيسقط عنه . وتكهن أن احساسه الداخلي كان هدفه هذه الهزة ولا شيء سواها .

ثمة حشد أسود من الطلبة أمام مبنى المدرسة أخذ يتضاعف كل لحظة على صورة واضحة بينما تمتصه البوابة الكبيرة في سرعة بين فكها الرماديين العتيقين . ولم يسعه الا أن يرى أن وصوله هناك كان في الموعد المحدد بالضبط . وبدا له ذلك الخاطر أيضا عاديا للغاية — أو بعبارة أخرى كريبا مستبدا . وفي الداخل كاد الظلام أن يخيم على المدرسة وقد بدا له سيل الفتیان الذي سرعان ما امتلأت به الردهة وهو يتفرع الى جداول صغيرة كثيرة يتدفق كل منها في دهليز — بدا له هذا السبيل وقد امتلأ مرحا عصبيا مخبولا ، وكأن زملاءه كان يخالجهم نفس احساسه الداخلي . وبلغ باب غرفة فرقته ثم دخل الغرفة نفسها فرأى في الطرف القصى منها مقعد الاستاذ وقد وضع بين خريطتين كبيرتين . . . وكما صور له المقعد منظر الاستاذ وهو يلقي الدرس ،

كذلك أوحى إليه الصفوف الثلاثة من القماطر المتقاربة بصفوف الطلبة وهم يصفون إليه في انتباه . كان كل شيء معينا من قبل : فكان جالسا بالفعل الى قمطره رغم خلوه منه . كما كان زملاؤه جالسين بالفعل رغم تزاحمهم حوله وكان الاستاذ قد صعد بالفعل الى المنصة رغم أنه لم يصل بعد . وكانت الانوار مضاءة فلشد ما أظلمت الدنيا بسبب رداءة الطقس وانعكست خيوط الضوء الصفراء الرفيعة على ألواح الزجاج القذرة في النوافذ الكبيرة . فاتجه لوقا الى قمطره وانتظم من حوله بقية الطلبة كل في مكانه . وعندئذ عاوده احساسه بألية أعماله السخيفة . وراودته رغبة صادقة في أن يأتي تلك الهزة الطفيفة ليرى ماذا يحدث . ودخل الغرفة استاذ اللغة الايطالية وهو رجل ضئيل أنيق الهندام ذو وجه أبيض ممتلئ وسار عبر الغرفة ناشرا من حوله الهدوء والانتباه أثناء سيره . ثم اعتلى المنصة واستدار ليواجه طلبة الفرقة الذين وقفوا جميعا . وعندئذ انبعث صوت الاستاذ قائلا — « جلوس » ولكن لوقا ظل واقفا يرواده احساس المغامر عندما يقرر البدء في لعبة ما .

وفي أثناء ذلك كان الاستاذ نفسه قد اتخذ مكانه حيث فرك يديه وأخرج من جيبه منديلا نظيفا نشره وتمخط فيه ثم أعاده الى جيبه مستقرا في جلسته في مزيد من الراحة — فعل كل هذا دون أن يرفع بصره عن سجل المدرسة الذي وضع مفتوحا على مكتبه . ولم يسع لوقا الا أن يتخيل أنه لو كان في مكان الاستاذ لعد حركاته تلك التي تتكرر كل صباح طفيانا لا يحتمل . وكانت هذه الحركات تمهيدا لحركات أخرى كانت أيضا لا تفتأ تتكرر . وفي تلك الاثناء كان لوقا لا يزال واقفا . وبعد ما فحص الاستاذ السجل رفع بصره نحو الفرقة حيث رأى لوقا واقفا فسأله قائلا في هدوء — « ماذا هناك يا مانسى ؟ »

فتساءل لوقا قائلا — « هل أجيبه أم لا ؟ » ثم قال بصوت واضح — « لا شيء » فقال الاستاذ — « اذا لم يكن هناك شيء اذن فلتجلس » وكان الاستاذ يتميز بصوت قبيح

بارد اللهجة محكم النبرات ، ومع ذلك فقد كان من الواضح أنه مغرم بالاستماع الى نفسه .

عندئذ لم يفتح لوقا فاه بل ظل واقفا . فدهش الاستاذ قليلا ثم نظر اليه وردد كلامه قائلا — « هل سمعت ما قلته ؟ اجلس »

وساد الصمت مرة اخرى — عندئذ كان الطلبة جميعا ينظرون الى لوقا في دهشة لاهثة . فحلق فيه الاستاذ وأردف قائلا في صوت رقيق — « هل هناك ما تريد أن تقول ؟ »

فأجابه لوقا قائلا — « ليس لدى ما أريد أن أقوله » ثم جلس في مكانه فجأة . وتنهد الطلبة جميعا في ارتياح . أما الاستاذ فقد رماه بنظرة فاحصة ثم مالبت أن التفت مرة اخرى الى سجله دون أن ينبس بكلمة . وكان الدرس في قصيدة (المطهر Purgatorio لدانتى (١) وكانت طريقة الاستاذ المألوفة أن يختار أحد التلاميذ ممن يمتازون بحسن الالقاء ويكلفه بقراءة فصل من القصيدة أو جزء من فصل بصوت عال . ثم يعقب ذلك تعليقه عليه . ومر الاستاذ بأصبعه على قائمة الاسماء في السجل وكاد لوقا أن يقطع بأنه سوف يختاره هو للقراءة في تلك المناسبة . وكانت لذلك أسباب ثلاثة : أولا أنه يجيد القراءة للغاية وثانيا أنه لم يكلف بذلك منذ بعض الوقت وثالثا وهو السبب الرئيسي أن الحادث الصغير الذي تسبب فيه ببقائه واقفا ان جاز لنا هذا التعبير قد ميزه عن باقى زملائه وجذب اليه انتباه الاستاذ .

وامكنه ان يرى أصبع الاستاذ وهو يمر بها على العمود الاول من الأسماء ثم اذا بها تتوقف عند رأس العمود الثانى وهو يقول — « مانسى . »

(١) Alighieri Hanté (١٢٦٥ — ١٣٢١) شاعر ايطالى كتب الكوميديا الالهية وهى تحكى رحلة المؤلف الخيالية خلال الجحيم والمطهر والفردوس .

وبدا للوقا ان أى استاذ آخر فى نفس الموقف ربما اضاف الى دعوته للقراءة بصوت عال ملحة ما او ملاحظة المعية تتعلق بالحادث - كأن يقول مثلا « لما كنت شديد الكلف بالوقوف اذن فيحسن بك ان تأتى الى هنا وتقرأ » ولكن ذلك الاستاذ كان جادا ولا يعرف المزاح . فقد كان من بين اولئك المدرسين الذين يحتقرون مهنتهم ويعلمون التلاميذ بطريقة تتسم بالتنازل والانعزال رغم ما فيها من عناية ودقة وكأنهم يريدون ان يفهم الناس عنهم أنهم لو شاءوا لاجادوا . ومع ذلك فان لوقا الآن عليه ان يحزم امره هل يستجيب لهذه الدعوة أم لا .

وكان جاره فى القمطر يناوله فى قلق كتاب الكوميديا الالهية Divina Commedia وقد فتح فعلا عند الصفحة المطلوبة بينما أخذ الاستاذ يقلب فى هدوء صفحات نسخته الخاصة . وخطر للوقا ان مدرسيه وزملاءه جميعا كانوا يريدون له ان يحيا ويواصل الحياة . وطرات على ذهنه ذكرى المربية فأحس بقوة فى عزمه وتصميمه . فسوف يطيعه مؤقتا ولكنه ما ان يعاوده الشعور بطبيعة اعماله العادية حتى يتمرد . وادرك انه لن يقوى على التمرد الا اذا اكسبه ذلك الطابع الآلى المدقق الذى تتميز به الألعاب . فتناول الكتاب وغادر قمطره الذى كان من بين القماطر الاخيرة فى نهاية الغرفة . ثم سار نحو المنصة .

ولاحظ ان الغرفة قد عتمت على صورة واضحة . كما اخذت أولى قطرات المطر تصطدم بزجاج النوافذ حيث تنتشر فى رقا عريضة سائلة تتساقط منها قطرات اخرى صغيرة فى خطوط لامعة . وفجأة وجد نفسه يسير فى هدوء نحو المنصة ممسكا بالكتاب فى يده . واذا به يتوقف فى نفس اللحظة .

وقف ساكنا وقطرات المطر تتدفق على زجاج النوافذ بينما كان الاستاذ والطلبة ينظرون اليه . واخيرا سأله الاستاذ قائلا : « ماذا تفعل بوقوفك هناك كالعمود » ؟ .

عندئذ كان لوقا يتسأل كم يمكن ان يطول وقوفه هناك

دون ان ينزل به عقاب ما • بل لقد بدا له ان العقاب افضل
من الطاعة الآلية المألوفة • فهو على الأقل يكشف تماما عما في
الحياة من طبيعة قهرية عميقة عارية من المظاهر الكاذبة الخداعة
ثم سمع الاستاذ يردد مرة اخرى وسط السكون قائلا له :
« انى اتحدث اليك •• اجبنى •• هل انت مريض ؟ »

وسرت فى ارجاء الغرفة متممة مختلطة لم يلبث الاستاذ ان
قطعها فى الحال بطرقات مسطرتة على مكتبه وهو يصيح
قائلا - « أصمتوا » • ولكن الوقت عندئذ قد حان • فقال
لوقا فى جهد - « لاشيء » وأحس ان ساقيه كانتا تحملانه
الى الأمام تجاه المنصة • ثم سرت همهمة أخرى من الاصوات
الخافتة وللمرة الثانية أمر الاستاذ التلاميذ بالصمت ولكن
فى لهجة أرق دون أن يطرق المكتب بمسطرتة • ثم التفت
نحو لوقا وقال له فى ايجاز - « اقرأ ابتداء من السطر الخامس
بعد الثمانين من الفصل الخامس » فخفض لوقا عينيه نحو
كتابه وبدأ يقرأ قائلا : (١)

Poi disse un altro: Deh se quel disio
si compia ehe ti tragge all'altro monte
Con buona pietate aiuta il mis
io fui di montefeltrs, is son Buonconte

كان لوقا يمتاز دائما بالالقاء الرائع • وبدأ الاستاذ وقد
عاوده هدوءه عند سماعه صوته وهو يقرأ بطريقة هادئة
معبرة • كما سرت بين الطلبة فى الهواء المعتم نسمة ارتياح •
وواصل لوقا قراءته فى صوت قوى واضح • ومع ذلك فقد
وثب عقله فى نفس الوقت خارجا من رأسه - ان جاز لنا هذا
التعبير - وكأنه قد وهب حاسة التواجد فى كل مكان فى
نفس اللحظة ثم اتجه الى الطرف الآخر من غرفة الدرس حيث

١ - وقال آخر « لو تحققت رغبتك فى صعود الجبل فهلا اشفتك على
وساعدتنى على تحقيق أمنيتى أنا بونكونتى من مونت فولترو »

علقت على الحائط سترات وقبعات • وأخذ ينظر اليه من هناك • فأثار هذا في نفسه مرة أخرى ذلك الشعور « بالعادية » وقد تراءت له خلف مظهر من الغرابة والقهر وكان شعورا أليما وسارا في نفس الوقت • ولكنه بدا في نفس الوقت انه يقرأ بقوة متتبعا معاني الالفاظ التي كانت تتفق مع احساسه على صورة غريبة • فتذكر تلك المرات العديدة التي كان يرغب فيها بل يتودد الى ميتة خفية مجهولة وحيدة غامضة • وما أن بلغ الاسطر التالية : (١)

Dove il vocabol sus diventa vans,
Arriva'is' ferats nella gola
Fuggends a piede e sanguinands il pians
Quivr perdei la vista, e la parola
Nel nome di maria fini, equivi
Caddi, erimase la mia carne sola.

حتى فاجأ شعور بالشفقة الغامضة الشوها فأحس بالاختناق • انها شفقتة على نفسه التي حركت عواطفه عندما خطر له لأول مرة أن يموت قتيلا ثم يدفن في الحدائق العامة • وارتفع شعوره هذا الى سطح وعيه في صورة نداء لأداء واجب يتسم بالجدية والكآبة ولكنه لا معدى عنه • واستمر في قراءته بصوت أقل ثباتا ولكنه عميق وجياش بالعاطفة • وألح عليه اعتقاده انها لعبة في صورة رغبة في العناد والعصيان • ولكنه امتزج عندئذ على صورة غريبة بذلك الاحساس الحاد

(١) ذلك النبع الذي تغير اسمه عما كان عليه
اليه وصلت وفي عنقي جرح غائر
هاربا على قدمي وملونا العشب بالدماء
هناك فقدت بصري ولم أعد أستطيع النطق
وكان اسم مريم هو آخر ما نطقت به .
هناك أسلمت الروح ولم يبق مني سوى الجسد .

المفاجيء بالشفقة . وما ان قرأ بعد ذلك بضعة سطور حتى أخذ يتساءل عما اذا كان يستمر في قراءته وهو يعلم جيدا أن تساؤله هذا كان يعنى توقفه عن القراءة . وفى الواقع فانه ماكاد يصل الى البيت الذى يقول : (١) **il di fu spento** Indi la valle come حتى انقطع عن القراءة .

وساد الصمت لحظة . فسأله الاستاذ قائلا : « ثم ماذا ؟ »
وران على الغرفة ذلك السكون الذى تنقطع معه الانفاس
انتظارا لحدث خارج عن المألوف . كان الجميع فضلا عن
الاستاذ ينظرون اليه . ولكن لوقا لم يعد يرى او يسمع شيئا
فقد خيل له أنه (بوكونتى - الح **Buoncentè** وقد قدميتا

عند ملتقى النهرين . كما تراءت له السحب المحملة بالامطار
تسوقها نفحة من ريح مثلجة وهى تهبط من قمة الجبل الخفية
نحو المكان الذى رقد فيه على صورة سنابك رمادية هادئة
تلف جسده فى سكون وضباب . ومن خلال هذا الضباب
بدأ المطر يتساقط فوقه ومن حوله وهو يثقب الارض المبللة
وينتشر على شكل دوامات فوارة ليصب فى بحيرة ارتفعت
مياها الجياشة واختلطت بدورها بمياه النهر الفياض
فارتفعت ورفعت معها جسده الذى أوشك أن يغمره ثم جرفه
بعيدا . وبينما كان المطر الغزير ينهمر أخذ ينزلق خلال المياه
الثائرة وقد رقد على ظهره باسطة ذراعيه . وفجأة أحس بالم
حاد . وما أن سمع اسمه حتى رفع عينيه فاذا بدمعتين
تنحدران على وجنتيه .

كان الاستاذ ينظر اليه فى دهشة واحتقار . وسأله قائلا:
« أتسمح لنا بأن نعرف ماذا دهاك ؟ هل تنوى القراءة أم لا؟ »
وخطر للوقا انه كان من الواضح عندئذ وجوب استمراره
فى الدراسة حتى النهاية حتى ولو كان يرغب فى الموت .
فانتظر لحظة ثم سأل قائلا : « هل استمر ؟ »

(١) « وعندما انقضى النهار كان الوادى الذى انتشر فوقه . . . »

وسرت في أرجاء الغرفة المعتمة ثرثرة عنيفة من التقيد .
فأشار الأستاذ لطلبة الفرقة بالتزام الصمت والتفت الى لوقا
قائلا : « أين تتخيل نفسك اذن ؟ عليك أن تستمر بالطبع . »
وألمحت عليه عاطفته . وتوقفت الدموع في منتصف
الطريق على وجنتيه حيث كانت تدغدغه على صورة بغیضة .
وحدث لوقا نفسه قائلا : « سأقرأ حتى نهاية قصة بوكونتى

لأنها قصتي . . . ثم أتوقف . » واستجمع شجاعته ثم بدأ
يقراً مرة أخرى في صوت زاد من وضوحه وقوته انه كان يعلم
بينه وبين نفسه علم اليقين ان ما يقرؤه لم يكن وصفا لموت
احدى شخصيات دانتي بل لموته هو . وخيل له عندئذ أن
الأستاذ لم يكن ينصت اليه بقدر ما كان يراقبه في فضول .
وكذلك فان بقية الطلبة عندئذ بدوا وكأنهم يتوقعون منه
تصرفا غريبا جديدا . وقرأ بعد ذلك فقرتين جديدتين دون
أن يتعثر لسانه . ثم توقف مرة أخرى كما تنبأ تماما عند
السطر القائل : Poi di sua preda mi coperse e cinse (١)

وعندئذ انفجر الطلبة جميعا في ثرثرة مختلطة تكاد البهجة
أن تشيع فيها رغم ما يشوبها من انزعاج في نفس الوقت .
ولم يحاول الأستاذ ان يهدى الضجة بل التفت الى لوقا قائلا
في صوته الطبيعي : « انك لست على مايرام . . خذ حاجياتك
وامض الى المنزل . . وبعد بضعة ايام سوف نتحدث في الامر . »

وود لوقا لو أجابه قائلا : « انى بخير . » ولكنه أحس
برجفة تسرى في بدنه أعقبها موجة من السخونة الرطبة
المحمومة فاعتقد ان الأستاذ ربما كان على حق . ومع ذلك
فقد حدث نفسه قائلا انه اذا ما أبى ان يكون كما يريد الناس
أو كما يعتقدون انه كذلك فاما ان ينزل به العقاب أو يظن به
المرض . وقد استغرق تفكيره ذلك الخاطر وهو يجمع الكتب

التي أخذ جاره يخرجها له من داخل القمطر في جزع مشفق
مدعور ويناوله اياها واحدا بعد الآخر . كان الجميع ينظرون
اليه في صمت . . . وعندئذ أخذ المطر يتدفق على زجاج
النافذة . ولم يسع لوقا الا أن يقول لنفسه انه ذلك المطر
نفسه الذي سبق ان تراءى لمخيلته وهو يغطي جثته ويجرفها
معه . وضع كتبه تحت ذراعه واتجه نحو نهاية الغرفة .
فاستدار ثلاثون رأسا لمراقبته أثناء خروجه . وقال الاستاذ
مناديا تلميذا آخر من الفرقة : « لويكونو » . تناول لوقا
معطفه وفتح الباب ثم غادر غرفة الدرس .

وهرول خلال الدهاليز المقفرة حيث أمكنه أن يرى من
خلال أبواب الغرف الاخرى المفتوحة صفوف القماطر وقد
جلس اليها الطلبة في انتباه كما أمكنه ان يسمع وسط
السكون المحيط أصوات الاساتذة المنفردة وهم يحاضرون .
كانت أشبه بأصوات الكهنة وهم يرتلون الصلاة على صورة
آلية في كنيسة ما . وكان رجع الصدى في الغرف الكبيرة
يجعل من المستحيل عليه ان يميز معاني الالفاظ . هبط
الدرج ووقف يتطلع الى الطريق بانتعاش مفاجيء وقد ابتلت
ملابسه بالماء . وأخذ المطر يهطل بغزارة بينما يسمع خريره
على الارصفة . كما ارتسم في الهواء بياض مخطط بالمطر .
ومن خلال ذلك البياض وتلك الخطوط المائية كانت ترتعش
بين الفينة والفينة لمعة قوية من وميض البرق . وسمع عن
بعد هزيم الرعد وعلى مسافة أقرب قعقة مدوية كصوت
انهيار صخور مقلقلة انتهت بانفجار حاد بدا وكأنه يؤذن
بانهمار المطر من جديد . ثم خطا الى خارج الباب وبدأ يسير
عاري الرأس خلال الطوفان .

وخيل له أن المطر قد أحال البلدة كلها الى ماء . فبدت
المنازل وكأنها أعمدة منتصبة من المياه الرمادية وبدت
الافاريز وكأنها مسطحات من الماء الخرار المائل الى الصفرة .
كما بدت أشباح المارة المعتمة المبهمة وهم يركضون ليحتموا

من المطر بمدخل الدور - بدت أشباحهم أيضا وكأنها مائية •
وكذلك بدت أعمدة المصابيح التي أخذت تموج كالحيات
السوداء النحيلة وكتل عربات الترام المائلة الى الخضرة التي
أخذ يتضخم حجمها وهي تدنو نحوه من الطرف القصي
للشارع • كان المطر ينهمر في اتجاه معين ثم لا يلبث أن
يغيره عندما يتغير اتجاه الريح حتى تخاله يسير طبقا لنظام
معين • وأحس لوقا بالماء يتدفق من شعره الى خلف عنقه ثم
يتسلل الى داخل قميصه حيث ينحدر على ظهره • وابتلت
الكتب تحت ذراعه • ثم خطا في بركة من الماء وخاض فيها
حتى بلغ الماء رسغيه • • وبعد ذلك أخذ يراوده في كل
خطوة ذلك الشعور البغيض بأن قدميه تفرزان الماء وهما
محتبستان في حدائه الزلق المنتفخ • وهكذا فقد بلغ منزله
وهو يسير ببطء في الماء وخلال الماء •

وما أن وصل الى غرفته حتى ارتمى على الفراش وانتابته
الرجفة في جميع أجزاء بدنه • وكانت تهزه من أعلى رأسه
الى أخمص قدمه دون أن يستطيع السيطرة عليها • وفي
داخل فمه كانت أسنانه تصطك في قعقة مدوية وكان له
في جمجمته صفيين من النرد بدلا من الاسنان • وكان يحس
بالآلم في جسده كله • وفي بعض اللحظات كانت تسرى في
بدنه وتستحوذ على وجهه سخونة عنيفة بدت وكأنها محفوفة
بالجليد •

ثم سمع الباب يفتح ولم يتحرك • كان مضطجعا على ظهره •
ورأسه في طرف الفراش وقدماه على الوسادة : وسمع أمه
تسأله قائلة : «ماذا تفعل ؟ وما خطبك ؟ ولم لم تذهب الى
المدرسة ؟ » فأجابها قائلا على مضض : «أخالني مريضا • »
فأحس بيد تربت على جبهته ثم سمع أمه تهتف قائلة : «انك
ملتهب من السخونة • • • عليك أن تلزم الفراش في الحال • »
عندئذ بدأت أجراس الكنيسة القريبة تدق معلنة انتصاف
النهار •

ظل لوقا مريضا حوالى ثلاثة شهور . ولشد ما صفا ذهنه
طوال الشهر الاول من مرضه رغم شدة ارتفاع درجة حرارته .
ولكن ذلك الصفاء كان يبدو له أحيانا حادا على صورة غير
طبيعية بل كثيرا ما استحال الى انفعال عنيف او حديث ثائر
لا لسبب الا لتلازمه مع حالة مرضية محمومة . ولم يعد
يستعجل المنية . فقد كان على يقين من الموت ، ورضى بذلك
اليقين . ولما كان مقتنعا بدنو أجله فما كان عليه الا أن يرقب
الموت وهو يقترب منه ويستمد من ذلك متعة خفية . والآن
لم يعد يكره نفسه كما كان يفعل من قبل عندما ييأس من
قدرته على متابعة سياسة التمرد حتى نهايتها القصوى .
وراوده بدلا من ذلك شعور بالازدراء الظافر تجاه تلك القوى
الكائنة فى نفسه والتي مازالت تقاوم وما زالت تبغى ربطه
بالحياة . انها هى التى جعلته يحب دراساته وأباه والمربية
والتي صارت الآن وقد تجردت من دعائمها السابقة تتشبث
بالقشبات الاخيرة قبل أن تغوص نهائيا فى طوفان الموت
الأسود - وكانت تلك القشبات تتمثل فى المرق الذى يرغمه
الخادم على تناوله جرعة جرعة وفى شعاع شمس الشتاء
الذى يبلغه وهو راقد فى فراشه كما تتمثل فى عيني أمه
الحزينتين وفى تعبير أبيه القلق المنزعج . كان راغبا فى
الموت وكان على ثقة من انه سيموت . غير انه عندما قالت له
أمه بلهجة حزينة ولكنها مشجعة : « هيا . زد من طعامك
قليلا . . . فانه سيعينك على الشفاء . » عندئذ حالت تلك
القوى الحقيرة فى نفسه دون أن يرد عليها كما كان يود قائلا :
« ولكننى لأبغى الشفاء بل أرغب فى الموت . » كما أرغمته
على أن يتسم لها فاغرا فاه . بيد انه كان يعزى نفسه
بتصوره أن تلك تنازلات من أجل حياة الآخرين وليس من
أجل حياته هو التى كانت عندئذ قد أقلعت ورحلت بلا عودة
من تلك الشواطىء التعسة التى طالما تلكأت بجانبها .
ولشدة ما قوى فى نفسه تحت تلك الظروف ذلك الازدواج

الذى تقمص حياته منذ أن بدا له الموت حلا وحيدا لمشاكل علاقاته بالعالم - حتى اكتسب ذلك الالتئام الحاد الذى تتميز به كوميديا الاخطاء . فكان مع والديه يلعب منقادا دور المريض المتماثل للشفاء وقد صار عندئذ فى دوره هذا منعزلا تماما . كما كان يلعب دور الطالب الذى لن يلبث ان يعود الى دراساته ودور الفتى اليافع الذى سوف يكبر ويصير رجلا . ولكنه لا يكاد يخلو الى نفسه لحظة حتى لا يعدو أن يكون وهو فى كامل وعيه وتمام رضاه ذلك الرجل المحتضر الذى يترقب دنو أجله بنفس عامرة بالامل . وكان يجد متعة فى قياس درجة حرارته فى الصباح الباكر وفى مشاهدة ذلك العمود اللامع داخل ميزان الحرارة وهو يثب بسرعة مرتفعا الى أقصى الدرجات . وكان خلال ساعات الاصيل الطويلة عندما ينتابه سباته المحموم يجد متعة فى احساسه بالمرض وهو يطغى على وعيه . كما كان يمتعه أثناء الليل أن يتصور احدى ستات النوم الخاطفة المليئة بالعرق والحمى التى كان يستسلم لها من وقت لآخر - وقد استحالته الى موت دون أن يعي ذلك . وقد اكتسب حينه الى الموت عندئذ حدة غريبة ومادية محسوسة حتى كاد يبدو أنه يتوق الى الموت بنفس الشهوانية التى كان يتوق بها فى وقت من الاوقات الى أحضان المربية . وأحيانا كان يخطر له أن الموت ربما كان هو المتعة الحقيقية الوحيدة التى تدخرها الحياة للجنس البشرى .

وكانت أمه أحيانا تضع الخطط لمستقبله . فقالت له ذات يوم - « عندما تترك المدرسة يجب أن تحصل على درجتك . . فان درست القانون أمكنك أن تعمل مع والدك وأن تثرث عنه عملاء ومكتبه . . وعندما يحين الوقت المناسب عليك أن تقترن بفتاة من أسرة طيبة . . ولكن يحسن بك قبل الزواج أن تسافر قليلا لترى جانبا من العالم . فانا ووالدك متفقان فى ذلك . . فيجب أن تذهب الى فرنسا وانجلترا . . وبهذه الطريقة تلم أيضا باللغات عن طريق التحدث بها فور الساعة .

فقال لوقا متظاهرا بأخذ برامج أمه مأخذ الجذ - « ولكن السفر على هذه الصورة يكلف نفقات باهظة . »
فأجابته أمه قائلة في كبرياء - « سوف نكفلها لك . فنحن ميسورو الحال . . ولن تفتقر أبدا الى النقود مادمت تستغلها فيما يفيدك . »

وتمنى لوقا لو هتف قائلا - « ولكنى لن أقصر فقط عن الحصول على الدرجة أو السفر الى الخارج أو الزواج . بل ان قدمى لن تلمسا الارض مرة اخرى . » ومع ذلك فقد نجح فى السيطرة على نفسه رغم ما أثارته تأكيدات أمه وعدم فطنتها من سورة غضب أحس معها بقلبه وقد ضاعف من دقاته وبأسنانه وهى تطحن بعضها البعض على الرغم منه . ثم أجابها بصوت ينبىء بطمع صبيانى قائلا - « ولكنى أحب أيضا أن أسافر الى ألمانيا . »

وقد بدت له عندئذ بعض دقائق الحياة التى لشد ما كان يهتم بها فى وقت من الأوقات والتى كانت محمودة فى حد ذاتها وقد ألقى بها بعيدا - كالصحيفة التى كان يأتى بها والده ويقرأها فى غرفته عقب تناوله الوجبات مباشرة وبينما كان ينظر الى أبيه وقد تحددت معالم هيكله على النافذة من خلفه والى الجريدة المفتوحة بين يديه اذا به يمتلىء نفورا من العالم الذى نشرت فيه تلك الجريدة وبيعت وقرئت . ولم يكن ذلك راجعا الى عبث الأشياء التى تحتويها الصحيفة - ذلك العبث الذى كان عندئذ قد استبعده - بقدر ما كان راجعا الى سخف الشيء نفسه وعدم جدواه - تلك الورقة الرقيقة المبسوطة بما عليها من علامات سوداء تتابعها عينا والده فى سرعة وصمت . ذلك هو العالم الذى كانت تحدث فيه أشياء من هذا القبيل لا حصر لها ولا مبرر بل ولا سبيل الى تبريرها - عالم كان يسير فيه كل شىء بلا هدف وعلى صورة آلية بقوة القصور الذاتى . وكان يسره اعتقاده أنه لن يلبث أن يترك ذلك العالم ولم يكشف عن حقيقة تفكيره سوى مرة واحدة ولمدة لحظة واحدة صار فيها

هذا التفكير انفراديا بدلا من ازدواجه . وذلك عندما فكرت أمه في الترويح عنه فأخذت تبحث عن مجموعة طوابعه . وتركها تنقب قليلا هنا وهناك باحثة عنها دون ماجدوى ثم قال لها « انها لم تعد هناك . فقد تبرعت بها . »

ولم يسع أمه الا أن تهتف قائلة في انفجار فجائي غاضب « ماذا ؟ تبرعت بها ؟ » ثم بدا عليها أنها تذكرت مرضه فأردفت قائلة في صوت أرق : « ولكن لماذا تبرعت بها ؟ .. ما الذي طرأ على ذهنك ؟ »

فأجابها لوقا قائلا في صوت يكاد ألا يسمع – « تبرعت بها لأنني كنت أعلم أنني سأموت . »

لم يكن هذا الكلام صحيحا في مجموعه . فانه في الواقع لم يتبرع بمجموعة طوابعه لانه كان يعلم أنه سيموت بل لانه أراد أن يموت . ولكن أمه انزعجت . وما ان رمته بنظرة سريعة حتى قالت له فيما يشبه قسوتها القديمة – « والآن لا تتفوه بلفو فارغ .. فماذا تعنى بقولك انك ستموت ؟ انك مقبل على الشفاء . »

وخيل للوقا أنه يتمثل في هذه الكلمات كل ما كافح من طغيان طوال هذا الزمن . وعندما غادرت أمه الغرفة قال بصوت عال وبلهجة متحدية – « من ذا الذي يقول اني سأشفى؟ فاني ميت لا محالة . »

ومع هذا فان حنينه للموت ذلك الوقت – كما كان بلا شك قبل مرضه – لم يظهر له قط في زى نزوة انتحارية . ولو أن أحدا حدثه عن الانتحار لانتابته الدهشة بلا شك وذلك لان هذه الكلمة – فضلا عن الفعل – لم تطرأ قط على ذهنه . حتى وهو يعاني هزال المرض كان حنينه للموت يكاد يبدو له بنفس الطريقة التي كان لايفتا يبدو بها له كلما فكر فيه في وضوح وتصميم – كتضحية ضرورية وكنهاية لا محيص عنها لسلسلة من التضحيات الأخرى الصغيرة . واستلقت نظره أن تلك التضحية كانت مريرة . ولكن مرارتها لم تكن من ذلك النوع

الذى يوحى به قدر ظالم • بل الأحرى أنها كانت من ذلك النوع الذى يحس به من يشعر بضعفه ووحدته فى مواجهة عمل ضخيم ويعلم أنه لن يستطيع القيام به الا بتضحية كبيرة من جانبه - كانت مرارة لا سبيل الى التعبير عنها وقد اختلطت بفرحة لا يمكن وصفها وكأنه يدرك أنه بموته سوف يحقق هدفا كان يسعى اليه طيلة حياته • ولو انه سئل عن ذلك الهدف لما أمكنه أن يجيب • ولكنه كان يعلم على وجه اليقين أنه مظهر من مظاهر الحب حتى ولو كان ذلك لانه يدفعه الى البغض الشديد •

وذات ليلة خيل له أنه يموت حقا أو بالاحرى أنه أدرك حقا ما يعنيه حنينه للموت • فقد كان نائما ثم استيقظ فجأة على صدمة مؤلمة وهو يحس بجسده كله - الذى خف وزنه الآن لهزاله - يجفل فى عنف الى أعلى تماما كما تبرز الشجيرة الذابلة الى خارج التربة عندما تجذبها اليد التى أتت لتجتثها • نظر حوله فترأت له الغرفة على ضوء المصباح المشتعل طيلة الليل على المنضدة الصغيرة بجانب فراشه وقد اكتسى مظهرها العام بحدة أليمة جديدة • فقد بدت وكأن ذبذبة كثيرة متزايدة قد أخرجت كل ما فيها من أشياء عن حدوده المألوفة كما بدا الهواء مخلخلا تملؤه ومضات من الضوء • ومع أن قطع الاثاث والاشياء الأخرى مازالت بأشكالها غير أنها بدت مشحونة بالمعاني واكتست بتعبير عدائى منذر • لم تكن تتحدث ولكنها بدت وكأنها تتهامس فيما بينها بأصوات خفيضة شريرة • وكان من تأثير تلك الحدة التى تذكر المرء بما يكون عليه الساخطون من الناس وهم يتيحون لمشاعرهم المنذرة التى تترع بها نفوسهم أن تنضج على صورة ملحوظة دون أن يأتوا حركة أو ينبسوا بكلمة - كان من تأثيرها أن نقلت الحقيقة على بعد مؤلم كما أوحى اليه لأول مرة بفكرة الموت فى صورة عملية سحرية تتيح له أن يخلق عالما أقل سخفا وأكثر حبا الى النفس وقربا منها حيث يبرر الحب كل شيء • وأدرك أن فكرة الموت لم تكن تنبع من نفسه بقدر ما كانت تنبع من الحقيقة فى خارج نفسه وذلك لكى يطفى الانسجام على تلك الحقيقة ويعيدها الى

الحياة • فذلك الصوان وتلك الخزانة وذلك الرف الذي يحمل الكتب بل تلك الغرفة بأسرها - وكذلك والداه ومدرسته ومدرسه وزملاؤه وهو نفسه راقدا هناك في فراشه - كل ذلك كان شيئا عاشه في حلم خلال سنوات حياته جميعا كما يعيش الانسان حلما مخيفا غامضا مزعجا ولا يمكنه مهما بذل من جهود أن يدخل عليه شيئا من النظام أو المعنى • فهو في الواقع لم يبدأ حياته عند مولده بل الأخرى أنه بدأ يرى أحلاما مخيفة سخيفة • وخيل له أن موته كان بلا شك أمرا جوهريا وأنه يجب أن ينتهز فرصة بلوغ حلمه المزعج أقصى درجات العنف ليصرخ مرة واحدة ثم يستيقظ •

وتذكر أنه سبق أن راوده نفس الاحساس بالحلم المزعج في تلك الليلة البعيدة عندما رأى والديه من مدخل غرفتهما وهما بملابس النوم وقد امتلأت أذرعتهما بالنقود وكانا ينزلان عن الحائط صورة العذراء فكشفا عن الخزانة المصنوعة من الصلب • وأدرك فجأة أنه من أجلهما كان يبغى الموت ومن أجل العالم الذي يشكلان جزءا منه وذلك لكي يتخلص مما كان يوحيان به اليه من شعور بالكراهية والسخف حال دون أن يحبهما كما كان يتمنى أن يفعل • وبدأ له فجأة أن عملية الموت كانت في الواقع تتوقف عليه وحده ولشد ما تيسر عندئذ القيام بها وقد علم أنه لا يموت من أجل نفسه بل من أجل غيره من الناس • وارتسمت على شفثيه ابتسامة واهنة راضية عندئذ أمكنه أن يحس بالحلم المرتفعة وهي تلف أطرافه بغلالة ملتهبة من العرق وهو راقد تحت كومة من البطاطين المحكمة • وبينما كان يراوده احساس بالاستسلام للموت وابتسامته مازالت مرتسمة على شفثيه أغمض عينيه واستغرق في النوم •

- ١٣ -

ولكنه بدلا من أن يغشاه الموت انتابه الهذيان • فجلست حول فراشه في وقار مجموعة من الحيوانات البدينة ذوات الخراطيم الطويلة وكأنها جمع كبير من الاطباء الجالسين الى جانب

فراش رجل يحتضر . أخذت هذه الحيوانات تميل برعوسها الى الأمام والى الخلف ثم ارتمت كلها جاثية حول الفراش مادة خراطيمها فوق أغطيته كما تتجمع الكلاب حول عظمة . ولشد ما أفزعت لوقا هذه الخراطيم الرمادية الطويلة المرنة الجافة المشققة وقد نبتت بها هنا وهناك شعرات قصيرة متصلة انتصبت واقفة كالدبابيس . وفى طرف كل شعرة مصاصة تحيط بها أهداب مرتعشة تتلألأ فى وسطها كالماصة عين محملة فيه . وكان أضخم هذه الحيوانات الهائلة وأهمها جالسا عند اسفل الفراش ماذا خرطومه بين ساقى لوقا . وأخذ الخرطوم يطول ويطول ملتويا متموجا حتى امتد نحو بطنه . فأمسكه بكلتا يديه وهو يبكي ويصيح محاولا أن ينحيه جانبا . ولكن الخرطوم كان صلبا رغم مرونته ولم يفتأ حجمه يتضخم وهو ممسك به بين يديه حتى امتد نحو وجهه . وفى تلك الاثناء أخذت تظهر على الحائط بالقرب من الباب زوائد خضراء على شكل أصابع ملتوية سرعان ماتكاثرت حتى تكون فى النهاية شلالا متموجا من النباتات المعروفة باسم « مخالب الساحرات » ولها أسلاك ملتوية الى أعلى كالمخالب . وكان النبات معلقا على الحائط فى نفس المكان الذى كانت تقوم فيه عادة حمالة الملابس . وقد بدا وكأنه خرج من شق واسع أسود على شكل أذن ظهر فى الحائط . عندئذ أخذت تطير فى الهواء هنا وهناك قبعة سوداء عريضة الحاشية اتجهت نحو الحائط حيث تعلقت بأحدى الزوائد المخيلية فى ذلك النبات . وتبعتها قبعات أخرى أخذت تطير خلال الهواء الشاحب وكأن يدا ماهرة كانت تقذف بها - قبعات رجالية كبيرة سوداء مستديرة وقبعات نسائية صغيرة تتلألأ « بالترتر » وتزدان بالريش من مختلف الألوان وقبعات على أشكال غريبة لم يسبق له أن رآها قط فى حياته . أخذت كل هذه القبعات تتساقط على النبات حتى غطته وأخفته تماما . ثم اذا بالنبات المحمل بالقبعات ينتزع نفسه فجأة من شق الحائط متحركا عليه بسرعة هنا وهناك صاعدا هابطا كسحلية ضخمة اكتست بالدروع من رأسها الى

ذنبها . بدت وكأنها تحاول أن تهبط الى الارض لتلقى بنفسها على فراش لوقا ولكن الغرفة لحسن الحظ كان يغمرها ماء أسود ساكن حتى نصفها . وكان ذلك المخلوق كلما بلغ الماء انسحب الى الخلف في نفور واضح ثم أسرع متجها نحو السقف مرة أخرى . وثمة حيات طويلة سوداء نحيلة ورشيقة كانت في أثناء ذلك تبرز من الماء وتتمايل رؤوسها المسطحة في هذا الاتجاه وذاك . ومن فوقها يحوم في ثقل طائر أحمر كبير أخذ يطير من احدى زوايا السقف ويهوى الى سطح الماء ثم يرتفع مرة أخرى نحو الزاوية المقابلة . وكثيرا ما كان الطائر يمرق فوق سطح الفراش فاستطاع لوقا أن يرى رأسه وكانت به عين مستديرة بيضاء بدت وكأنها من الزجاج ومنقار أقرني ضخيم . وانقض الطائر على إحدى الحيات فأمسك بها بطرف منقاره ثم جذبها الى خارج الماء وما لبث أن طار بها في الحال نحو أعلى مرة أخرى . فأخذت الحية تدور وتتلوى كشريط يرفرف في الهواء بينما يجذبها الطائر هنا وهناك ويجرها معه في أرجاء الغرفة . ولكن ثمة شرخا عميقا كان عندئذ قد حدث في الحائط من مكان الشق الذي خرج منه النبات حامل القبعات وأخذ يتلوى الى أعلى عبر الحائط ثم واصل طريقه عبر السقف وما لبث أن ظهر في داخل هذا الشرخ سرب كثيف للغاية من حشرات بنية لامعة سقطت احداها من السقف على الفراش بين ساقى لوقا ثم تلتها حشرة أخرى وثالثة . وبعد ذلك سقطت مجموعة بأسرها ثم مئات منها وآلاف حتى أظلمت الدنيا . وعندئذ اكتسى الفراش كله ببساط لم يفتأ يموج بها بينما انطلقت صرخات لوقا مستغيثا ليأتي من يبعدها عنه وعندما بدا له أنه يصعد نحو بطنه أخذ يدفعه الى الخلف بكلتا يديه . وما ان دوت صرخاته حتى انطوى البساط عند أسفل الفراش وهناك بقي ساكنا كاسطوانة هائلة حاشدة . وحينئذ جذب انتباهه خطر جديد . فقد احتبس في داخل قناني العقاقير التي ازدحمت بها المنضدة الصغيرة المجاورة لفراشه عدد من الأقرام الصفار البشعين صلح الرؤوس حذب الظهور وقد امتدت رؤوسهم التي حال لونها الى الخارج وكذلك أذرعتهم

النخيلة وأيديهم المخلبية الطويلة . وثمة قزم آخر صغير خرج من بيضة وضعت في إحدى الصحف وقد انشقت عنه البيضة من أحد طرفيها فبرز رأسه الى الخارج من خلال الشق كالفرخ المنفر . ومن الطرف الآخر برزت ساقاه النخيلتان ثم أخذ القزم يترنح هنا وهناك مرتديا محارة البيضة كما لو كانت قميصا . وثمة قزم آخر كان يمتطي البصيلة المطاطية لقطارة من الزجاج . وبالضغط على هذه البصيلة اذا بمادة سوداء تتحرك صاعدة هابطة داخل الانبوبة الزجاجية . وما ان زاد ضغطه عليها حتى برز له قزم ثالث لم يلبث في الحال أن أخرج له لسانه . ثم راح يرقص هنا وهناك ضاحكا في استهزاء وقد أمسك بكلتا يديه كرشه المنتفخ المائل الى البياض وكان يحاكي بطن الذبابة التي تحمل البيض . وقد أخذ عدد كبير من هؤلاء الاقزام يطارد بعضهم البعض بين زجاجات العقاقير وهم يلوحون بأسلحتهم التي تبين أنها شوكات وملاعق كان يستخدمها لوقا . حقا ان هذه المخلوقات لم تكن تنفره بل كادت أن ترفه عنه بالفعل - غير أنها بدت قدرة في نظره . وخيل له بعد ما رآها تخرج من القناني وتمسك بالملاعق والشوكات أنها ستلوث العقاقير والطعام جميعا . فأبعدهما ضاحكا باكيا وقد بدت عليه دلائل النفور . واستراح الى حركات الاستحسان التي كان يأتيها من الحائط راهب قديس هذه الصورة بطن أبيض منتفخ كان مشدودا كالطبله لامرأة عارية وقد ركبت في كلا جانبيه اذنان حمراوان كبيرتان واكتسى الركب في أسفله بلحية سوداء صغيرة مثلثة . ولكنه لم يلتفت اليه بل تعلق عيناه فقط بوجه الراهب الذي لشده ما كان عطوفا مطمئنا . واذا بابتسامة ترتسم فجأة على وجهه ذو لحية . حقا لقد برز له من الحائط المواجه في تناقض مع الرجل المسن الذي فغرفاه وأخرج لسانه بحركة غير متوقعة . فاذا به لسان المربية وكان أسود خشنا وفي طرفه قرنان رفيعان يرتعشان كقرني القوقعة . وأخذت هذه القوقعة في أول الأمر تلوح في الهواء قليلا هنا وهناك مادة قرنيها وقد برزت من فيه بطول خارج عن المألوف . ثم مالبت أن انطوت

على نفسها الى الخلف وبدأت تتحسس فى رفق وجه الراهب ممتدة الى أعلى حتى بلغت أنفه وجبهته . وكانت قوقعة ضخمة يحق لم تفتأ تخرج من فمه وتتحسس جبينه الوقور الذى أحاط به الشيب ثم تمتد الى ما بين عينيه اللتين مازالتا تحمقان فى لوقا بهدوء وعطف . وفى نفس الوقت كان بطن المرأة على الحائط الآخر قد بقر عند السرة وظهرت ركبة من فتحة الجرح العميق وكأن شخصا ما محتبسا فى جوف البطن كان يناضل عبثا للخروج منه . ثم اختفت الركبة وبرزت من الجرح فى حرص وحذر ساق كاملة عارية امتدت قدمها الى أسفل تجاه الأرض . .

لم يفتأ يتوسل الى والديه أن ينقذاه من تلك الاشباح التى لا طاقة له على احتمالها . ولكن والديه كانا بعيدين عنه . ثم بلغت سمعه أصوات تهسهس فى عنف وكأنها أصوات مخبولة لحشد كبير من ملقنى المسارح وهم يهمسون فى أذنه على عجل بالفاظ لا معنى لها . أو يبلغ سمعه دوى أجراس عال مفاجئ منقطع فتصطدم ذبذباته الجوفاء فى الهواء المرتعش كما لم يفتأ يسمع فى ركن قصى من الغرفة صغيرا حادا جافا كصوت البخار المضغوط الذى يتسرب من منفذ ماء . وأخذ لوقا يستصرخ أهل الدار أن يغلقوا صمام الغاز ليقفوا تسربه والا اختنقوا جميعا .

ولكنه حتى وهو يرقد عاجزا تنتابه أحلام الهذيان لم يفتأ يحس طيلة الوقت انه كان يتقدم بعض الشيء خلال تلك الهواجس كما يتقدم المسافر نحو فتحة لم يعيه العثور عليها بين جذوع الشجر وظلال الغابة . وذات يوم رأى امرأة لم يعرفها ولكن كان من الواضح أنها ليست من تلك الاشباح الخيالية التى كانت تتراءى له فى هذيانه بل شخصا حيا من لحم ودم . كانت جالسة الى جواره تسند جبهته باحدى يديها وتناولته الطعام بالآخرى . بدا له رأسها معصوبا بعمامة بيضاء ومن تحتها ظهر وجهها نحىلا اسمر اللون ولكنه محتفظ بشبابه كوجه امرأة نصف اتخذ زينته فى دقة شديدة . وقد استوى منتصبا

فى خيلاء الطير فوق عنق طويل ممتلىء . وعندما تلعثم قائلا لها بعض كلمات الشكر المختلطة بدا بصيص من العطف فى عينيهما المزججتين فى عناية وقد احتوتها الغضون والمساحيق بينما انفرج فمها فى ابتسامة حانية متألقة كاشفا عن أسنان ذات بياض مريب وقد صيغت من الذهب اثنتان منها . وفيما يعد علم انها الممرضة التى استخدمها أبواه لتسهر على راحته ليل نهار عندما انتابهما الخوف لهذيانه . أما غطاء الرأس الذى حسبه عمامة فى أول الامر فانه لم يكن سوى لباس الرأس الخاص بالمرضات . ومن خلال النافذة كان يتدفق ضوء ابيض أدرك انه بلا ريب ضوء الظهرية . وثمة حاجز بجانب فراشه يوجد عادة فى غرفة الجلوس بدا له أنه يحجب عن ناظره فراشا آخر . وأتى حركة ما أراد بها أن تفهم أن الضوء يجهد عينيه . فنهضت المرأة فى الحال واتجهت صوب النافذة . وكانت تتزيا من أعلى الى أسفل بالملابس البيضاء . كما رأى لوقا أن رأسها الصغير المحتفظ بشبابه كراس طائر شرقى قد استوى على جسد ضخم كشفت بوضوح عن معالمه الغليظة نظافة رداؤها المفرطة . وأنزلت الستار فسادت الغرفة ظلمة خفيفة مستحبة ثم عادت لتجلس بالقرب من الفراش مادة يدها مرة أخرى لتسند جبهته بينما قدمت اليه المعلقة بيدها الأخرى . وكانت يداها طويلتين سمراوين يابستين طليت أظافرهما - كما لاحظ لوقا أنها تضع حول خنصر احدى يديها خاتما صغيرا به حجر أحمر .

وبينما كان ضباب الهديان ينقشع عنه رويدا رويدا رغم ما أصابه من هزال شديد على أثر هبوط درجة الحرارة استرعى انتباهه شىء غريب لم يعهده قط من قبل . فقد بدت له الممرضة رغم كهولتها وزوال حسننها كما بدت له الغرفة التى كان يكرهها فى وقت من الاوقات وكذلك بدا له كل شىء فى الواقع فى ضوء جديد - هادئا نظيفا مألوفا محببا بل ومشهيا ان جاز لنا هذا التعبير . ولاحظ فى دهشة أنه لم يكن ينظر الى الاشياء بقدر ما كان يلتهمها فى نهم بعينيه تماما كما ينقض الحيوان الجائع على قليل من الطعام بعد صيام طال عهده . فعلا

كانت هناك بجانبه تلك المنضدة الصغيرة التي تغطيها القوارير والقناني . وقد خيل له أثناء هذيانه أن الاقزام الصغار القدرين كان يطارد بعضهم البعض فيما بينها . فاذا بها الآن قنينات بسيطة أمينة صنعت من زجاج مختلف سواء أكان ملوثا أو صافيا وبها سدادات من الفلين أو المعدن اللولبي كما زينت ببطاقات بدت عليها التعليمات وقد كتبت بخطوط الصيادلة العجلة المتدفقة حانية مطمئنة . أحس أن تلك الزجاجات بتنسيقها الجميل وما حوته من سوائل ومساحيق وما كتب على كل منها من ارشادات تبين طريقة استخدام تلك السوائل والمساحيق - كانت جميعها تتمنى له الشفاء . وبدا أنه كان يرد لها تمنياتها الطيبة بعطف مماثل . كما أحس بنفس الرضا والعطف عندما نقل بصره من المنضدة الصغيرة الى الممرضة التي أمكنه ان يرى جانب وجهها خلف الزجاجات . كانت في منتصف العمر وقد استبانن لعينيه غضون وجهها خلف الطلاء الذي احمرت به وجنتاها واسودت عيناها ولكنه مع ذلك لم يسعه الا أن يحب تلك الغضون وأن يشتهيها كدقائق غنية بالمعاني تماما كما يشتهي المرء فاكهة متواضعة المظهر اشتهرت بما تحتويه من عصير ، وكاد أن يمد يده منساقا ليربت بها على هاتين الوجنتين وتلكما العينين . كما كانت الخواطر التي أوحى بها اليه وجهها وأملاها عليه احساسه الجديد بالعطف محبة نفاذة . فقد خطر له أنها كانت بلا ريب على جانب كبير من الجمال في شبابها وأنها لشد ما كانت تعاني الآن من زوال جمالها . كما خطر له انها كانت في الماضي بالحكم على مظهرها تتمتع بلا ريب بالثراء والحرية وأنها ما اشتغلت الآن بالتمريض الا لكسب القوت . ولكنه خيل له ان احساسه نحوها لا يصدر عن شهوة - كذلك الاحساس المتمزج بالنفور الذي راوده في وقت ما تجاه المربية . وفي الواقع فان الاحساس الذي خالجه الآن قبل المرأة كان هو نفس الاحساس الذي سبق أن خالجه نحو القناني . وما ان أدار عينيه بعيدا عنها ليسرح الطرف في ارجاء الغرفة حتى وجد نفسه وقد عاوده نفس الشعور تجاه شتى قطع الاثاث

التي لم تعد مخيفة أو سخيفة على صورة خيالية بل كانت أليفة هادئة وهي تقف ساكنة من حوله كالاصدقاء المحبين القدامى . ثم اتجه ببصره نحو حمالة الملابس التي تراءت له اثناء هذيانه وقد استحالت الى قوقعة تتحرك على الجدران صاعدة هابطة فاذا بها الآن لا تعدو أن تكون حمالة عادية ذات مشاجب ثلاثة . وسره أن يراها وقد علق عليها قميص المريضة وازارها كما سره انها كانت ثيابا بسيطة متواضعة كتياب الفقراء من الناس . وفي الواقع فقد بدا كل شيء لعينيه الجديدتين - ذا معنى وهو معنى بسيط متواضع حقا ولكنه ايجابي . وفضلا عن تلك الاريحية التي أضفت على الحقيقة كلها احساسا بالصدقة والزمالة فقد اضيف شعور بالنظام المستتب الذي كان رغم بساطته ضروريا . فلم يعد شيء يبدو الآن في ظله سخيفا أو غير ذي جدوى كما كان يحدث من قبل . واذا بالقناني لاتعدو أن تكون قناني . واذا بحمالة الملابس لاتعدو أن تكون حمالة للملابس . ولم يعد الان ثمة خطر من رؤية رعوس الاقزام وهي تبرز من فوهات القناني أو من رؤية حمالة الملابس وهي تتسلق الحائط .

ولكن دهشته بلغت أشدها عندما أخذت المريضة تغسل له وجهه بعد أن فرغت من اطعامه . فقد حملت الصينية بما عليها من أطباق وملاعق ووضعتها على المنضدة بالقرب من النافذة . ثم بسطت على الفراش منشفة للحمام وغادرت الغرفة، وما هي الا لحظة حتى عادت حاملة اناء كبيرا من الالمنيوم مليئا بالماء الدافئ وقطعة من الصابون ومشط . ووضعت الاناء على الفراش ثم جلست بجانبه حيث غمست الصابون في الماء . وما أن وضعت الصابون على وجهه بلمسة خفيفة من يدها ثم ازالته مرة أخرى في رفق شديد بقطعة صغيرة من الاسفنج ملئت بالماء الدافئ اللذيذ حتى خيل له بالفعل أنه يشعر بنوع من الجمال والرقرة في وجنتيه . ولكنه لشدهما أدهشه احساسه الذي أوحى به اليه منظر وجهه الابيض النحيل عندما رآه في المرأة التي كان يمسك بها كما طلبت اليه المريضة وهي تفرق له شعره . فقد بدا وجهه وقد محصه المرض كأنما قد ظهر

مطهرا من الحمى والهديان كما ينجلي المنظر الطبيعي في عاصفة هوجاء من وسط الضباب بعد أن تناولته طويلا عوامل التشويه والتدمير . وراوده احساس بالحب نحو هذا الوجه المراهق الذى كان يبادلہ النظرات بعينين جالمتين . حقا انه كان نفس الحب الذى أحس به نحو الممرضة ونحو الاشياء الاخرى جميعا ولكنه ما ان تذكر الكراهية التى كان فى وقت ما يحس بها هو نفسه حتى وجد أن هذا الحب هو أهم مظاهر ذلك التغير الجديد الذى طرأ عليه .

وفرغت الممرضة من تمشيط شعره - على صورة لم يألفها قط من قبل - اذ كان شعره مفروقا على أحد جانبي رأسه : ولكن لوقا لم يشعر قط بالرغبة فى الاحتجاج . بل كان ذلك أيضا أمرا سارا وجديدا عليه حتى كاد يحس بالامتنان نحو خطتها ثم غادرت الغرفة حاملة الاناء بعد ان أبعدت المنشفة عن الفراش . وما هى الا لحظة حتى عادت لتجلس حيث بدا له أنه مكانها المعتاد وكان ذلك خلف المنضدة الصغيرة بجانب الفراش وبين يديها كتاب ما . وبدت الغرفة بأسرها وكأنها تتركز حول حركتها الهادئة المألوفة كما لو كان ذلك عن طريق السحر حتى صارت هى أيضا هادئة مألوفة . ورقد لوقا ساكنا بعض الوقت ثم قال - « أحب أن أستوى جالسا فى الفراش تسندنى من خلف ظهري وسادة أو اثنتان . »

فأجابته قائلة - « حسنا . ولكن حذار أن تصاب بالبرد » ثم نهضت وغادرت الغرفة وعادت حاملة وسادتين . وانحنت فوق لوقا واضعة ذراعها حول خصره لتعيّنه على النهوض ثم دسّت الوسادتين خلف ظهره . وكان من أثر ذلك الجهد أن أحس بالدم يهرب من وجهه وبالنور يفارق عينيه وكأنه على وشك الاغماء . كما عاونته على ارتداء سترة سميقة ثم ذهبت لتعاود جلستها . وما لبث لوقا أن سألها قائلا - « كنت مريضا للغاية . أليس كذلك ؟ »

فوضعت كتابها على ركبتيها ثم نظرت اليه قائلة - « نعم للغاية . »

فقال لوقا في صدق - « كنت أبغى الموت »

فنهضت المريضة واقفة ومرت بيدها على شعره وهي تحملق فيه في حنان وعطف . ثم قالت : « ولكنك الآن ستشفى . »

فتطلع اليها لوقا ببصره ولم ينبس بشيء . ثم انتابه انفعال مفاجيء فانغورقت عيناه بالدموع . وأردفت المريضة قائلة : « ستشفى اذا كنت مطيعا وفعلت كل ما ينبغى عليك » فأمسك لوقا بيدها دون أن ينبس بكلمة واحدة وأخذ يقبلها في رفق وكأنه يفكر . وفي أثناء ذلك تفجرت الدموع من عينيه وقد فثحتا على سعتهما .

- ١٤ -

وذات مساء قرب نهاية فترة النقاهة كان لوقا قد أخذ يغفو ورأسه مستند على الوسادة خلف ظهره بعد أن تعب من القراءة عندما ظهرت المريضة في مدخل الغرفة وعليها سيماء المهابة كمن جاء ليعلن نبأ سارا قائلة - « والآن يجب أن تستعد . . فالما يجري ولن تلبث أن تأخذ أول حمام لك . »

فسألها لوقا قائلا - « حمام ؟ . . ألا يصيبني بدوار ؟ »

فأجابته قائلة - « لاتقلق . فساكون هناك لمعاونتك . »

وبدأت استعداداتها في الحال وهي تغدو وتروح في انحاء الغرفة وقد تميزت حركاتها بالدقة والاهتمام - مما دل على تمرسها في العمل كممرضة ولشدها ما كان ذلك يتناقض مع مظهرها كسيدة ولى شبابها . ومع هذا فقد بدت لعيني لوقا وكأنها فرحة بتلك الخطوة الجديدة في طريق الشفاء والعافية . وأحس نحوها بالامتنان لانه كما كان يعلم لا يعدو أن يكون في نظرها قبل كل شيء مريضا من بين كثيرين وليس هناك من سبب يدعوها لان تستعد لشرفائه ، بل الاخرى أن يكون ذلك الى حد ما سببا في أسفها اذ ما ان ينتهى مرضه حتى ينقطع أجرها . غادرت الغرفة ثم ما لبثت

- ١٩٧ -

أن عادت بعد فترة وجيزة حاملة منشفة كبيرة للحمام نشرتها فوق المشع الحرارى لتسخينها . ثم اتجهت الى خزانة الملابس وأخرجت منها عباءة منزلية من وبر الجمـل كانت أمه قد ابتاعتها اخيرا ليرتديها عند مغادرته فراش المرض . ووضعت العباءة على المتكأ الكائن عند أسفل الفراش كما وضعت على الارض خفا جديدا أيضا . قالت وهي تنحنى لتعدل من وضع الخف - « حمام دافىء لذيذ . وسوف ترى كم تحس بعده بالانتعاش . » نطقت بهذه الكلمات فى لهجة مغرية ولكنها كادت تبدو وكأنها تحدث نفسها وقد راودها نوع من الشرود الذى أضفى على تلك الكلمات وقعا طبيعيا واحساسا بالحب والعطف كما لو كانت صادرة حقا من قلبها لا ارضاء للوقا فحسب . ثم عادت فغادرت الغرفة دون أن تغلق الباب . وكانت غرفة الحمام على الجانب الآخر من الدهليز غير بعيد من غرفته فأمكنه أن يسمع بوضوح صوت الماء المندفـع فى مرح . وتلكأت المريضة بعض الوقت ولعلها كانت تنتظر أن يمتلئ الحوض بالماء . ثم اذابها تندفع فجأة وهى تلهث الى داخل الغرفة حيث تناولت العباءة وأمسكت بها مفتوحة قائلة : « هيا اسرع . . فقد أعد الحمام . . انهض . »

كان يمكن من قبل أن يعروه الخجل من الظهور أمام المريضة مرتديا بيجامته ولكن اللعبة كانت قد تغيرت فكل ما كان يمكن ان ينفره فى الماضى صار الان مقبولا لديه دون أن يخلو ذلك من بعض الرضا . جذبت المريضة أغطية الفراش بعيدا واستوى لوقا جالسا . فأحس فى الحال بالدوار يلم برأسه وبالدم يهرب من وجهه . وكانت المريضة تقف أمامه ممسكة بالعباءة وهى مفتوحة ولكنه لم يمكنه أن يفكر فى الوقوف . بل مكث هناك فى حزن جالسا فى الفراش وقد تدلت ساقاه واشتد امتقاع وجهه الذى مال جانبا . فأدركت الموقف وألقت بالعباءة على الارض قائلة : « انك تحس بالهزال . . بالطبع . . انتظر لحظة . . فسأعاونك » وأحاطت خصره بذراعها القوية ثم عاونته على الوقوف . وخيل للوقا لحظة أن قدميه لا تستقران على الأرض . فقد

تمثل هزاله فى صورة هوة اتخذت شكل ساقيه فحسب دون مادتهما أو قوتهمما . ثم سمع الممرضة وهى تقول له « والان فلترتد العباءة .. هيا . » فاستدار فى اذعان وسمح لها بأن تدخل احدى ذراعيه أولا ثم الذراع الأخرى فى كمي العباءة الواسعين . ثم وقف ساكنا بينما أسرعته هى بضم العباءة حول جسده . وقالت وهى ممسكه به من حول خصره - « والآن سر ولا تخف .. فأنا هنا » .

وخطا لوقا أولى خطواته متكئا بثقله على الممرضة أثناء سيره وهى تسنده من حول خصره . وقد ارتسم على وجهها تعبير ينبىء بالعناية والاحلاص . فأحس لوقا أن قدميه كانتا فى كل خطوة تستردان ثقتهما وتنقلان الى ساقيه والى جسده بأجمعه احساسا سارا جديدا بالقوة والامان ، وكان القوة التى يحتاج اليها كان يستمدتها من رؤية ذلك التعبير مرتسما على وجهها ومن ملمس ذراعها على ظهره . فكما خيل له من قبل عندما أفاق من أحلام الهذيان المزعجة أن شهية ايجابية قد راودته تجاه أثاث الغرفة وهو ينظر اليه من حوله . كذلك أحس الآن انه يتضور جوعا الى الارض التى كان يسير عليها وانها كانت تمده بالغذاء كلما خطا فوقها . قال وقد عاودته حيويته - « لعللى أقوى مما كنت أتصور . » فأومأت الممرضة برأسها موافقة وهى تواصل معاونته على السير . وغادرا الغرفة وهما متخاصران فى قوة . وبدا المنزل مهجورا كما تكهن لوقا عندما رأى الظلام والسكون يسودان الدهليز . ودخلا غرفة الحمام حيث أجلسته الممرضة على مقعد خفيض ثم أغلقت الباب . وكان الجو فى غرفة الحمام ساخنا كالفـرن .. وقد امتلأ الحوض بماء مائل الى الزرقة بدا وكأنه يغلى . كما أغلقت الممرضة الصنابير ووضعت فى الصفحة قطعة جديدة من الصابون . وفى شىء من الارتباك خلع لوقا عبايته التى تناولتها منه وعلقتها على مشجب بالقرب من الباب . ولما لم يعد يستر جسده سوى بيجامته فقد فكر لوقا لحظة فى أن يطلب اليها مغادرة الغرفة . ولكنها بدت وكأنها لا تعير وزنا لارتبائه أو

حتى تلاحظه فى الحقيقة • وقرر لوقا أن يفعل بالضبط كل ما تطلبه إليه • قالت - « والآن فلتخلع بيجامتك ولتدخل الحوض •• كى أغسل لك جسدك بالصابون • »

فنهض لوقا واقفا فى اذعان وخلع سترة بيجامته • وانحنت المريضة وحلت له رباط سراويله بخفة ثم جذبتها الى أسفل عند قدميه • وعاودت النهوض وقد احمر وجهها قليلا • ولكن لوقا حسب أن تلك الحمرة انما كانت من تأثير ما بذلته من جهد فى الانحناء • وهكذا وقف لوقا هناك مترددا وقد تجرد تماما من ملابسه ولكنه أحس بالمريضة وهى تضع ذراعها حول خصره مرة أخرى وتقوده فى رفق نحو الحوض حيث غاص ببطء فى الماء الملتهب فوضع فيه أولا احدى قدميه ثم اتبعها بالآخرى واخيرا رقد فى الحوض شيئا فشيئا • وسألته المريضة قائلة وقد جلست على مقعد صغير خفيض وهى تنظر إليه فى ثبات - « كيف حالك ؟ » فأجابها لوقا قائلا - « أحس بهزال شديد » وقد صدق فيما قال ، فقد عاوده وهو راقد فى الماء الساخن احساس لا يمكن وصفه بالفراغ خلف عنقه مصحوبا بغثيان طفيف • فقالت المريضة - « يجب ان تنهض واقفا •• وسأدلك جيدا بالصابون •• ويمكنك بعد ذلك أن تغتسل ثم تخرج من الماء فى الحال • فلشد ما ينتابك الهزال اذا ما أطلت البقاء فيه » فنظر اليها لوقا ثم نظر الى نفسه فى الحوض • فقد كان منظر جسده المبهم وهو يموج برفق فى الماء مصطبغا بضوء خافت مائل الى الزرقة ييبث فى نفسه احساسا بالحب كما سبق أن حدث عندما رأى وجهه لأول مرة فى المرأة • وكان مرأى ركبته حيث بدت شعرات عانته البنية وقد علتها فقاعات لامعة صغيرة تتمايل هنا وهناك حول عضوه التناسلى كما تتمايل أعشاب البحر حول زهرة الريح فى أعماق بركة مملوءة بماء البحر الصافى - كان مرآه لا يبدو بذيئا لعينيه بحال من الاحوال بل منسجما للغاية مع بقية جسده الابيض العفيف النحيل • وسألته المريضة قائلة .

« هل نهضت واقفا ؟ » فجفل • وما ان رفع عينيه نحوها حتى

أدرك انها هي ايضا كانت من فوق مقعدها الخفيض تحذو
حذوه متأمله جسده وهو راقد فى قاع الحوض . فقال وهو
ينهض واقفا على قدميه - « حسنا . »

كان الماء يرتفع حتى منتصف ساقيه . وثمة مرآة كانت
معلقة أمامه على الحائط قد انعكست عليها صورته وهو عار
تماما وصورة المريضة وهي منحنية نحوه تدلك جسده
بالصابون وقد احمر وجهها . فدلكت ظهره أولا ثم صدره
وأخيرا بطنه . وعندئذ ادرك لوقا انه بينما كان عقله لايزال
يعمل فى بطنه وتراخ فان حساسيته التى ربما أدهفها المرض
جعلته يلاحظ اشياء كثيرة كانت تفوته ملاحظتها فى وقت
آخر . فقد تميزت مثلا خفة حركة المريضة بغلو فى الحماس
والمهارة المهنية مما اثاره على صورة ما رغم أن عقله الذى نال
منه الضعف والاعياء كان عاجزا تماما عن اکتناه هذه الظاهرة
ثم نصبت المريضة قامتها وقد ابيضت يداها بالصابون قائلة
« والآن فلتجلس مرة أخرى . » فترك لوقا نفسه
ينزلق فى اذعان مرة أخرى فى الماء .

وغادرت الغرفة ثم مالبت ان عادت ممسكة بالمنشفة وقد
بسطت ذراعيها على سعتها وهي تصيح قائلة : « أسرع .
أسرع وهي مازالت ساخنة » فنهض لوقا واقفا وبعد أن
تردد برهة وقدمه على حافة الحوض ارتقاه رأسا الى
الخارج . وفى الحال انقضت عليه المريضة وهي تلفه بالمنشفة
الملتهبه فى قوة وحب على صورة ما . وسأله قائلة :
« اليست لذيدة دافئة ؟ » ولم يسع لوقا وهو ملتحف بالمنشفة
من أعلى الى أسفل الا أن يحس بوهج العافية لأول مرة منذ
زمن طويل للغاية . قالت : « والان عليك ان تجفف نفسك
بسرعة » فجلس لوقا على المقعد الخفيض . وجثت المريضة
على ركبتيها ثم بدأت تجفف ساقيه فى نشاط . ولشد ما بذلت
من جهد فى ذلك حتى أن وجهها سرعان ما صار فى لون
القرمز . وقد تميز وضعها الجاثى بشيء من التعبد العاطفى
الغامض الذى حار له لوقا . وكانت يداها عندما تتحركان

الى أعلى فوق ساقيه تلمسان حقوه في خفة . وفجأة تحقق لوقا وهو يرتجف رجفة غريزية مما كان حتى تلك اللحظة يرتاب فيه فحسب وكاد ذلك أن يكون على الرغم منه — وهو أن الصدفة شاءت في ذلك المساء أن يخلو كلاهما الى الآخر في الشقة وأن يتكرر من جديد ما سبق أن حدث بينه وبين المربية قبل ذلك بشهور ولكن بفارق واحد وهو أن روحه بأسرها كانت قد تغيرت وانه الآن سوف يقبل ما كان يعتقد وقتذاك أن من واجبه أن يأباه .

وما ان لامسته بخفة لأول مرة بطريقة ربما كانت لا ارادية حتى بدت الممرضة وكأنها قد فقدت كل نشاطها . وأحس لوقا بيديها تترددان وكأنهما بدلا من تدليكه تتنازعهما الرغبة في دغدغته والاحجام عنها في نفس الوقت .

كانت يداها تتحركان فوق جسده كله ولكنهما بدتا حريصتين كل الحرص على تجنب حقوه . ومع هذا فقد كانتا من وقت لآخر تنزلقان نحوه رأسا من أبعد نقطة في جسده في هجمة سريعة مفاجئة تشوبها الخشونة والارتباك بسبب العجلة وتبكيك الضمير . وقد تميزت هذه الهجمات بطابع خاص . فكانت أشبه بنقر الطائر أو عضه الحيوان تجمع في نفس الوقت بين الخلسة والاشتياق . ومن وجوه اخرى أيضا كانت الممرضة — وقد احمر وجهها وانحنى رأسها على صورة أخفت عينيها — قد كشفت في وضوح تام عن طبيعة احساسها الذي جاشت به نفسها . ونظر اليها لوقا فخيل له أن وجهها كان يشتد احمرارا وهي تدلك جسده . كلما ضاق قطر الدائرة التي تدور فيها يدها حول بطنه . كان كل هذا الجسد الضخم المائل الى الامام من فوق الركبتين يبدو وكأنه متوتر بالرغبة التي تجد تشجيعا واحباطا في نفس الوقت . الرغبة في تجاوز حدود التدليك والانتقال الى ملامسة ذات طبيعة مختلفة أكثر تحرا وانطلاقا . ولكنه على النقيض مما حدث في وقت ما مع المربية لم يعد يحس الان بالنفور أو بالرغبة في التراجع . بل أحس وكأنه لا يعدو أن يكون أداة بين يديها مسلوب

الإرادة تماما فضلا عن رغبته في الانقياد لها والأذعان لمشيئتها . وكادت هذه الخواطر أن تنسيه المرأة وشهوتها . وأخيرا وبعد ان لمستة لمسة أخرى في مزيد من الايجابية والرضا نهضت واقفة على قدميها وهي تقول — « والآن يمكنك أن ترتدي ملابسك »

ولاحظ لدهشته أنه لا يحس بالخجل . وذلك أيضا شيء لم يعهده في نفسه من قبل . كما بدا له ذلك بادرة أخرى على ثقته الجديدة بنفسه وبالعالم . وقد كان من المستحيل عليه في وقت ما أن يقبل في بساطة مثل هذه الاثارة الجسدية دون مانفور أو استكبار . فانه كان يستنكرها في جميع الاحوال كنوع من التمرد ويشعر نحوها أول ما يشعر بالرغبة في مقاومتها وتحطيمها . ولكنه خيل له الآن أن هذه المظاهر الغريزية جميعا — سواء أكانت من جانبه أو من جانب المريضة وسواء أكانت مظاهر رغبته أو رغبتها بل حتى عندما تحدث على صورة غير متوقعة لا يمكنه بحال من الاحوال التحكم فيها أو السيطرة عليها — هذه المظاهر جميعا ينبغي أن تلقى منه ترحيبا شأنها في ذلك شأن الكثير من مظاهر الحقيقة المفهومة كلية والمحبة الى النفس تماما . وقف هناك عاريا أمام تلك المرأة وقد بدت على جسده دلائل الاثارة . ولكنه على الرغم من ذلك لم يشعر بالرغبة في أن يلوذ بمكان آخر أو أن يكون شيئا آخر غير ما كان عليه . ولما كانت الدهشة قد استولت عليه تماما فقد جفل في عنف عندما سمع صوت المريضة وهي تقول له مرة أخرى : « هلا ارتديت ملابسك ؟ »

وسمح لها في صمت بأن تلبسه بيجامته وأن تلفه مرة أخرى في عباة . ثم سألته قائلة وهي تفتح الباب — « كيف حالك ؟ »

— « على مايرام »

غادرا غرفة الحمام وسارا فوق أرضية الدهليز المكسوة بالسجاد . وظلت المريضة تسنده وقد عاودت الآن موقفها

المألوف منه الذى كان رغم طابعه المهني مشوباً بالجزع والقلق . ومع ذلك فقد انتاب لوقاً مرة أخرى وهو فى الدهليز احساس بالهزال الشديد فغشى بصره وانتابته برودة شديدة فى جبهته وصدغيه وأسلم نفسه تماماً لذراع المرضة وهو يتمتم قائلاً — « انى أحس بالمرض » وأدرك أنه كان بلا ريب يفيق من اغمائه عندما وجد نفسه جالساً على فراشه بينما تضع له المرضة كمادة على جبهته قائلة : « لاشىء . . انه الحمام الذى اعياك » فلم يحمر لوقاً جواباً . وخلعت عنه المرضة عباة وازاحت اغطية الفراش الى الخلف ثم رفعت ساقيه وعاونته على الدخول فى الفراش . كما لاحظ برودة الماء النظيفة وعددها متعة يدين بها لها . وسمعها تقول له — « والآن عليك أن تحاول النوم » ثم اغلقت الباب وتركته وحيداً .

- ١٥ -

لم تشر المرضة ايما اشارة خلال الايام التالية الى ما حدث فى غرفة الحمام . ولم يفكر لوقاً من جانبه فى أن يذكرها به لا لانه ربما لم تكن لديه الرغبة فى متابعة تلك المحاولات الاولى للتقرب منها بقدر اثاره الخضوع فى سلبية لارادتها مهما كانت على ممارسة ارادته الخاصة . كان يكفيه على أية حال أن يدرك معنى تلك التجربة ولم يكن يهيمه بعد ذلك ان كانت تلك التجربة نفسها قد توقفت وهى لم تنزل بعد فى بدايتها . ولكنه أدرك أنها كانت طيلة الوقت تفكر فيه وفيما حدث فى غرفة الحمام وكان ينتظر ما يتمخض عنه تفكيرها فى شىء من الفضول . ولو أنه ظل يحاول العثور فى ذهنه على تعريف دقيق لاحساسه للاحظ أنه لم يفتشاً يكن للمرضة ذلك الشعور المحب المدرك المنزه عن الغرض الذى صارت تتميز به الآن نظرتة الى الاشخاص والاشياء جميعاً بغض النظر عن تلك الجاذبية الجنسية القوية التى كان يمكن فى الواقع أن يشعر بها تجاه أية امرأة أخرى فى

ظروف مماثلة . وفي حالة المريضة كانت تلك النظرة نفسها تتمثل في فضوله المخلص المهذب للتعرف على شخصيتها وماضيها . فانها لم تعد الآن تمرضه بقدر ما كانت تؤنس وحدته . وعندما زادت الثقة صارت تروى له قصصا كثيرة عن حياتها . كانت كلها بالفعل أو معظمها تخص علاقاتها الغرامية بعدد كبير من الرجال في مختلف الاعمار والظروف . وكانت في شبابها كما تخيل لوقا تعيش في سعة . ثم مات زوجها فاضطرت لكسب القوت أن تشتغل بأعمال مختلفة كان آخرها التمريض . وكانت في أول الامر كتوما مترددة في أحاديثها ولكنها عندما لاحظت أن لوقا لا يكشف عن دهشته أخذت تزداد صراحة حتى صارت في النهاية تخلع العذار تماما على طريقتها الخاصة التي تثير الرثاء الى حد ما . وكانت حياتها عادية للغاية ملؤها الاخطاء والغرور . كما كانت هي بدورها امرأة عادية للغاية تعتنق جميع الآراء المبتسرة التي يتبناها كل من أخنى عليه الدهر . كاعتقادها مثلا أن عملها غير جدير بها . ولكن هذه الاخطاء ومظاهر الغرور لم تكن تبدو لعيني لوقا مغفورة فحسب بل محببة الى النفس أيضا بفضل نظرتة الجديدة المتسامحة . ولشده ما سره قبل كل شيء توهمها أنها مازالت تتمتع بالشباب والجمال . ذلك الوهم الذي صار في نظره الان سمة قوية من سمات شخصيتها بعد أن كان في وقت ما يبدو له مثيرا للسخرية . وذات يوم بينما كانا يتحدثان عن الجمال الانثوي نهضت واقفة على قدميها واختالت مزهوة بنفسها في ارجاء الغرفة وهي تجذب ثوبها في أحكام فوق أردانها وبطنها قائلة : « انظر الى وقل لي في أمانة كم امرأة ممن يصغرني سنا يمكنها أن تباهى بمثل قوامي » وتألقت عيناها وهي تتخسب أردانها بكلتا يديها وترفع صدرها وتدير رأسها في هذا الاتجاه وذلك . لم يسمع لوقا الا أن يبتسم ولكنه أحس بالرضا عندما أدرك أنها ابتسامة رقيقة حانية .

كان طوال هذا الوقت يسترد قواه حتى صار في أمكانه الآن أن يستحم وحده . ففي المرات القليلة الاولى كانت المريضة لا تفتأ تعاونه دون أن يعودا الى مثل ما حدث في

ذلك المساء الاول من اضطراب واثارة . اذ بدت وكأنها قد
يئست منه حقا ولكن دون أن يخلو ذلك من أسف ودود حزين
من جانبها كما لو كانت بالتضحية برغبتها قد وجدت موضوع
حب جديد ولو انه لم يخل من الحزن . وذات يوم بينما كان
لوقا راقدًا في الفراش متظاهرا بالنوم وقد أغمض عينيه حتى
نصفها اذا به يدرك تلك الحقيقة عندما رآها تحمق فيه طويلا
وقد ارتسم على وجهها تعبير فريد في نوعه لم يمكنه في الحال
أن يعرف كنهه . كانت نظرة تتمثل فيها الحيرة بل والاحتقار
الى حد ما . فبدت وكأنها تبحث في وجهه هو لافى وجدانها
عن أسباب تضحيتها . ولما لم تجدها هناك بدت وكأنها قد
غضبت من نفسها لعدم اجترائها على تنحية شكوكها جانبا
لتنال معه ما تتوق اليه من متعة .

وذات مساء جلست بجانبه على الفراش بعد ما أحضرت
اليه صينية العشاء ثم قالت :

— « اعتقد أن هذا آخر يوم لى معك »

فرفع لوقا عينيه عن صحيفة الطعام في صراحة لم تخل من
بعض الخبث قائلا :

— « يؤسفنى ذلك . . ومتى ترحلين ؟ »

فأجابت قائلة : « غدا مساء » .

ثم أردفت قائلة وهى تنظر اليه مباشرة :

— « كما يؤسفنى ذلك أيضا »

فتطلع اليها لوقا . وكانت جالسة على الفراش في وضع
غير مريح . اذ استدارت نحوه بوجهها ونصفها الاعلى وهى
تضغط على غطاء الفراش باحدى يديها لتسند نفسها . .
ولاحظ على وجنتيها تحت حمرة الزينة حمرة اخرى سلخنة
كتلك التى يورثها الانفعال او الفوران . فقد لمعت عيناها من
خلال زينتها كما حدث يومذاك في غرفة الحمام . على

صورة تثير الشفقة كحجرين كريمين متألمين يحيط بكل منهما
اطار قديم كئيب . وأردفت قائلة — « لشد ما ألفت صحبتك »

فلم ينبس لوقا بكلمة . واستطردت تقول خافضة
صوتها — « كما أحسبني تعلقت بك بعض الشيء . »

وكان لوقا يتوقع كل شيء ماعدا هذا التصريح بالحب .
فانه لم تمر به في حياته سوى تجربة غرامية وحيدة هي
علاقته القصيرة بالمربية . وكان يخيل له أن المريضة ستحذو
حذوها فتكون هي البادئة بفرض رغبتها على سلبيته دون أن
تنبس بكلمة . ولشد ما انتابته الحيرة الباردة المدهوشة لمدة
لحظة عندما فوجيء بهوى ذى طابع عاطفى كان يخاله حتى
ذلك الوقت شهوانيا عاتيا مستبدا . فقال فى صوت خال من
التعبير — « حقا ؟ »

فأجابته المريضة قائلة — « نعم . ولكن هذا لا يهم . »
ثم هزت رأسها وخفضت عينيها بحركة من فمها وكأنها تكبت
شهقة باكية . فقال لوقا فى اخلاص — « أحسبني أنا أيضا
كنت مغرما بك الى حد ما . . ولكن الامر كان يتوقف عليك »

ونظر اليها دون أن يتم عبارته . لقد خيل له انها الحقيقة
ولا شيء سوى الحقيقة . ولكن من أين جاءت تلك الثقة
بالنفس التى لا تخلو من الخبث والتى لا يؤتاها سوى غاز
محنك ؟ وقد سر لتلك الموهبة الجديدة التى تعينه على التأثير
وتكوين علاقات اخرى مع الناس . فرفعت نحوه عينيها
المتألمتين وسألته قائلة — « اذن فلو اننى شئت . . ؟ »
فأوما لوقا برأسه . وعندئذ خيل لها انها ستثب فوقه على
صورة شبيهة الى حد ما بما سبق أن فعلته فى غرفة الحمام
ولكن فى مزيد من العنف والصراحة اللذين لا تشوبهما شائبة
من النفاق . وأخذ يتساءل عما ينبغى عليه أن يفعل . وكان
أبواه ساعتئذ يجلسان الى مائدة الطعام ولن يأتيا اليه قبل
مضى نصف ساعة على الاقل . فهل تكفيهما هذه الفترة على
قصرها ؟ ثم أليس من المحتمل لسبب ما أن تدخل أمه الغرفة
قبل هذا الوقت ؟ ومع ذلك فقد أحس أنه على الرغم من تلك

الشكوك والمخاوف لم يكن يخشى الحب أو عواقبه . ولم يزد على أن أردف قائلا في حكمة :

— « خلتك ترغيبين في ذلك يومئذ ونحن في غرفة الحمام . . فلم يكن بالمنزل أحد سوانا وكان ذلك ميسورا . »

ولكن المرضة على عكس ما كان يتوقع لم ترتب فوقه بل نهضت واقفة وهي ترمقه عن بعد الى حد ما ثم مدت ذراعها وأخذت تمر بيدها في بطء حول وجهه بأكمله . ثم قالت :

— « لشد ما كنت هزيلا يومذاك . . وفضلا عن ذلك فأنت لا تعدو أن تكون صبيا . »

وخطر للوفا أيضا أن تلك حقيقة لا سبيل الى انكارها . فلم يزد على أن خفض عينيه ولم يقل شيئا . وأمست المرضة بذقنه — تماما كما تفعل مع الاطفال عندما تسألهم عما يريدون — ثم قالت — « اذن فان جئت اليك الليلة . . هل تريدني أن أجيء اليك ؟ »

فرفع لوقا عينيه نحوها وأجابها قائلا في بساطة تامة : « لا شك اننى أريدك أن تأتي » فوقفت ساكنة منتصبه القامة وهي تتأمله بعينيها اللامعتين اللتين تفيضان بالشباب وقد اختلفتا كل الاختلاف عن ذينك الجفنين الهرمين الميتين اللذين تلمعان من خلالهما . ثم أعلنت قائلة في صوت تملؤه البشرى في سخاء وأمومة — « حسنا اذن . . فان كنت حقا تريد منى ذلك . . فسأجيء اليك » فأوما لوقا برأسه وكأنه يقول انها خطة حكيمة . وأردفت المرضة قائلة :

— « انى قادمة اليك . . ولكننا يجب أن نحاذر . . فلا ينبغي أن نحدث ضجة ما . » وكانت قد أقلعت أخيرا عن النوم في غرفة لوقا خلف الستار . وخيل للوفا أنها في الواقع لم تكن تنصحه بذلك بقدر ما كانت تنصح نفسها . ثم ختمت حديثها قائلة — « اذن فموعدنا بعد ساعتين . » ونظرت اليه لحظة أخرى وكأنها ترقب تأثير وعدا عليه . ثم حملت الصينية وغادرت الغرفة .

وما أن خلا لوقا الى نفسه حتى تناول رواية من فوق المنضدة الصغيرة المجاورة للفراش وشرع في القراءة . ولكنه مالبث أن أدرك أنه عاجز عن متابعة معانى الالفاظ . وأحس بسعير في وجنتيه كما لو كانت نظرات المرأة المفعمة بالرغبة قد سفعتة بنارها فيما بين هامته وعنقه حيث لمستته . وقد وجد ذلك الاحساس الملتهب لذيذا مثيرا اذ بث في نفسه شعورا بالحيوية الملحة التي لم يعهدها قط في حياته . وأخذ يفكر فيما حدث بغية ابعاد ذهنه عن ذلك الشعور وعمما صاحبه من اضطراب . وتفحص موقفه من تلك المرأة قائلا لنفسه انه ما كان يمكنه أن يكون أصدق أو أخلص مما كان . فقد كاشفته بحبها . ولكنه لم يزد على أن قال في رده عليها انه يسره أن تأتي اليه . وكانت هذه هي الحقيقة بالضبط . فقد خيل له أنه سيجد متعة في مجيئها كما كان لا يفتأ يجد متعة في كل ما يحدث وفي كل ما له وجود وفي كل علاقاته منذ أن أفاق من هذيانه . وسره ألا يختلف شعوره نحو الممرضة أو يزيد قوة عما يوحى به الآخرون من الناس والاشياء كافة . وفي الواقع فانه كان يحس بالجوع نحو تلك المرأة مما جعلها مرغوبة في نظره . ولكنه كان يحس هذا الجوع نفسه نحو ذلك الضوء الهاديء الذي يرسله المصباح المجاور لفراشه ونحو قطع الاثاث الماثلة في الظلام ونحو الليل ونحو السكون الذي خاله مخيما في خارج الدار بل حتى نحو ذلك الصرير الخافت الذي تحدثه الدودة وهي تحفر سردابها في خشب المنضدة . هذه الاشياء فضلا عن أشياء اخرى كثيرة صارت كلها — من جراء ذلك الجوع المشهى — محببة الى نفسه بدرجة واحدة يتألف منها معا عالم جديد في نظره ارتضاه في النهاية .

وبينما كانت تمر بذهنه تلك الخواطر بدأ النعاس يغالبه . ودخل عليه أبواه وهو في تلك الحالة الوسنى كما كانا دائما يفعلان وبعد أن وجها اليه وصاياهما المعهودة واستئلتها التي أجابها في غموض قبلاه وانصرفا . كما بدا له أيضا أن الممرضة كانت منهكة حول فراشه تدس له حواشي البطاطين تحت الحشايا — تلك البطاطين التي لن

تمضى ساعتان حتى تلقى بها بعيدا لترقد بجانبه . ولكن الشك ظل يساوره فيما أن كان ذلك نوعا من الهذيان . فلتشد ما كان النعاس يغالبه . حتى أن أبويه ما كادا يتركانه حتى غاب عن الوعي .

واستغرق بعض الوقت في نوم هادىء عميق بدا أنه تعبير عن ذلك الجوع نفسه الذى كان أثناء يقظته يشحذ شهيته نحو الاشياء والاشخاص جميعا . وتراءى له حلم غريب — ربما أوحى به ذلك الجوع — خيل له فيه أنه شجرة وكان وهو على هذه الصورة اسود اللون عاريا من الورق مشبعاً بالماء خدرا من البرد يقف فوق قمة تل عار يحده الصقيع ماداً ذراعيه اللتين كانتا على شكل فرعين . أما أصابعه المبسوطة فكانت على شكل غصون . ومن حوله امتد منظر طبيعى فسيح يتألف من تلال وغابات وانهار وحقول وقد خطط الثلج هذا المنظر بأسره ونشر الظلمة في ربوعه ضباب الشتاء . وقد انعكست صورة السماء المثقلة بالسحب السوداء الساكنة على صفحة الماء في الحقول المغمورة . وراى فوق كل شىء سكون عميق كذلك السكون الذى يسود عالما سرمديا لا حياة فيه . ولكن الشمس كانت تشرق بعيدا في الافق . وكانت في أول الامر كرة باردة حمراء . ولكنها كلما صعدت في السماء على صورة تدريجية مبددة أمامها السحب زاد صفاؤها واشعاعها وأمكنه أن يحس بحرارتها حتى من خلال لحائه ذى البرودة الثلجية . وتحت أشعة الشمس حدثت حركة واسعة النطاق في جميع أرجاء المنظر الطبيعى وكأن الغابات بكل ما فيها من أشجار قد نفضت عن نفسها دفعة واحدة سكون الشتاء وكأن الانهار قد ارتفعت فيها مياه الفيضان وكأن الحقول قد اضطربت بالحياة وكأن التلال قد لانت وامتألت بالغذاء كئيبى المرأة . وفجأة دوى في الهواء صوت أجش — كان جذلا ملحا محبا كالنداء المنطلق من نفير الصيد — فمزق ذلك السكون البارد . وخيل له أن موجة من الجوع الفرغ المبتهج قد انتشرت الى أعلى من خلال جذعه مبتدئة من جذوره الغائرة فى الارض . ولما ضاق بفيضها غلافه اللحائى فقد انبثقت خلال فروعه على شكل

الوف من البراعم الخضراء المتألقة التي سرعان ما تفتحت بدورها واستحالت أوراقا وفروعا وأسلاكاً . وأحس بنفسه ينمو ويتكاثر ويبرعم الى ما لانهاية في اندفاع خيالي لايقاوم من الوفرة الغزيرة من كل جزء وفي كل اتجاه . وفجأة لم يعد شجرة بل ارتد رجلا واقفا منتصب القامة رافعا ذراعيه نحو الشمس . ثم استيقظ من نومه يخالجه في أطرافه ذلك الاحساس بالبرعمة واندفاع الحياة . وكانت الغرفة غارقة في الظلام فيما عدا دائرة صغيرة من الضوء فوق المنضدة المجاورة للفراش أحاطت بالمصباح الصغير ذي الكمة الحمراء . وقد أشار عقرب الساعة الى الربع بعد منتصف الليل . فلن تلبث المريضة أن تأتي بعد بضع دقائق .

وبينما كان ينظر حوله في أرجاء الغرفة المظلمة مشغول الذهن بالمريضة خيل له أن جوعه هذا في نوبة من الضجر والشراهة أخذ يتجاوز بخطوة واحدة حدود زمانه ومكانه في تلك اللحظة وشرع يندفع الى الامام في المستقبل زمانا ومكانا . وخيل له أنه يرى هناك في الظلام ما بقى له من أيام حياته يصعد الى السطح — الاماكن ووجوه البشر وتحركاته ولقاءاته . وراوده احساس غامر بالحرية العدوانية والاستكشاف الذي لا يحد والرؤية في ومضات من البرق كأن المستقبل وقد اندلعت فيه النار فصار يحترق في لهيب خياله لم تبق منه سوى لحظة واحدة تامة حتى في أدق تفاصيلها . رأى أن تلك هي حياته وأنه لم يبق أمامه الآن سوى أن يتذرع بالصبر ليحيها حتى النهاية . واغرورقت عيناه بالدموع وسرى في بدنه اضطراب لا سبيل الى السيطرة عليه . فبدأ يهتف بكلمات لا معنى لها وهو لا يفتأ يتقلب في فرائشه ممعنا النظر في الظلام وكأنه يتوق الى اضاءته والى رؤية المستقبل وقد مزقت أستاره . وفيما هو في ذروة ذلك الانفعال العميق سمع الباب يفتح .

ودخلت المريضة . وقد بدت لعينيها الحاشية المفضنة لقميص النوم القطنى الطويل من تحت معطف مزين بالفراء خيل له انها ألقتة بسرعة فوق كتفيها . وراها لوقا تأتي اشارة الصمت وقد وضعت اصبعها على شفتيها . والتمعت

عيناها ببريق أقوى من أى وقت مضى فبدت وكأنهما على الرغم من ظلام الغرفة تضيئان وجهها بأجمعه . أغلقت الباب فى حرص وأدارت المفتاح فى القفل ببطء شديد . ثم تناولت إحدى فوط المائدة من درج المنضدة المجاورة للفراش ولفت بها المصباح . فعلت كل ذلك فى اناة وتؤدة وكأنها تؤدي عملا صار لتكراره عاديا مألوفا بينما أخذ لوقا يراقبها وهو مضطجع الى الخلف على الوسائد وقد امتدت ذراعاها أمامه على الفراش دون أن يخالجه اضطراب أو ارتباك . بل كان يراوده فضول أحس أنه برىء ساذج وكأنها لم تكن تهيبء المكان لمشهد غرامى بل تؤدي حركات معينة تخص أحد طقوسها المجهولة . وعندما فرغت من استعداداتها أقبلت نحو الفراش حيث وقفت منتصبه فى جلال وهى تنظر بعينيها المتألفتين فى عينيه مباشرة . ثم رفعت كلتا يديها وتناولت المعطف من فوق كتفيها ثم وضعته على المقعد . وبينما كانت تؤدي هذه الحركة مالت جانبا فكشفت عن معالم جسدها الضخم القبيح — فأردانها لم تكن مستديرة بل كادت أن تكون مربعة تعلوها مسطحات عريضة من اللحم ضاق بها قميص النوم . أما ظهرها فكان عريضا سميكاً وذراعاها مترهلتين . وقفت لحظة ساكنة وكأنها تتيح للوقا أن يتأملها فى أعجاب وتريث . وبحركة قوية ضجرة رفعت ذراعيها وبدأت تخلع قميص النوم من فوق رأسها . فأخذ القماش القطنى يرتفع الى أعلى وأعلى كستار المسرح ولكن فى تردد وارتباك كاشفا باهتزاز عن المنظر فى أسفله . فقد تضخمت ساقاها ولكن فى استقامة كبرجين من اللحم الاسمر الضارب الى الحمرة : ولم يكن ينزوى الى الداخل من بدنها وسط خضم وفرتة المكشوفة للعيان سوى ركبها الذى اكتنفته الظلمة والغموض . وكان بطنها أشبه بوعاء يفيض بالرغبة . أما صدرها الذى انحصر فى ضيق بين تجويفى أبطيها العريضين أسفل ذراعيها المرفوعتين فكان أشبه بمساحة من الارض جبلية مظلمة يحدها من الجانبين طريقان أبيضان مقفران . . . وبجذبة أخيرة كانت على الرغم من بطئها تنطق فى الوقت نفسه بقوة قصيمها العاتية تجردت تماما من ثوبها الذى ألقته به على

الأرض . ووقفت عارية أمام لوقا بمظهرها المألوف ذي الأريحية والشهامة والبشرى . وخيل للوقا أنها تتصرف وكأنها مازالت تتمتع بشبابها وجمالها وكما لو كان هو ينظر إليها تلك النظرة . وقد سر لذلك إذ بدا له هذا الوهم كريما محببا . وعندما لاحظت أن لوقا قد أطل إليها النظر أزاحت إلى الخلف اغطية الفراش وانسلت في جلال مضطجعة إلى جانبه . لم يكن عناقا ذلك الذي مارسه وقتئذ بقدر ما كان غوصا بكامل كيانه في مساحة لا حد لها من اللحم . وخالجه شعور دقيق بأنها كانت تقوده من يده كراهب مستجد خاشع إلى داخل كهف غامض أعد لاداء طقوس دينية معينة . وخيل له أن تلك هي الحياة التي استحضرها في ذهنه من قبل ولم يهمله كثيرا أن تمثل أمامه في زى الخريف . ووجد نفسه وقد ملأه العرفان يقبل ذلك الوجه الاسمر النحيل ذا العينين المغمضتين وقد حاكى صورة العملة في سكونه . . . ولكن أكان ذلك هو وجه المريضة أم وجه الهة ما خرجت من الأرض لتستحوز عليه ؟ ولا شك أن رعشة من الخشوع قد سرت ما بين يديه وجسدها الراقد تحت جسده . وفي الوقت نفسه له يفتأ يخالجه احساسه بالراحة الذي كان لجذته وخفته يعوض عن حماس العناق وشدته .

- ١٦ -

في اليوم التالي رحلت المريضة كما سبق أن أعلنت . وبقى لوقا يراوده شعور لا هو بالاسف ولا هو بالنفور بل أقرب إلى العرفان بجميلها لا لأنها لقتنه أخيرا الحب الجسدى فحسب بل لأنها لقتنه حبا أوسع نطاقا وأكثر شمولاً للأشياء جميعا وقد استبان له أول بصيص من نوره عندما أفاق من هذيانه . وخيل له أنه وجد أخيرا طريقة جديدة كانت شخصية للغاية للنظر إلى الحقيقة - طريقة قوامها العطف والترقب في اناة وصبر فقد لاحظ أن تلك الطريقة في النظر إلى الامور كانت تتيح له انتظاما في التفكير أكثر هدوءا وعمقا وصفاء مما كان عليه من قبل كما صاحبته ذلك الانتظام في التفكير رؤيا لم تعد مباشرة أو عدوانية بل

حذرة مترددة في ارتياب شديد على صورة تفوق الوصف
وخيل له عندئذ انه سوف يرى الاشياء في أول الامر بهاتين
العينين الجديديتين اللتين فتحتا داخل نفسه في تلك الليلة
ثم يراها بعد ذلك بعينيه اللتين بهرهما مطلع النهار عند
مولده . اذ أن الممرضة كانت له أما ثانية أحق وأصدق من
الأولى وذلك بأن ولدته من جديد عندما كان لشدة رغبته في
الموت ميتا بالفعل . ولكنه كان يعلم أنه لولا رغبته الأولى
في الموت التي لشد ما كانت مخلصه صادقة لما أمكنه أن
يولد من جديد .

وفي تلك الاثناء كان الحديث يتردد في المنزل في الحاح
متزايد حول رحيله الى الجبال . فقد حجز له والده غرفة
في مصحة للناقهين ولم يبق سوى تحديد يوم الرحيل . أما
الدروس فقد امتنع ذكرها الآن إلا ايماء الى يوم بعيد حين
يصير لوقا قادرا على مواجهتها دون أن يلحق بنفسه أذى ما .
وبينما كانت تلك الاستعدادات تجري على قدم وساق
كان لوقا وهو جالس في متكأ بالقرب من النافذة ملتحفا
بالبطاطين لا يفتأ في وسن يتأمل السماء التي أخذت تميل
تدرجيا نحو الصفو والدفء مع حلول الربيع . وكان عندئذ
يستمتع بحالته السلبية وذلك منذ أن لاحظ في الاشياء
والناس نظاما كان لايزال مجهولا ولكنه خليق بأن يرفعه
الى أعلى ويحمله بعيدا . ولما كان قانعا بأن يصير جزءا من
ذلك النظام فقد استمد قوة جديدة من قبوله طبيعته الظاهرية
الغامضة .

وأخيرا جاء يوم الرحيل . وكان ذلك في نهاية شهر
مارس . ولكن أمه التي تقرر أن تصحبه الى المصحة جعلته
يتدثر على الرغم من دفء الجو بعديد من السترات السميقة
ومعطف ثقيل . ولاحظ لوقا انه ما ان التحف بذلك المعطف
حتى شلت حركته تماما وهو مضطجع في متكئه في الغرفة
التي بدت له عندئذ غريبة يلمؤها ضوء الرحيل — كما لو
كان حقيبة للملابس أو شيئا آخر لا حياة فيه . واستمرت
حالته السلبية بل الحت في استمرارها حتى في تلك اللحظة

التي كان ينبغي عليه فيها أن يسهم بنصيب فيما يعده له الآخرون من ترتيبات حتى أحواله جامدا في الوقت الذي بدا فيه الجمود ضربا من المحال . وقد أمكنه أن يسمع والديه والخدامات وهم يتحركون في انهماك هنا وهناك أثناء نقلهم المتاع ونزولهم به الى الطريق بينما ظل هو في مكانه ساكنا لا يتحرك وكأنه لا ينوي الرحيل . ولشد ما أحس بالدفء — بل ربما كان دفؤه أشد مما ينبغي ولكنه مع ذلك ربما كان مستحبا — وأخذ يتطلع الى سماء الصباح الشاحبة دون ان يفكر في شيء على الاطلاق . وثمة عيب في الزجاج على شكل دمعة كان اذا ما أغمض احدى عينيه يتسع في السماء حتى يبدو وكأنه ثلثة كبيرة بيضاء . وسمع أمه تدخل الغرفة لاهثة وهي تصيح قائلة — « ماذا تفعل هنا ؟ ان السيارة واقفة بالباب في انتظارنا . » وعندئذ فقط أمكنه أن يبذل جهدا ليتحرك . أما فيما مضى فما كان يمكنه قط أن يقاوم انتقال العدوى اليه من ضجة الرحيل رغم تفاهتها حتى ولو كان ذلك باظهار فتور عدائي فحسب . ولكنه أحس عندئذ أنه لم يكن يبالي حقا سواء سافر أو لم يسافر وصل أو لم يصل ، اذا كانت هناك قطارات أخرى أو ان كان الامر قد بلغ هذا الحد ففي امكانهما البقاء فحسب . وفيما بعد بينما كانت أمه تجرى في عصبية من مكتب الى آخر للحصول على البطاقات وختمها استغرق هو من جديد في أعماق ذلك الجمود المستحب حتى كاد ينسى وهو جالس على احدى الحقائق أسفل قبة المحطة السوداء الصاخبة وسط زحام الناس وثرثرتهم أنه على وشك القيام برحلة . كان اشتراكه في الحياة الخارجية أشبه بالخيط الواهى الذى لا يفتأ ينقطع وكان لايعبأ بتوثيقه من جديد .

ولكن كانت هناك أمه كما كانت هناك السيارة وكما سيكون هناك القطار وجميع تلك الوسائل الاخرى التي يمكن بها أن ينتقل جموده خلال الفضاء . وبينما كان يمشى مذعنا في أثر الحمال المثلث بالمتاع لم يسمعه الا أن يذكر أن ذلك القطار نفسه قد قاء عليه منذ شهور على أثر عودته من عطلته حين كان جسده بأكمله في ثورة مجنونة .. وما ان

ركبه حتى اغمض عينيه في خمول وهو يجلس ممسكا بحزمة الصحف والمجلات التي كانت قد ابتاعتها له أمه . وسمع صفير القاطرة وأحس وهو جالس هناك أن عجلات القطار قد بدأت تدور من تحته فاستمر في نعاسه . ثم ما إن فتح عينيه مرة أخرى حتى فوجيء برؤية منازل الضواحي وهي تمضي مسرعة أمام النافذة أسفل جسر السكة الحديد . ومن خلال نوافذ الطوابق العليا أمكنه أن يرى الناس وهم يتحركون هنا وهناك في أرجاء الغرف بين أسرة شعناء كانوا قد نهضوا لتوهم من فوقها . وأخذ القطار يزيد من سرعته في انتظام دون أن ينقطع صفيره وأخذت المنازل تقل وتقل الى أن عبر القطار جسرا ما بسرعة فائقة وفي قعقعة مدوية . ثم بدأت بعد ذلك مناظر الريف .

كان القطار يندفع في طريقه فأحس أن تلك الحركة المندفعة كانت تتناقض مع جموده على صورة لذيذة مستحبة . فماذا يعنى القطار بالنسبة له سوى شيء ذى هدف واتجاه وارادة — مثلما كان فيما مضى هوى الممرضة وجزع والديه ؟ وخطر له فجأة انه لو واصل حياته كلها على تلك الصورة لكان ذلك جميلا مستحبا . فالقطار والممرضة ووالده — ومن بعدهم قوى أكبر أن لم تكن أكثر غموضا سوف يستودعها نفسه بقدر مماثل من الثقة والابتهاج .

وتراءى له انه جندي جريح جائع مهلهل الثياب في جيش لا يدري شيئا عن أوامره أو اهدافه ، أو شحاذ يعانى تعاسة لا يد له فيها ، بل لا يحس بها . أو غنى ذو ثروة لم يكتسب منها مليما واحدا . أو مرتق الى سلطة لم يسع اليها قط أو كاهن في كنيسة لا يدري شيئا عن طقوسها او شخص ماتت فرحته الاخيرة الى الابد بسبب كارثة لم يتنبأ بها أو يرغب في تجنبها . وكانت قعقعة القطار وهو يسير فوق تحويلات القضبان ووقع العجلات السريع المنتظم و صفير القاطرة وهو يمزق سكون الريف اربا اربا بل ومنظر ذلك الريف نفسه وهو يولى الأدبار متراجعا أمام نوافذ القطار — كل هذه الاشياء كانت تستحث خواطره . نعم — فعندئذ لم يكن سوى قشة في وسط مجرى عريض قوى دوام حيث لا يسعه الا أن

ينحرف مع التيار والامل لا يكاد يراوده في أن يظل طافيا حتى النهاية . وقد أسلم نفسه لذلك التيار مغمض العينين في ثقة كما سبق أن أسلم نفسه لذراعى الممرضة قبل ذلك ببضعة أيام .

وفي الواقع فانه أغمض عينيه بالفعل ليتفحص ذلك الخاطر في مزيد من الامعان بينما خيل لأمه التي تسهر على راحتها انه يرغب في النوم فوضعت له وسادة خلف رأسه بيديها اللتين أحس بما فيهما من رفق وحب . وكانت الممرضة حتى ذلك الحين لاتخطر له على بال الا ايماءة في غموض الى تلك الخبرة الجديدة التي كانت هي الأداة فيها على غير وعى منها . وعندئذ حاول أن يعثر في ذهنه على تعريف للمعنى الحقيقي العميق لتلك الخبرة الجديدة . وتذكر أنه في لحظة المضاجعة أحس برغبة قوية مفاجئة في أن يلج بطن المرأة بكليته وبكامل كيانه وأن ينكمش هناك حيث الظلام الدافئ الكثيف تماما كما كان يرقد منكمشا قبل مولده . ولكنه أدرك الآن أن ذلك الرحم لم يكن سوى رحم الحياة نفسها التي كان ينكرها حتى ذلك الحين فأرغمته المرأة في استبداد على قبولها . نعم فقد خلص الى أن ذلك هو ماينبغي أن تكون عليه الحياة . فهي ليست السماء والارض والبحر . وهي ليست الكائنات البشرية ومنظوماتها بل هي كهف مظلم ندى من لحم أمومي حان يمكنه أن يلج في طمأنينة واثقا من انه سيجد فيه الحماية كما كان يجدها وهو في رحم أمه طوال حملها به . فالحياة معناها الانغماس في هذا اللحم والاحساس بأن ظلامه وقدرته على الاستيعاب ورجفته أشياء حيوية خيرة . وفجأة أدرك معنى ذلك الاحساس بالراحة الذي لم يفتأ ينعشه بينما كانت الممرضة تهصره في أحضانها .

ولازمه ذلك الخاطر طوال ساعات الاصيل وبعد تناوله العشاء عندما أنزلت أسرة النوم وأوى هو وأمه الى فراشهما ظل يلازمه شطرا طويلا من الليل الى أن استغرق في النوم . وفيما هو نائم عبر القطار جسرا جديديا طويلا يقوم فوق نهر عريض للغاية فخيل له انه يسمع دوى الدعائم تحت ثقله .

وبعد ذلك بوقت طويل أحس بلفظ أصوات حية وبوقع أقدام يتردد صداها في سكون مفاجيء فأدرك أن القطار قد بلغ محطة كبيرة حيث توقف عن السير . ولكن الوقت لم يزل في أعماق الليل فانقلب على جنبه واستغرق في النوم من جديد ولم يحس بمناورة القطار وهو يستبدل القاطرة أو بمغادرته المحطة مرة أخرى . بل استمر في نومه مستيقظا بين آونة وأخرى ومنتبها لحركة القطار فلا تفتأ تراوده نفس المتعة في كل مرة . . . وعندما استيقظ لآخر مرة كان قد ارتفع الضحي . وأدرك من وقع العجلات البطيء الجهد أن القطار يصعد مرتقى من الأرض .

وعاونته أمه على أن يغتسل ويرتدى ملبسه ثم جاء المحصل ورفع الأسرة . وفي النهاية جلس لوقا بجانب النافذة وأخذ يتطلع الى المنظر الطبيعي . وعندئذ كان القطار يسير تحت سفح أحد الجبال محاذيا له وهو يدور ويتلوى حول ممر ضيق أمكنه أن يرى في قاعه سيلا مندفعا . وثمة منحدر جبلي آخر كان يرتفع في وعورة على الجانب القصى من السيل حاجبا السماء عن الانظار . وحملق لوقا في أمواه السيل المزبدة وفي كتل الصخر المنهارة ومن حولها تندفع المياه وتتكسر كما حملق في غابات الصنوبر الكثيفة التي كانت تكسو سفح الجبل حتى اغتسلت جذورها بتلك الامواج الثائرة . وفي ذلك الصباح الغائم كانت مياه السيل تبدو قدرة في ضوءه الشاحب فتراوح لونها بين البياض والزرقة الخفيفة . أما الصخور فبدت حمراء صدئة واكتست أشجار الصنوبر بخضرة قاتمة كثيبة معتمة . كما اكتنف ذلك القفر الموحش في جبال الألب جو من الكآبة القديمة غير المبالية . وكان لوقا يرى الجبال لأول مرة فخيّل له أنها لم تكن جميلة كما كان يعتقد . وأحس بخيبة الامل .

ولكن القطار أثناء دورانه حول سفح الجبل خرج الى بقعة مكشوفة حيث رأى لوقا عند الطرف القصى من الممر قمة يغطيها الثلج بدت له على ارتفاع شاهق وقد سمت في شموخ فوق جبلين صغيرين تكسوهما الاشجار تماما . وكانت

السحب في السماء قد تفرقت فأضاءت الشمس ذلك الثلج البعيد حتى جعلته يتلألاً . وعندئذ لم يدر لماذا تولاه فرح مفاجيء لم رأى ذلك البياض العف في جلاله ووحدته . وعاوده الاعتقاد بأنه محمول نحو هدف مجهول وبأنه مستسلم لذلك في ثقة . ولكنه حينئذ طرأ عليه شيء من التغير لاحساسه الذي لم يعهده قط من قبل بأنه محمول في استسلام من جانبه نحو تلك الثلوج التي لشد ما نصح بياضها وسمت في علاها . وظل مركز عينيه المفتوحتين على سعتهما على قمة الجبل . وكلما انعم اليها النظر زاد احساسه بتلك الفرحة النشوى المطمئنة وهي تنمو وترعرع بين جوانب نفسه . كان يعلم انه ليس ثمة سبب مادي لابتهاجه على تلك الصورة لمجرد رؤيته قمة ثلجية من قمم الجبال ومع ذلك فانه لم يسعه الا أن يدرك ان ذلك المنظر بالذات هو الذي حرك جهاز آماله العميقة بعد ان ظل معطلا زمنا طويلا . واستدار نحو أمه يسألها وهو لا يكاد يعنى ذلك قائلا : « وماذا حدث للممرضة ؟ » .

فأجابته أمه قائلة في دهشة : « أحسبها ترعى مريضا آخر »

وحدث لوقا نفسه قائلا : « نعم فقد عنيت بى عناية حسنة » ثم قال لأمه : « انها رائعة . . . ولولاها لما امكنتى حقا أن أشفى بهذه السرعة . »

فقالت امه مستاءة الى حد ما لئسيانه رعايتها التي كانت تغدقها عليه :

- « لا داعى للمبالغة . ولكن لاشك انها ممتازة . »

فردد لوقا كلامه قائلا : « نعم انها رائعة . »

فقالت أمه : « وبهذه المناسبة . فلا بد انها شغفت بك شغفا شديدا . . . اذ اتصلت بى تيلفونيا عدة مرات للاطمئنان على صحتك . »

- « وبماذا اجبتها ؟ »

– « انك استعدت صحتك تماما . »

فأغمض لوقا عينيه . وفى نفس اللحظة اندفع القطار فى أحد الأنفاق وهو يطلق صفيرا طويلا محزنا . وعندما فتح لوقا عينيه مرة أخرى لم ير شيئا سوى الظلام بينما هبت على وجهه من جدران النفق القاتمة ريح رطبة اختلطت برذاذ الماء الحفيف ونفحات البخار . وبدأ له وقع العجلات الذى لم يفتأ يتردد صدها فى قبة النفق وكأنه صوت مرخ رتيب يعيد نفس الألفاظ مرارا وتكرارا . بل لقد خيل له انه قادر على تمييز تلك الألفاظ – فاذا هى نفس الالفاظ المليئة بالامل التى صاحبتة منذ أن أفاق من هذيانه يوما بعد يوم خلال شفائه البطيء . وأدرك أن كل الاشياء منذ ذلك الوقت فصاعدا وليس فقط قعقة القطار فى النفق أو بياض الثلج فوق قمة الجبل سوف تحمل له معنى ما وتتحدث اليه بلغتها الحرساء الخاصة . ثم خرج القطار الى ضوء النهار مطلقا صفيرا آخر .

انتهت